الهالة المقدسة

رواية

د.حنان لاشين

(أم البنين)

دار البشير

للثقافة والعلوم

دار البشير للثقافة والعلوم

1436 هـ
2016م

اسم الكتاب: الهالة المقدسة

التأليف: د.حنان لاشين (أم البنين)

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 304 صفحة

عدد الملازم: 19 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 25215 / 2015

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 278 - 511 - 7

التنسيق الداخلي والإخراج: إسلام الحماقي

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533

01012355714

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع ، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من:

دار البشير للثقافة والعلوم

الهالة المقدسة

إهداء

"إلى الشهامة والمروءة والأمان،

إلى السَّند والحِصن،

إلى كلّ شاب،

وإلى الدمعة التي جرت على لحيةٍ شابتْ،

إلى أصحاب المقام الرفيع،

وإلى الهالة ومن فيها".

**

"الإنسان معجزة المخلوقات، وهو ليس آلة كاتبة، ولا اسطوانة ناطقة، وهو أكثر من مجرد آليات جسدية، هو عقل وروح ووجدان، وذاته مستودع قوة وأسرار إلهية، وهو يستطيع أن يتكلم بلا نطق، ويسمع بلا أذن، ويرى بلا عيون.

والروح أولى صفاتها خرقها للقوانين، وعلوها عليها، وارتفاعها فوقها وفوق المنطق، وفوق المعقول، ولهذا فهي متجددة أبدًا..لا يمكن التنبؤ بمكنونها»

د. مصطفى محمود

١

كانت مياه البحر تمتدّ كبساطٍ ناعمٍ لازوردي فتّان. هدأ البحر وهدأت السماء من تلك الحمرة المسمومة التي كانت تنذر بالزوابع. بدا الجوّ لطيفًا جدًّا بعد أسابيع من البرد القارص. أخيرًا استعاد الجو اعتداله وعاد لعروسِ البَحرِ مزاجها الرائق. كان قد مرّ أمدٌ طويلٌ جدًّا لم يُغادرُ فيه «أُسامة» إلى الإسكندرية، وها هو اليوم يعانق نسيمها من جديد.

جلس مُرتديًا بزّة غامقةً حسنة التقاطيعُ وعليها معطفٌ غامقٌ من نوعية فاخرة. كانت لديه مسحة من الوسامة ووجه قسماته مريحة. عيناه العميقتان وحاجباه الكثيفان جعلا لنظراته أثرًا ساحرًا على كل من يتحدّث معه. كان وجهه نبيلًا يبعثُ على الثقة والراحة. أرسل البحر أمواجه النّاعمة لتلاطف الرّمال بدلال، وعلى صفحته انعكاسات الألوان المتموّجة هنا وهناك. كان «أُسامة» يتلهى بمراقبة طائرة ورقية صُنعت من أعواد الخيزران تطير بعيدًا في السماء.

على الشاطيء الخالي تقريبًا من الناس، ثمّة شاب نحيل جدًّا. كان

شعره مجعدًا صلبًا كالفرشاة، ولديه مشية مميزة تنم عن ثقته بنفسه. تسير بجواره فتاة هادئة الملامح، ملابسها غير لافتة للنظر. كان كلّ منهما ينظر إلى البحر محدقًا في صمت!

ترك الشاب يد الفتاة ثمّ خلع معطفه بعفوية، وناوله لها فطوته برفق واحتضنته وكأنه قد أعاد إليها جزئًا منها. خلع أيضًا حذاءه وجوربه، و بحرص بدأ في طيّ ذيل بنطاله ثم بدأ يبلل ساقيه بماء البحر البارد. ركل الأمواج بقدمه ليُضحك الفتاة التي كانت تتبعه كظلّه. التفتَ ونظر إليها، ثم فتح ذراعيه بعد أن كست وجهه ابتسامة رائعة أماطت اللثام عن أسنان لؤلؤية ناصعة البياض وروح جميلة. بدأت تلتقط له الصور واحدة تلو الأخرى بهاتفها الجوال وهو يغيّر من أوضاعه ووقفاته ببراءة وكأنّه طفلٌ صغيرٌ. كل شيء يبدو لطيفًا طالما هما معًا. كان وجهها مفعمًا بالارتياح. تبادلا الأدوار فوقفت وقد اصطبغ خدّاها بحمرة الشفق، وما زالت يداها تحتضنا معطفه. بينما وقف أمامها وتحوّل إلى تمثالٍ للحظات طويلةٍ وهو يتأمّلها قبل أن يلتقط لها صورة اختزلت لغة الكلام في نظرتيهما. راقبهما «أُسامة» للحظات فغمرته بعض المشاعر الحلوة. حتى قرص الشمس الذي أوشك على الرحيل تأخّر قليلًا لينعم برؤيتهما معًا، كم يُحب هذا النوع من البساطة وذاك الجمال والدفء الذي يتخلل العلاقات الإنسانية. التفتَ الشاب يمينًا

ويسارًا وكأنّه يبحث عن أحدٍ ما. حانت منه التفاتة تجاه «أُسامة» فرآه يراقب البحر. اقترب منه وأشار إليه حيثُ كان غارقًا في حالة من حالات السكينة التي تغمره كلّما وقف أو جلس أمام البحر وكأنه مخدّر. حيّاه بحبورٍ وعرّفه بنفسه، ثم سأله أن يلتقط له ولعروسه صورة بهاتفهما الجوّال. أدرك حينها أنهما حديثوا الزواج، وأنه يشهد الآن ميلاد حبٍّ غضّ نديٍّ أخضر عفيف، ويا له من حب صادق.

سرى اضطراب ودّيٌّ دافيء بينه وبينهما، ومسّته عدوى السعادة. كانت تلك المرّة الأولى التي يشعر فيها بالحنين لذاك الشيء الذي يُسكت صوته كثيرًا وهو يعتملُ في صدره. يبدو أنه يحتاج إلى أنيس، إلى زوجة تمسح بقلبها الحاني على أوجاعه، كان يتشرنق على ذاته ويستمتع بوحدته. لكنه اليوم يجد في نفسه تغيرًا، ويشعر أن هناك خطبًا ما! يبدو أن نفسهُ الطيّبة تشتاق للحُبّ. رحلتهُ إلى الإسكندرية تمت بدون تخطيط مسبق، فهو يحتاج إلى إجازة ليسترد أنفاسه ويهدأ حتى يصفو ذهنه ويتخذ القرار السليم دون أيّ تأثير من شخصٍ آخر. وهو قرارٌ صعبٌ بالنسبة له. كان في صراعٍ داخلي، يتمزّق بين بقائه في مصر- حيث أمه وأشقائه وحيث المستشفى الخاص الذي أنفق جدّه عليه جلّ ماله بإخلاص كمشروع استثماري من أجلهم - وبين انتقاله الدائم إلى المملكة المتحدة. فبعد تخرجه من

كليّة الطب وحصوله على الماجستير حصل على منحة دراسية لكي ينال شهادة الدكتوراة من جامعة «وارويك» في المملكة المتحدة. فالتقى هناك بالدكتور»جيمس روبن» أستاذ هندسة الكهرباء الحيوية؛ حيثُ يهتم هذا الفرع من الهندسة الطبية بالنشاط الكهربائي الحيوي في الجسم والذي يتضمن نشاط الجهاز العصبي.

استدعاه الدكتور «جيمس» في أحد الأيام عن طريق زميل آخر يُشرف على دراسة «أُسامة» هناك المختصّة بعلم جراحة الأعصاب، فذهب إليه ودار بينهما حوار جاد. لن ينسى أبدًا نظرته عندما رآه، فقد رمش بعينيه نحوه بإعجابٍ فور أن دلف من الباب، ثم ابتسم بوقارٍ ودعاه للجلوس أمامه، وقال بصوت هاديء:

– اطَّلعتُ على مقالٍ باسمك قد قمتَ بتقديمه للنشر في المجلة العلمية «وايت مايند»، ولفت نظري صغر سنّك فهلّا حدثتني عن مقالك أكثر.

انتابه شعور أن كل من بالمكتب وكلَّ شيء أيضًا حتى عقارب الساعة قد توقف لينصت إلى كلامه، استجمع قواه ونظر في عيني الدكتور «جيمس»، ثُمّ قال بثبات:

– المقال يتحدث عن إمكانية زرع أقطاب إلكترونية في دماغ شخص مصاب بشلل دماغي تحتوي على ذكريات تم جمعها من مخ شخص آخر

مما يسمح له بالاستفادة من تدريبٍ لم ينله من قبل مخزّن في الذاكرة المنقولة فتتغير حياته ويتغلّب على مرضه.

عقد دكتور «جيمس» حاجبيه في شكٍ، وقال:

- هذا يتطلب جرأة وعطاءً كبيرًا، من سيسمح لنا بالعبث بدماغه؟ لن يوافق عليها غالبًا إلّا أحد أقارب المريض من الدرجة الأولى، إن وُجد!

عدّل «أُسامة» ربطة عنقه، وأردف قائلًا:

- أُدرك هذا جيّدًا، وليكن متبرعًا بطريقة قانونية. أطمح في اكتشاف طريقة لنسخ الذكريات دون المساس بالمخ عن طريق استخدام أجهزة الكومبيوتر والموجات الراديوية، لكنني ما زلت أدرسها.

- ولكن يا بنيّ الجميع سيعتبرونها خيالًا علميًّا، وأعتقد أنه لن يصدقها أحد ما لم تجرِ مائة تجربة ضابطة.

قال «أُسامة» بإصرار:

-لا بدّ أن نجرّب.

كان الدكتور «جيمس» يثقبه بنظراته النافذة عندما عقد ذراعيه على صدره، وقال مستنكرًا:

- وأين ستفعل هذا؟ في مصر!

حاول «أُسامة»أن يظهر هدوءًا مصطنعًا، فقد أربكته لغة جسد دكتور «جيمس» مما أدى لتشتيت أفكاره قليلًا. استجمع شتاته وحزمه، ثُمّ قال متجاهلًا سؤاله الأخير:

- التجربة إن نجحت لن تفيد فقط مرضى الشلل الدماغي، يمكن للنوع نفسه من الرقاقات العصبية المزروعة أن تُعِيد بعض الوظائف الدماغية التي فُقدتْ بعد التعرُّض لحادثٍ أو سكتةٍ دماغيةٍ أو الإصابة بمرض ألزهايمر.

قطَّب دكتور «جيمس» جبينه ونظر إلى أظافره، وكأن الأمر لا يهمه، وقال:

- إنها تجربة ماتعة ومثيرة للتفكير في كيفية استخدامها في التطبيقات المحتملة ولكنها بعيدة المنال، مثل خوذات الجنود المزودة بالتكنولوجيا الفائقة للتواصل بصمت وراء خطوط العدو. أنهى جملته وعلّق ابتسامةً واثقةً على شفتيه.

أشاح «أُسامة» بنظره عن وجه دكتور«جيمس»، وأخذ يحملق في الزجاج اللامع الذي يغطي مكتبه الأنيق، ثمّ قال بعد أن اعتدل في جلسته على المقعد الجلدي الفاخر مما أدى لاحتكاك قماش بزّته الأنيقة به مُصدرًا أزيزًا مزعجًا، فزاد من توتره، فأغمض عينيه وهدّأ نبرة صوته محاولًا أن

يبدو واثِقًا من كلامه:

- أعلم أن الوصول إلى تلك النتيجة لن يكون سهلًا؛ فنجاح هذه الزراعة يتوقف على مستوى تقني متطور جدًّا من العلوم العصبية بدأ الناس في استيعابه لتوِّهم.

توقف الدكتور «جيمس» عن الكلام لدقيقة كان «أُسامة» خلالها كالصنم أمامه ينتظر ردًّا مطمئنًا، ثمّ كشف له دكتور «جيمس» عمّا يدور بخلده قائلًا:

- ستحتاج إلى فريق كامل من مهندسي الكهرباء الحيوية، والأهم من ذلك هو أن هذه التقنيات الحديثة تطرح تساؤلاتٍ أخلاقيةً كانت في السابق حِكرًا على ميدان الخيال العلمي. كما أن بلدك فقير!

كاد «أُسامة» يتهور ويطرق سطح المكتب بقبضته، فقد كان حلمه أن لا يحتاج لمساعدة أحد، لكنّه مرغمٌ رغم أنفه. تنفس بعمقٍ، وقال:

- لا بدّ أن نجرّب، فذكرياتنا هي ما يُميِّزنا؛ ومِن ثَمَّ فإن حفظها من التلف يمكن أن يُنقِذ أجسادنا وحياتنا وهويتنا.

قال دكتور «جيمس»- وهو يخلع نظارته المستديرة:

- دعني أسألك سؤالًا واحدًا عنك أنت يا دكتور «أسامة»، عندما تصبح ذاكرتك خوارزمية حاسوبية، وتحصل على الكثير من ذكريات شخص آخر، هل ستظل الشخص نفسه؟

هزّ كتفيه بلا مبالاةٍ، وقال مبتسمًا:

- لا أدري.. أرجو أن أظلّ كما أنا، ولا أظن الذكريات تغيّر الروح والنفس، وفي الحقيقة لدي قناعات عقائدية وفلسفية عميقة تتعلق بهذا الأمر.

ضيق الدكتور «جيمس» فمه مبرطمًا، ثُمّ قال:

- دعني أصارحك بنقطةٍ هامة؛ الكثير من الباحثين لن يقتنعوا بالتجربة، وستواجه عراقيلَ كثيرة. فكونك عربي ومسلم سيجعلك تحت الملاحظة وربما الشّك، لهذا لا بدّ أن تعمل في الفريق منصهرًا فيه. لا تلتفت لاختلاف الجنسيات، ولا الأديان، العلم فقط، واجعل عقيدتك وفلسفاتك لنفسك بعيدًا عن أُطروحتك العلمية.

أوجعته كلماته لفرط صدقها بالفعل، فلولا ألم الوطن ما فكّر في الرحيل عنه. انتهى اللقاء وبدأت مخاوفه تتنامى، وصارت مقارنات تتم في عقله لا شعوريًّا بين حال العلم والعلماء في بلده وهنا في المملكة المتحدة، وكأنه يشاهد فيلمًا وثائقيًّا مُصورًا يعرض الفارق الرهيب بينهما.

ما وقعت عيناه على شيء رائع هناك وهو يسير في أروقة جامعة «وارويك» إلا وكانت صورة النقيض أمام عينه الأخرى ليس في مصر فقط ولكن في البلاد العربية كُلّها. غادره وهو يتساءل في نفسه إن كان يهدهد أملًا وهميًّا.

على عكس ما توقعه، بعد هذا الحوار بيومين عرض عليه الدكتور «جيمس» وفريقه العلمي أن ينضمّ إليهم وينتقل إلى المملكة المتحدة. أجر ثابت ومغر جدًّا، ووظيفة رائعة وجامعة عريقة، ولكن لا بدّ أن ينتقل بشكل نهائي. وأن ينصهر في فريقه العلمي كجزءٍ منه ويشاركهم أفكاره وتجاربه العملية.

مرّ الوقت وهو يستعيد كلّ تلك الأحداث في ذاكرته، وهو ينصت شاردًا لهدير الأمواج المرتطمة بالصخور، وغَاص مجددًا في نفسه يُفكّر. عاد لحيرته وأطلّ من بعيدٍ وجه أمه، ورآه حاضرًا بشفافيةٍ على صفحة البحر أمامه.

«لست في حالة تؤهلني للارتباط بزوجة الآن».. قالها هامسًا لنفسه وهو يجلس أمام البحر. لم يحن الوقت بعد، هناك أولويات في حياته على رأسها تحقيق طموحه العلمي أولًا، فقد خطط لكلّ شيء بدقةٍ وحرصٍ شديد، وهكذا كانت كلّ حياته بالقلم والمسطرة. جداول يخططها منذ سنوات، يُرتّب قراراته وأهدافه، ويُعلّم عليها واحدًا تلو الآخر. ولكن ماذا يفعلُ بأُمّه التي تُلحُّ عليه ليخطب ويتزوج سريعًا من ابنة خاله «ريتال»، وكلّما رأته لاحقته بأخبارها وحدثته عنها. هي رقيقةٌ، وجميلة، ولكنه لا يدري.. هناك شيء ما يحجبه عنها! ربما لأنها تصدّه أحيانًا ولا تفسح له المجال ليتحاور معها، كلامها معه بجمل قصيرة، متحفظة، مقتضبة! لم تكن هكذا عندما كانوا صغارًا. يشعر أنها تركض هربًا منه، ليس وقتها الآن، فلديه أولويات.

تعلّقت السيدة «دولت» بأبنائها كثيرًا بعد وفاة زوجها. لن تنسى هذا اليوم أبدًا. شعرت بألم ممزق عندما انتزعوا منها جثّة زوجها. سالت العبرات على وجنتيها في صمت. ثُمّ زفرت بقوة لتسكُن كالصنم. وقتئذٍ كان أكبر أبنائها «حُسام» قد تخطى التاسعة من عمره، بينما كان «أُسامة» قد أتمّ السابعة منذ أيّام، أمّا أختهما «مريم» فكانت لم تبلغ الرابعة بعد. رفضتْ «دولت» الزواج مرّة أخرى رغم جمالها وصغر سنّها في ذلك الوقت، وآثرتهم على نفسها، وصبرت، ولم تخضع لضغوط والدها وشقيقها.

كان «أُسامة» يحتاج إلى أبيه؛ ودّ لو أنّه هنا ليستشيره في كلّ أُموره وليلقي برأسه على كتفه وينعم بحضنه الدافيء، وينام قرير العين مستكين الفؤاد. تخيّله كثيرًا وهو يتحدّث إليه وينصحه، أو يصحبه لمشاهدة مباريات كرة القدم، كما شعر كثيرًا أنه يحتاج لوجوده بجواره في حفلات التكريم التي توالت خلال سنوات دراسته نظرًا لتفوقه المتكرر. كانت دائمًا فرحته منقوصة لأنّه ليس هناك. كان دائمًا حاضرًا في مكان ما بزاوية صغيرة من رأسه. «والدُك كان شخصًا رائعًا» هكذا يقولون دومًا عندما يتحدّثون عنه في المجالس، كانت سيرته الندية تشي بأنه كان شخصًا يصعب على من يتعامل معه لفترة أن ينساه. كما أنّ ذاك الجزء في صوت أمه كلّما سألها عنه دليل على شغفها به، حتى نظراتها وهي تنطق باسمه تشي بأنه كان بينهما الكثير.

مضت سنوات فترة المراهقة من حياة «أُسامة» وقد كان يشعر كثيرًا بالوحدة لولا خطابات صديقه «سليمان» التي كانت تصله كل أسبوع يتسلى بها و بالرد عليها، حتى يحين موعد زيارته له في إجازة نصف العام مرّة وفي الصيف مرّة. يقيمان خلالهما معًا في بيت واحدٍ منهما. كان يشعر باللذة وهو ينتظر وصول الرسائل. فسليمان في تلك الفترة لم يكُن لديه حاسوب، فلا بديل عن الخطابات البريدية إذًا. رائحة الورق وطوابع البريد ومذاق صمغها على طرف لسانه وهو يلصقها على المظروف قبل أن يكتب عنوان «سليمان» بالإسكندرية بخطٍ واضحٍ ومضيفًا في النهاية «شكرًا لساعي البريد». كانت أجمل أيام حياته وقتئذ. وأما الآن بعد استبدلها بالبريد الإلكتروني ورسائل الهاتف، يفتقد رائحة الورق ومذاق الصمغ القابض وتلك الفرحة المصاحبة لتسلّم المظروف ثُمّ فتحه بحرص حتى لا تتمزّق الكلمات المطوية بحبٍّ في داخله. نشأ «أُسامة» في بيئةٍ جدُّ متحفّظة، فكلّ شيء يسير بقوانين وطقوس رتيبة. حتى عندما أعطاهما جدهما قدرًا ضئيلًا من الحرية كان لا يحب الخروج مع شقيقه «حسام»، وظلّ دائمًا يتعلل بدراسته. فضّل دائمًا البقاء مع أخته «مريم»؛ حيث كانت تجلس بهدوء لتقرأ الروايات، وتخبره من آن لآخر بملخص ما قرأته، وكان ينصت إليها طويًلا. خوف أُمّه الشديد عليها كان سببًا في أسرها بالبيت مما جعله

يشفق عليها ويتركها تتحدث وتثرثر معه في أي شيء. كان ينصتُ حتى تفرغ كل ما بجعبتها من حكايا وتبتسم، فابتسامتها مصدر لسعادته، وصوت قهقهتها أسرع محفّز لتفتق ثغره عن ابتسامة. حدثته عن الماكياج وعن أنواع الأقمشة، وأخبرته أن الحقيبة والحذاء هما علامة أناقة الفتاة. كما حدثته كثيرًا عن «الكونسيلر» وعن أنّه مهمٌّ جدًّا، حتى أنّه كان يهزّ رأسه موافقًا وهو لا يعلم ما هو «الكونسيلر»، وربّما لا يعلمُ حتى الآن. كانت تستعين به ليضع لها طلاء الأظافر ليدها اليمنى فهي لا تُحسن وضعه بيدها اليسرى. كما أنه كان يعاونها في نزعه من أظافرها لتتوضأ، ثمّ تعيد وضعه مرّة أخرى!

«مساكين أنتن أيتها الفتيات؟ لماذا تضعون طلاء الأظافر ثُمّ تنزعونه مرّة أخرى؟». أراد أن يخبرها برأيه هذا مرارًا.

«ما هو الكونسيلر؟» أراد أن يسألها أيضًا، لكنّه كان يبتلع أسئلته مخافة أن تتقوقع بعيدًا عنه وتظنها سخريةً منه، وكان يكتفي بتقديم المساعدة وحسب. حرصًا على أن يكون دومًا قريبًا منها.

لم تكن لديه الرغبة بالمرح مع الشباب. وكان إلحاح أُمّه عليه ليذاكر حتى يتفوق دراسيًّا لا يتوقف. أَحبَّ «أُسامة» جدَّه كثيرًا، فقد احتواه وكان له دور كبير في تنشئته، وهو يتوق دائمًا لرؤيته، ويُكِنُّ له الكثير من المودّةِ بإعزاز شديد. وله معه ذكريات كثيرة نُقشت في عقله فلا تنمحي أبدًا،

فقد كان يتوسّد ذراعه في طفولته ويستغرق في نوم عميق وهو يهمس له بحكاياه الشيّقة الحلوة، أمّا الآن فتضيف نفسه بلومه الدائم له على قراراته واختياراته، وانتقاده اللاذع لبعض تصرفاته. فهو يراه منطويًا وينقصه الكثير من النضج. فرغم تفوقه الدراسي لم ينل رضاه حيث ذكر أمامهُ مرّة أنه يودّ الهجرة بعد إنهاء دراسته إلى أي بلد أخر. و منذ تلك اللحظة صار بينهما حاجزًا مقيتًا، وكلما اختلفا في نقاشٍ حول هذا الأمر، كان يرمقه بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأنّه سيرتكب جريمة ما. ودّ كثيرًا أن يخترق تلك المنطقة المحظورة التي أحاطت بعلاقتهما، وأن يحطم الحاجز بينهما ثم يلقي بنفسه في حضنه ويلومه؛ لأنه لم يحاول أن يفهمه.

قطع صمته صوت خطواتٍ تقترب، فالتفت ونقل عينيه المعلّقتين بالأفق ولمح من بعيد الزوجين السعيدين وهما يبتعدان عن شاطيء البحر، فقد بدأ كلاهما يرتجف بردًا بعد أن تبللت ملابسهما بالماء، وشعر هو أيضًا بقشعريرة تجتاح جسده.

قد كان ثَمّ رجلٌ هزيل البدن، طويل العنقِ، ضيّق الجبهة له لحية بيضاء قصيرة. اقترب بعد أن حيّاه تحيّة وجيزة، وقال بصوت دافيء:

- هل تسمح لي أن أجلس بجوارك قليلًا؟

شعر «أُسامة» بريبة، وقال بعصبية لم يُفلح في إخفائها:

- تفضّل. ولكن عفوًا هل أعرفك؟

- لا أظنّ. خطوطنا قد تقاطعت من قبل.

ثُمّ حدّجه بعينيه، وأردف معرّفًا نفسه:

- أنا «سعد حلمي».

قال بتأثر، وقد ذهب الريب عنه:

- مرحبًا بك، وأنا «أُسامة».

ابتسم ابتسامة خافتة وغضّن جَبينه، ثُمّ قال:

- أتعلم أنك تشبه ولدي؟ لديه نفس النظرة الذكية الواثقة، والحاجبان الكثيفان المتصلان، ومسحة الوسامة التي تفتن الفتيات.

راقب «أُسامة» ملامح الرجل وهي تتغير بتأثر، وقال ليحثّه على إكمال حديثه:

- أحقًّا أنا أشبهه؟

قال بهدوءٍ باسم بعد أن أخرج صورته من محفظته وناوله إياها: فلاحظ فعلًا أن هناك شبه بينهما:

- نعم يا بنيّ، أنت تشبهه فعلًا، كان مهندسًا ماهرًا قبل أن يموت.

استيقظت كل حواسه فجأة فأخرج يديه من جيبي معطفه، وقد سرت في جسده قشعريرة ثمّ سأله:

- أسأل الله أن يرحمه. ما كان سبب وفاته؟

مسّد الرجل لحيته بهدوءٍ، وقال:

- لم يمت بالمعنى الحرفي؛ لقد رحل عن مصر للأبد، وبعد هجرته نسيني تمامًا، فمات وهو على قيد الحياة.

شعر «أُسامة» بغصّة في حلقه ولم يجد كلمات يعبر بها عمّا اعتمل في صدره. زمّ السيّد «سعد» شفتيه في استياءٍ، وقال:

- كان يهاتفني في البداية كل يوم، ثم كل أسبوعين، وقللها لمرّة في الشهر، والآن يهاتفني فقط في المناسبات. ويستاء لو لمته على قلّة اهتمامه. حتى صوته أصبح باردًا جافًّا وقاسيًا في كثيرٍ من الأحيان. كما أنّه لا يحدثني إلّا وهو خارج البيت بعيدًا عن زوجته وأبنائه.

قاطعه «أُسامةُ» مستنكرًا، وقال:

- لقد صار سهلًا أن تتواصل معه كلّ يوم عن طريق الهواتف الذكية وبرامج التوصل الحديثة، خاصّة بعد تيسير وجود شبكة الإنترنت في كلّ بيت، فهل جربتم هذا الأمر؟ وهل لديك حاسوب بالبيت؟ ربما ترى صوره عن طريق الكاميرا.

هزّ الرجل رأسه وقال وهو يراقب موج البحر متأملًا في شرود كأنّه منفصلٌ عن العالم في تلك اللحظات:

- يا ولدي، الرغبة في التواصل من جانب واحدٍ لا تكفي. لا أظنّ أنه يشتاق إلي. لقد اعتدت على الوحدة.

أشار السيد «سعد»إلى سيارة خضراء كانت تقف بعيدًا حيث يستند عليها شاب عشريني رفع يده وحيّاهما فور أن نظرا إليه، فرفع «أُسامة» يده وبادله التحية، ثم أردف السيّد «سعد» قائلًا:

- هذا سائقي الخاصّ، شاب بسيط وطيب القلب. رغم عدم احتياجي له وظفته عندي لآنس به. لولا تردده عليّ كل يوم وسؤاله عني ما خرجت من بيتي ولا اختلطت بالبشر.

مدّ السيّد «سعد» يده بهدوء لجيب معطفه وأخرج صورة مهترئة الأطراف لطفلين رائعين وأعطاها له، وقال بتأثّر:

- لديه ولدان توأمان، قد بلغا الآن الحادية عشرة من عمرهما.

ابتسم «أُسامة» وهو يتأملهما، وكانت الصورة لهما وهما صغار في عربة الأطفال. أدرك أنها كانت الصورة الوحيدة التي أرسلها له ابنه عندما تمتم الرجل قائلًا:

- لا بدّ أن ملامحهما قد تغيرت الآن، وصارا يشبهانه.

قال «أسامة» بحماس وهو يمد له يده بالصورةِ؛ ليعيدها إليه:

- اعطني اسمه وسأبحث عنه على موقع «الفيسبوك» وربما أنجح في التواصل معه ومعرفة أخباره.

ربت السيد «سعد» على كتفه، وقال بتأثر:

- يبدو أنك شاب لطيف ومهذّب يا «أسامة».

ابتسم «أُسامة» وعاد يراقب البحر غارقًا فيه بعينيه، سابحًا فيه بخياله. تنهّد الرجل، ثُمّ رفع ساقًا على ساقٍ، وقال بإعجاب:

- أليست رائعة! تلك اللوحة الربّانية التي نطالعها الآن معًا!

- بلى..رائعة.

قطب الرجل حاجبيه، وقال بتركيز شديد:

- أُنظر لانعكاسات ألوان ضوء الشمس الساقط على صفحة الماء في السماء، هل لاحظت كيف تتعانق بدلالٍ خلف السحاب؟

حرّك «أُسامة» رأسه متابعًا مسار خطوط الألوان وهي تنساب بنعومة بين ندف السحاب حتى ابتلعها الأُفق. التفت ولمح ابتسامة رائعةً على وجه

الرجل، وكأنّها اندهاشة طفلٍ صغير! خدرتهما رائحة اليود المنبعثة من ماء البحر، ران عليهما صمتٌ قصير قطعه صوت الرجل وهو يقول:

- حسنًا، لا بد أن أنصرف الآن، وربما نلتقي مرّة أخرى، فأنا أجلس هنا دائمًا وخاصّة في الشتاء، أُحبّ أن أراقب تعانق ألوان الطيف في السماء. أستودعك الله يا ولدي.

حيّاه «أُسامة» بحرارة بعد أن تبادلا معًا أرقام الهواتف؛ لعلهما يتواصلان لاحقًا ليخفف عنه. وقرر أن يحاول البحث عن ابنه على شبكة «الفيسبوك» كما أخبره، وكلّه أملٌ أن يساهم في لقائهما من جديد.

وقف «أُسامة» يراقب السيارة وهي تبتعد، وشعر وكأن قلبه يسقط في بئر عميق. مرّت سيارة أجرة وهو يلوح للسيد «سعد» مودعًا إيّاه فاستوقفها وركبها عائدًا للفندق، ومزيج من الأفكار تتشابك في رأسه.

«الرغبة في التوصل من طرف واحدٍ لا تكفي»

ترددت كلمات السيّد «سعد» في رأسه وهو يراقب السماء من نافذة السيّارة.

***

٢

كانت السماءُ صافية جدًّا مما دفع القمر لأن ينير الغرفة بضوءٍ مائلٍ للزرقة. إنّها تشعرُ بالمرض. كلّ عظام جسدها تغلي وتتفتت. فراغ ينهشها من الداخل منذ سفره. تفتقده بشدّة رغم أنّه لا يعيرها أيّ اهتمام. مجرّد التفكير أنّه في بلد آخر يجعلها تحترق. لماذا هو حاضرٌ بقوّة في روحها فهي تشعر دائمًا به قبل أن يطرق الباب، وكثيرًا ما كانت تعلم أنّه هو من يتصل بهم؛ ولهذا فهي تهرع إلى الهاتف واثبةً لترد وكأنّها ستلقاه. تتراجع تارةً حياءً أن يقتحم صوته المميز أذنها، وتقدم تارة وتغالب حياءها فتلتقط سمّاعة الهاتف، وفور أن تقتحم نبرة صوته أذنها ترتجف فتلقي سماعة الهاتف في يد أُمّها أو أبيها دون أن ترد، وتتابع من بعيد حديثهما معه لتتفقد أخباره. أَحسّت فجأة أنها ترزح تحت موجة كبيرة من الحزن لا طاقة لها به، وبدأت تبكي، لا بأس ببعض البكاء لتخفف عن فؤادها المكلوم، فالدموع رحمة. «لقد ابتليتُ بحبّه» همست لنفسها وهي تشكو للقمر. مسحت بكُمِّ قميصها عينيها المغشيتين بالدموع التي انهمرت وحدها. علمت أنّه سافر إلى الإسكندرية بعد عودته من المملكة المتحدة بأيّام. حتى لم يمرّ عليهم

ليرى خاله. في كلّ مرّة تلقاه كان حضوره يطفو في كلّ مكان في الهواء قريبًا منها. وجدت فيه شيئًا جذابًا جدًّا يكاد يكون طفوليًّا. فهي تسعد بالتواجد قربًا منه في بيت جدّها لأنه تحت نفس السقف وحسب، ويكفي حتى مروره بجوارها. ظنّت خلال عُطلة الصيف الماضية أنهما يشهدان تقاربًا عابرًا. ظهر هذا خلال حفل زفاف «مريم»، فقد ابتسم في وجهها مرّتين. لكنّه لم يتقدّم لخطبتها حتى الآن! لم تَكن من ذاك النوع الذي يُحسن عرض نفسه أمام من تحبّه لتدفعه للاهتمام بها. ترى هذا إهانة للفتاة. كانت نقيّة لتلك الدرجة التي جعلتها تنثني على نفسها وتكتم إعجابها؛ ظانّة أنها لا تستحقه لأنّه رائع، بل ظلّت تكبح جماح هذا الحُب لكنها اكتشفت أن الأمر ليس بيدها على الإطلاق. فهي لم تسْعَ لهذا الحبّ بداية! وجدته ينمو داخلها منذ الطفولة ثُمّ عندما تحوّلت فجأة لأنثى رقيقة أخبرها والدها أنها الآن لا بدّ أن ترتدي الحجاب، بدأت تعاني وتتألّم.

سمعت أُمّها مرارًا وهي تدعو الله أن يجعل «أُسامة» من نصيبها، وكانت تتساءل لماذا هو بالذات؟. سمعت أباها وهو يصفه مرارًا ويتحدّث عنه ناصحًا أخاها «يُوسف» ليتخذه قدوة. ليتهما ما تحدثا عنه أمامها، ليتهما ما وصفاه كثيرًا، ألا يعلمان أن لديها إحساس مرهف وخيال واسع؟ سلسلةٌ من الذكريات كانت ترشق دماغها بمئات الأسهم من الماضي. حاولت أن

تركض بقلبها بعيدًا، امتنعت عن زيارة بيت جدّها لفترة، ثُم بدأت تزورهم أثناء غياب «أُسامة»، وقررت أن لا تركض كالسابق لتردّ على الهاتف إذا ما شَعرت أنّه هو من يتصل. حتى أنّها كانت تختبيء في غرفة «مريم» عندما كانت تلازمها قبل حفل زفافها على «أحمد» لتعاونها في الإعداد له. كانت تطرق رأسها بيديها بقوةٍ عندما كانت تفكّر فيه. ودّت أن تتخفف من ألم ذاك الحبّ الذي يقرضها منذ سنوات، وكلّما ابتعدت خطوة اقتربت خطوات، فقد كانت تلقاه فجأة في أي مكان فيُفتح الجُرح مرّة أخرى. ماذا لو كان هناك زرٌّ تضغط عليه لتوقف هذا الأمر! ليت الأمر بيدها! كانت تبحث في كلّ شاب يتقدّم لخطبتها عن «أُسامة»، في شخصيته، في ملامحه، في نظرته، لكنها لم تجده أبدًا.

«أعدّي العشاء لوالدك يا «ريتال»

قالت أُمّها بعد أن دفعت باب الغرفة برفق وهي تفرك وجهها المخدّر تمامًا من أثر النعاس فقد نامت وهي تشاهدُ التلفاز.

قالت «ريتال» وقد دفّأت الدموع عينيها:

- حالًا يا أمي. ألم يعد «يُوسفُ» من المستشفى؟

- هو في الطريق إن شاء الله.

- حسنًا، لعلّه يتناول العشاء معنا.

لاحظت الأُم دموع ابنتها فخطت داخل الغرفة، ثُمّ أغلقت الباب بهدوء، واقتربت منها تسألها بحنان، وهي تمسك بذقنها المبتلّ بالدموع:

- لماذا تبكين يا حبيبتي؟

- أشعر بضيقٍ شديدٍ يا أُمّي.

ألقت برأسها على صدر أُمّها التي كانت تُدرك خبيئتها فمسّدت شعرها بحنان حتى تنهّدت «ريتال» ورفعت رأسها وهي تبتسم وقبلتها وهي تقول برجاءٍ حارّ:

- دعواتك يا أُمّي.

أسرعت «ريتال» إلى المطبخ، بينما اتجهت أُمّها إلى غرفة المعيشة وانضمّت «زينب» لزوجها الذي كان يطالع الجريدة باهتمام. كانت الدموع تتلألأ في عينيها بيد أنّها حاولت أن تُخفيها. رماها زوجها بنظرة خاطفةٍ، ثم قال:

- أين «ريتال»؟

- تُعدُّ العشاء.

- ما بكِ؟

- لا شيئ.

- «ريتال» بخير؟

تلفتت «زينب» يمنة ويسرة، ثم قالت هامسة له:

-كانت تبكي، لكن لا تخبرها أنني أخبرتك أنني رأيتها تبكي.

- حسنًا. وأنتِ أيضًا لا تخبرينها أنني أعرف.

قالت «زينب» بضراعة:

- هل سألتَ «يُوسف» عن «أُسامة» أمس؟

تنهّد «كمال»، ثُمّ قال:

- يقول إنّه لا يراه مهتمًا بأي طبيبة هناك، ويبدو أن أمر الهجرة يشغل تفكيره ويصرفه عن التفكير في الزواج. حتى أنّه لم يذهب إلى المستشفى بعد عودته من سفره إلا لوقت قصيرٍ جدًّا، كان «يُوسف» خلالها مشغولًا بالكشف على حالة حرجةٍ ولم يتمكن من الحديث معه باستفاضة.

- وماذا سنفعل؟

- وما الذي سنفعله! كما ترين ابنتك رائعة، وخطّابها كُثر، هو الخاسر إن لم يفز بابنتي. لن نركض خلفه ولن نعرضها عليه، لا تلتفتي لدموعها، بل حاولي أن تصرفيها عنه، فهي غالية.

- أظنّه زهد فيها من كثرة كلام أُمّه عنها، فهي تُحبّها كابنتها «مريم»

وأراها تتمناها زوجة له.

- أعلم، ولكنَّ حبَّ «دولت» لها لا يكفي، ولا حُب «ريتال» نفسها لأُسامة، فالحبُّ من طرفٍ واحدٍ لا يكفي.

- أسأل الله أن يجبر كسر قلبها ويكتب لها الخير والسعادة حيثُ كانت، سواء كان هذا بزواجها منه أو بغيره.

- آمين.أحسنتِ، ولا تنسي ابنتك غالية، لا بدّ أن تُدرك أنّها أميرة وملكة متوجة لا بُدّ أن يسعى هو إليها وليس العكس، حتمًا إن لم تفز به فستفوز بمن يستحقّها، وربّما أفضل منه، لا تخبريها أنني أعلم.

- وأنتَ كذلك لا تُخبرها أنني أخبرتك بأيّ شيء.

هزّ كلاهما رأسه، وكانت «ريتال» مُقبلة عليهما بوجهها القمري وقد رسمت سريعًا على شفتيها ابتسامة واهنة، وبين يديها سلّة الخُبز وزجاجة الماء، فسوف تبدأ الآن في نقل الأطباق التي أعدّت فيها طعام العشاء. وضعتهما أمامهما على طاولة منخفضة مصنوعة من خشب الفورمايكا، ثُمّ استدارت عائدة إلى المطبخ وهي تهمس لنفسها «فلتَنْسِه يا «ريتال».. الحبُّ من طرفٍ واحدٍ لا يكفي».

***

«والدتك هاتفتنا خمس مرّات حتى الآن».. اخترق صوت موظّف الاستقبال الحاد أذن «أُسامة» فأخرجه من شروده وهو يفتح يده إليه بطريقة آلية ليستلم مفتاح غرفته. وسريعًا ما أعطاه الموظّف المفتاح، ثُمّ رفع حاجبيه ورسم على شفتيه ابتسامة آلية مصطنعة.

«يا لها من وظيفة صعبة! كيف يحافظ على هدوء أعصابه هكذا!». تساءل «أُسامة» في نفسه، ثُمّ هزّ رأسه واتجه فورًا إلى المصعد وصوت الموظف يلاحقه وهو يخبره أن يستعدّ لموعد العشاء، كان يراقب أرقام الطوابق على الشاشة الإلكترونية في المصعد وهي تتغير، ودقّات قلبه تتسارع وكأنه يركض في سباق. استقلّ المصعد مرّة أخرى عائدًا إلى الموظف مجددًا، ووقف أمامه يسأله بنظرةٍ ثابتةٍ في عينيه:

- ما بك؟

- عفوًا سيدي؟

- أنت على وشك البكاء، أليس كذلك!؟

تراخت قسمات وجه الموظف وانهار حاجباه، ثُمّ سالت دموعه على وجهه وكأنّه طفلٌ صغير، أسرع يخفي رأسه ومسح عينيه بمنديل ورقي.

عاد لحديثه مع «أُسامة»:

- لديّ مشكلة، وأمرّ بظروف صعبة، شكرًا لسؤالك.

- أخبرني عنها ربما أُساعدك في حلّها.

زفر الشاب بوجع، وقال بصوت خافت:

- لا أستطيع.

- جرّبني.

- شكرًا لاهتمامك.

- خذ رقم هاتفي، وحاول أن تجرّبني يومًا ما. وأعطني رقم هاتفك.

- حسنًا.

- ما اسمك؟

- «توفيق».

- ها قد سجّلته.

- حسنًا يا دكتور «أُسامة»، تشرفت بالحديث معك وأسعدني اهتمامك.

تجمدت الدموع في عينيه وعاد لابتسامته الآلية. أسرع «أُسامة» لأول مصعد شاغر. دلف غرفته على عجلّ وأخرج هاتفه من جيب معطفه ليعيد

تشغيله، فقد سبق وأغلقه وهو في المسجد، ونسي أن يُعيد تشغيله مرّة أخرى. فوجىء بسبع رسائلٍ متتاليةٍ من أمّه:

«هل وصلت إلى الإسكندرية يا أسامة؟»

«مرّت ساعة، لماذا لم ترد على رسالتي؟»

«أرجوك، هاتفني حالًا؟»

«يا لقسوة قلبك!، أتتركني هكذا وتنشغل بصديقك؟»

«أرجوك يا حبيبي أُريدُ أن أطمئن عليك ولو برسالة قصيرة»

«أرجو ممن يجد هذا الهاتف أن يتصل بي وإن كان هناك ما حدث لابني فليخبرني»

«أُسامة، أين أنت؟»

يا إلهي! ماذا ستفعل إذًا لو هاجر من مصر كلّها وتأخر في الرد على الهاتف؟ عاد يهمسُ لنفسه يطمئنها ويمنيها» سأقنعها وآخذها معي، وإن رفضت سأتصل بها وأزورها كثيرًا، ليس هناك داعٍ للقلق، وسيكون كلّ شيء على ما يرام. لن يتركها شقيقاي، «مريم» ستملأ الدنيا عليها، أليس كذلك؟ سيكون كل شيء على ما يرامُ تمامًا كما خططت له»

نام ليلته هذه قلقًا مضطربًا بعد أن هاتف أمّه وطمأنها على نفسه ووعدها

بالعودة سريعًا إلى القاهرة بعد أن يزور «سليمان». ما زالت تتعجب من قراره المفاجىء بالسفر إلى الإسكندريةِ في هذا البرد. هي تعلمُ أنّه يهرب منهم وستظلُّ قلقةً عليه حتى يعود. صاحبه شعور بالذنب وتأنيب الضمير؛ لأنه كان السبب في بكائها كثيرًا بعد أن ظنّت أنه خرج من الفندق وأُصيب بحادث. في الصباح الباكر قرر أن يعود لنفس المكان الذي كان يجلس به لعلّ السيد «سعد» يمرّ من نفس الطريق. لا يدري لماذا تعلّق به؟ بالتأكيد هو من سكان تلك المنطقة. ولكن السيّد «سعد» لم يمرّ بالمكان كما أنه شعر بالملل. في تلك الساعة من النهار ونظرًا للطقس البارد، لم يكن في الشارع إلّا القليل من الناس. بدا البحر غاضبًا، وقد هجر الناس الشوارع هربًا من زمهرير الشتاء، لا يدري لماذا أتى إلى هنا؟ أحيانًا يشعر أنّه كعقار أنيق لكنّه مهجور. الثراء، رغد العيش، وظيفته، كل هذا ويشعر بفراغٍ في صدره. هو بحاجة لشيء ما. يبحث دائمًا عن السكينة ولا يجدها. تساقط ثلجٌ خفيف فجأة! لم يعتد أهلُ الإسكندريةِ على هذا المنظر. تأمل ذلك الرداء الثلجي الخفيف الذي غطّى كلّ شيء فصار المشهد كزفاف عروس جميلة عذراء بثوبها الأبيض.

قرر أن يذهب إلى بيت صديقه سيرًا على الأقدام وبدأ بالابتعاد عن الشاطيء رويدًا رويدًا. دلف إحدى الشوارع الجانبية بجوار مقهى مشهور

فاحت منه رائحة البُن فاشتهى فنجانًا من القهوة، فجلس وهو يلوك أفكاره القاتمة.

كان المقهى صغيرًا لكنه أنيق تتدلى من سقفه مصابيح ملونة جميلة ينعكس الضوء منها بألوان زجاجها على المرايا المعلقة على الجدران قريبًا من المقاعد الجلدية المصفوفة حول طاولاته المستديرة.

اقترب منه نادل شاب له شارب أسودٌ قاتم، يرتدي زيًّا تقليديًّا فطلب منه فنجانًا من القهوة فأحضره له بعد دقيقة مع كعكة شهية من الشوكولاتة دون أن يطلبها، وهو يكره الشوكولاته. لم يعترض وترك الحلوى أمامه.

جلس يتناول فنجان قهوته وهو مستمتع برائحتها وهي تدغدغ منخريه. راقب خياله في المرآة وكأنّه في صحبة شخص آخر. عدّل ربطة عنقه ومسح على شعر رأسه، ثم توقف أمام انعكاس صورته وتذكر كلام أمّه وتأكيدها الدائم أنّه يشبه والده فحملق باحثًا عن روح أبيه الغائبة في ملامح وجهه. أنهى فنجان قهوته، وقبل أن يخرج من المقهى دعا طفلًا صغيرًا خفيف الظلّ، قمحيَّ البشرةِ، كان يلصق أنفه بزجاج نافذة المقهى وعيناه على كعكة الشوكولاتة الشهية التي كانت لا تزال في الطبق على الطاولة، قرّبه إليه الطبق فور جلوسه على المقعد ليتناولها.. يا للمسكين! لقد قضى عليها بالفعل في قضمتين. تبرّم النادلُ منهما، لهذا بادر«أُسامة» بنفحه بقشيشًا

فهشّ له بينما كان ينصرف ممسكًا بيد الصغيرِ ليخرجا معًا بعد أن اعتاد على دفء المكان لتصفعه الرياح الباردة. وسريعًا ما تسرّب دخان أبيض من بين شفتيّه. سرت قشعريرة في جسد «أُسامة» فضمّ كفيّه وبدأ ينفخ فيهما ملتمسًا لبعض الدفء لأنامله.

«يبدو أنها ستمطر مرّة أخرى» قال الصغير ببراءة وهو يشير للسحاب الذي بدا كندف القطن المنثور في السماء. التفتُّ إليه فوقعت عيناه على عظام كتفيه البارزة وملابسه الرقيقة التي لا تقيه قرصات البرد ولا وابل المطر. كانت عيناه واسعتين كمحيط رائق الماءِ رحيب الأُفق، تودُّ لو أنك مكثت فيه طويلًا. قال محاولًا أن ينهي اللقاء وقد آلمه أن يتركه:

- ما اسمك يا بطل؟

قال رامشًا بعينيه:

- «ماهر».

أشار «أُسامة» إلى الكيس الممتليء بالحلوى في يده، وقال له:

- سأشتري كل ما معك من حلوى يا «ماهر».

حدّق في وجهه بذهولٍ ثُمّ كست وجهه ابتسامة واسعة فبدا كالقمر، واستلم النقود منّه مذهولًا بقيمتها ثمّ أعطاه كيس الحلوى بعد أن أحكم

ربط طرفه العلوي بشريطة ملونة، ثُمّ انطلق راكضًا وكأنّه نحلة تطير فرحًا بحصادها من الرحيق الموسمي النادر الذي امتصّته من زهرة واحدة. راقبه «أُسامة» من بعيد فإذا بأبيه يقف على ناصية الشارع ليبيع غزل البنات. قلّب الأب النقود بتعجب ثُمّ تلاقت عيناه بعيني «أُسامة» ورماه بنظرة امتنان، فأشار إليه ثُمّ أكمل طريقه وكيس الحلوى يتأرجح في يده، لا يدري ماذا سيفعل بها! ما زالت السحب تحمل الكثير. تفحّص ساعته فوجدها العاشرة وخمس دقائق، قرر أن يزور صديقه «سُليمان» ثم يعود في قطار السادسة مساءً إلى القاهرة.

يقع منزل صديقه «سليمان» في شارع جانبي قريب من مكتبة الإسكندرية. كان سعيدًا بمروره أمامها وتأمّلها بإعجاب، وصل أخيرًا لبناية قديمة تعتقت جدرانها بملوحة ماء البحر المتبخر. بدت له كعجوز خطت السنون على وجهها خريطة عُمر طويلٍ من التجاعيد. لكنها لا تزال تحتفظ بمسحة جمال جعلتها محببة لعيون الناظرين. تعلّقت عيناه بتلك النقوش على الشرفات وهو يسير وكأنّه فُتن بها. كادت تصدمه سيّارة مسرعة مما أربك سائقها وهو يحاول أن يتفاداه. فتح السائق باب سيارته وأخرج نصف جسده ووقف على ساق واحدة، ثم صرخ غضبًا وسبّه بأبشع الألفاظ، فتجمع المارّة وأحدثوا جلبة فاعتذر له- وكانت حياته مليئة بالاعتذارات-

في تلك اللحظة أخرج صديقه «سليمان» رأسه من نافذة غرفته في أعلى البناية العتيقة بعد أن انتبه لصوت السائق، وفور أن رآه وتبيّن ملامحه ناداه بصوته الجَهْوَري وهو يشير إليه بسبابته على مدخل البناية فهرول إليه على درج البناية بينما هرول فؤاده على درج الذكريات.

كان «سليمان» يدرس معه بنفس المدرسة في القاهرة، كبرا معًا وكان الفراق صعبًا بعد أنْ نُقل والده إلى الإسكندرية فور ترقيته في العمل، والتحق «سليمان» بكلية الهندسة هناك. وبمرور الأيّام أصبح «سُليمان» صديق «أُسامة» الوحيد بعد أن فرض جده عليه هو وأشقائه حصارًا منيعًا حال دون اقتراب العديد من الزملاء من بيتهم، ورويدًا رويدًا انقطعوا عنهم.

كان دخول بيت جدهم بحساب، والاتصال بالهاتف بحساب، وكلّ شيءٍ مراقب وكأنهم في سجن لكنّه أنيقٌ جدًّا، كان يخشى عليهم من الفساد وتلك كانت طريقة الحماية الوحيدة التي يعرفها.

في الحقيقة لولا تواصله مع «سُليمان»، وزيارات متقطعة خلال الأعوام الماضية لكان وحيدًا طوال حياته.

فتح «سليمان» باب بيته ثمّ مدّ له ذراعيه ليحتضنه. وقف لوهلةٍ يتأمّله بقوامه الممتليء وهو يرتدي سترة صوفيةً فوق بنطالٍ سميكٍ أزرق، وعلى

رأسه قُلنسوةٌ صوفية مزركشة هرب من تحتها شعره البني الكثيف الملتفة أطرافه في حلقات، وقد أحاطت رقبته لفحة صوفيةٌ طويلة. بعد العناق الطويل دلفا إلى غرفة معًا، أغلق «سُليمان» النافذة وجلس معه وقد غمرت «أُسامة» الفرحة ونسي كل همومه فجأة، كانت فرحته برؤية صديقه تشبه فرحة الطفل الصغير الذي عثر فجأة على قطعة الحلوى التي ظلّ يحلم بها ويتمنّاها كثيرًا. مدّ «سليمان» يده وضغط على زر الغلاية الكهربائية المستقرّة على مكتبٍ في غرفته المكتظّة بالكتب، والتي تحتوي على رفوف معدنية مملوءة بكمية مدهشة من الأقراص المرنة والمدمجة والأسطوانات السمعية والمرئية. بدا له أنّه يعيش يومه كاملًا فيها. قال «سُليمان» وهو يبتسم:

– حمدًا لله على سلامتك يا «أسامة» اشتقت إليك كثيرًا، وظننتك لن تأتي؛ نظرًا لبرودة الجو.

تأمّل «أُسامة» شاشة التلفاز الكبير المعلّق على الحائط الرئيسي في غرفة «سليمان» والتي لا تتناسب هي ولا باقي الأجهزة الحديثة التي تملأ الغرفة مع البناية العتيقة ذات الأسقف العالية والنوافذ الطويلة، والأعمدة الأسطوانية المهيبة، ثُمّ قال:

- وأنا اشتقت إليك يا صديقي، لقد تحول بيتك إلى حاسوب كبير يا «سليمان». أظنّك أصبحت مدمنًا للإنترنت.

حدّق «سليمان» في حاسوبه وقال مبتسمًا بفخر:

- كان حُلمي أن أقتني حاسوبًا مثلكم وأنا صغير، كنت أبكي كثيرًا لأنني كنت أعلم أن أبي لا يستطيع شراءه لي، الآن حاسوبي هو صديقي الوحيد.

هزّ «أُسامة» رأسه، وسأله بفضولٍ أنيس:

- هل ما زلت تعيش وحدك هنا في بيت جدّتك؟ ألم يحن الوقت لتنتقل إلى بيت أبيك وتعيش بين أشقائك؟

قال وهو يضع الملعقة الخامسة من السكر في كوب الشاي الخاص به:

- عملي في البرمجةِ يتطلب مني التركيز الشديد، والبيت هناك ضيّق. وأنا أُحبّ الخصوصية. كما أن الزيارات في بيت أبي كثيرة. حاولت أن أنتقل للإقامة معهم فأزعَجهم انعزالي في غرفتي مع حاسوبي. لا بدّ أن أهتمّ بعملي لأعين والدي، كما أن الجيران هناك لديهم الكثير من البنات، وأمي تريد أن تزوجني من إحداهن.

ضحك «أُسامة» وهو يراه يقلب شفتيه ويغمض عينيه، وسأله وهو يتناول منه كوب الشاي الخاص به، ثُمّ يحتضنه بكفيّه المتجمدتين:

- ألا تعجبك إحداهُنّ؟

قال «سُليمانُ»وهو يمدّ يده إليه بعلبة أنيقة تحتوي على بعض

المخبوزات الشهية:

- لا.

تناول «أُسامة» قطعة من العلبة، وسأله بخفوت:

- لا زلت تفكر في خطيبتك السابقة.. أليس كذلك؟

أطرق «سليمان» قليلًا، ثُمّ قال باقتضاب:

- قصتي معها كانت درسًا في حياتي، وهي كانت مجرّد مثالٍ للشرح.

ثمّ قال بعد صمت قصير:

- وأنت لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ لديك كلّ شيء، والأمر سهل ويسير!

أجال «أُسامة» بصره في الغرفة، ثُمّ قال:

- أُريدُ زوجةً أشعر أنني أنتمي إليها وتنتمي إليّ.

رفع «سُليمانُ» حاجبيه، وقال وكأنمّا يُحذّره:

- دعها تنتمي إليك، واحذر أن تنتمي إليها.

- ولماذا؟

هزّ «سليمان» كتفيه، وقال:

- ستظنّه هي ضعف منك، وستزهد فيك، هكذا هنّ النساء، يحببن أن

يحتويهن أزواجهن حتى عندما يكنّ هن الأقوى.

قال «أُسامة» بصوت متقطع:

- وحتى وأنا أحتويها أودّ أن أنتمي إليها فليس هذا ضعف. هو ذوبان وامتزاج في كيان واحد. لن تميّزني عنها ولن تتمكن من فصلها وتمييزها عني لأننا سنكون قالبًا واحدًا يُصبّ فيه الحب.

صفّق «سُليمانُ» بخفّة، وقال يمازحه:

- رائع، فلنبحث إذًا عن عروسٍ لتذوبا معًا يا أستاذ سُكّر.

ثُمّ باغته بسؤالٍ:

- متى ستهاجر؟

- لا تقل هجرة، هو تنقّل بين مصر والمملكة المتحدة يا «سليمان».

ضحك الأخير بصوتٍ عالٍ، وقال:

- هذا في البداية فقط، وبمرور الوقت سيكون الوطن هناك، صدقني.

تذكّر «أُسامة» لقاءه بالسيد «سعد» والذي كان له أثرٌ بليغ في نفسه، فقد حرّك السكين في الجرح، وصبّت كلماته الصادقة ملحًا عليه فأوجعه. في الحقيقة، هو لا يستطيع فراق أمّه. ولكن لديه أشقاءٌ سيعتنون بها، أليس كذلك؟ فليس هناك داعٍ للقلق. (عاد يهمس لنفسه مطمئنًا)

أغلق «سليمان» جميع الأجهزة حوله التلفاز والحاسوب وقد كان معتادًا على تشغيلهم جميعًا في نفس الوقت كمن يُحيط نفسه بجمع من الأصدقاء يؤنسوا وحشته ويكسروا الصّمت الذي يغرق فيه لفتراتٍ طويلة، ثُمّ اقترب منه بكرسيه الجلدي ذي العجلات الذي كان مستقرًا به أمام المكتب، و بدأ كلّ منهما في سرد بعض ذكرياتهما الحلوة على الآخر.

مرّت ساعة وكان كلاهما يراقب الشارع من نافذة الغرفة. تأبّط «سليمان» ذراع «أُسامة» وقد أنس به.

- ما رأيك في وجبة شهية من السمك المشوي في مطعمٍ لطيفٍ يُطل على البحر؟.. قالها «سليمان» مبتسمًا فانتعش «أسامة»، وقال بمرح:

- فكرة رائعة.

- هيا بنا.

أمطرتْ في الخارج بغزارة، فغسل المطر كلّ شيء وأزال الغبار عن أوراق الشجر فاختلط لونها الأخضر الزاهي بلون البحر الأزرق اللازوردي.

«الدموع تُشبه المطر، الدموع تشبه المطر»، كانت «ريتال» تكررها وتهمس بها لنفسها وهي تُراقب قطرات الغيث المنزلقة على زجاج النّافذة من الخارج، وكأنّ السماء تبكي لبكائها.. هناك في خِدرها حيث رعد قلبها

حبًّا لأسامة قبل أن ترعد السماء.

***

٣

مطعم بسيط الديكور لكنّه أنيق ومريح. يكفي إطلالته الرائعة على البحر. غطيت جدرانه ببلاطات متناسقة لونها بحري، علّق على الجدار مجموعة من الطناجر النحاسية المصقولة، ولوحاتٌ زيتية لمراكب الصيد ومنارة الإسكندرية. أحضر النادل قصعتين خزفيتين ممتلئتين بالسلطات الشهيّة.

امتزجت روائح المقالي مع رائحة السمك والطماطم. كان مذاق السمك رائعًا جدًّا. بعد خروجهما من المطعم شعر «سليمان» بالتخمة حيثُ أفرط في شرب الماء عقب تناول الطعام، فقررا أن يسيرا على شاطيء البحر حتى تغيب الشمس.

من بعيد ثمّة سيّارة مسرعة، صوت احتكاك مطاط عجلاتها بالأرض أصاب «أُسامة» بصريرٍ في أسنانه. التفت تجاهها بتلقائية فوقعت عيناه على فتاة صغيرةٌ ضئيلة الجسم تحاول عبور الطريق، وعلى الجانب الآخر تجلس أُمّها على حافّة الرصيف وجهها شاحبٌ وتبدو عليها علامات الإرهاق. في

لمحة عين صدمت السيّارة الفتاة فطاح من يدها كيسٌ به أوراق وكُتب. صرخت أمها وغابت الفتاة عن الوعي وهربت السيّارة.

ركض «أُسامة» مع «سليمان» تجاه الفتاة، حملها «أُسامة» بعد أن فحصها سريعًا، كان وجهها مخضب بالدماء. صوت صراخ أمها يمزّق القلب. في أقل من دقيقة كان هناك من يتطوّع بسيارته البسيطة لنقلها إلى المستشفى حتى كيسها الصغير دفعوه من نافذة السيارة بعد أن لملموا فيه أوراقها وكتبها. أمسك «أُسامة» رأسها ليفحص الجُرح وبدا له عميقًا. تمتمت أُمّها باكية:

- ليتني ما طلبت منك الماء يا «فرحة».. ليتني متُّ عطشًا.

أدرك «أُسامة» أن المسكينة طلبت الماء من ابنتها فعبرت لتحضره لها فصدمتها السيّارة. قُال ليطمئنها:

- لا تقلقي يا أُم «فرحة». ستكون بخير، فالجرح نتج عن اصطدام رأسها بحافّة الرصيف. وأظنّها ستفيق الآن.

بدأت الفتاة تستعيد وعيها، وكانت تتألم بشدّة. كان رأسها على صدر«أُسامة» فأغرقت ملابسه بالدماء. فتحت عينيها فإذا هما زمردتان يحتضن كلّ منهما جفنين حانيين يرفرفان بوهن. تشبثت به كما لو أنها

تتشبث بطوق نجاة. كانت منهكة القوى فاستسلمت بعد أن أعياها التعب. أحسّ بأسنانها تصطك من البرد فاحتضنها كأبٍ حنون، ودماؤها تسيلُ من رأسها على صدره.

وصلوا لأحد المستشفيات الخاصّة بعد مرور نصف ساعة نظرًا للزحام الشديد، فقد كان وقت الذروة. أدخلها «أُسامة» على مسئوليته وقُام بدفع التكاليف أمام اندهاش أُمّها من المبلغ. فور وصولها تمّ فحص الجرح أوّلًا، ثم لاحظ الطبيب تألّمها من صدرها بشدّة فوضع الطبيب السمّاعة على الجانب الأيسر من صدرها، وقال:

- ممتاز، لا يوجد تسرب للدم في الصدر، سنتأكد حالًا من سلامة عظام قفصها الصدري. بعد إجراء الأشعة على رأسها وصدرها وفحصها من قِبل طبيب العظام، اقترب طبيب أربعيني وتحدث إلى «أُسامة» قائلًا:

- تعرّضت لصدمة في جمجمتها أدّت إلى رَضٍّ دماغي بسيط. هناك بعض الكدمات في ساقها اليمنى وقفصها الصدري، و ربما تشكو ألمًا، وليس هناك داعٍ للقلق، الجُرح يحتاج للعناية ولا بدّ من مضاد حيوي، وسأكتب لها مسكنًا قويًّا. انصرف الطبيبُ بهدوء، والتفت «أُسامة» إلى الأم التي كانت تقف بجوار «سليمان» وينهشها القلق. اطمأنت كثيرًا عندما شرح لها «أُسامة» نتائج الفحص والأشعة، وقالت بوهن:

- بارك الله فيك يا سيدي. لا أعلم كيف سأرد لك كل هذا!، فنحن لا نملك إلا الستر.

- إذًا، أنتما من أغنى الأغنياء.

طالعته الأمُّ بخجلٍ، وقالت بتأثّر:

- كنت معها في مكتبة الإسكندرية، فهي تُحب القراءة وتُصر على الحضور كل أسبوع؛ لتتمكن من الاطلاع على ما تهتم به من الكتب. فهي تحب أن تقرأ القصص بشكلٍ خاصّ وتعشق الأدب.

سألها باهتمام:

- كم عمر «فرحة»؟

- تسع سنوات.

- أين والدُها؟

- توفاه الله العام الماضي، كان عامل بناء.

تأمّل «أُسامة» الصغيرة وهي مستلقية فأشفق عليها. شعرها البنيُّ الطويل الأشعث، عيناها الخضراوتان، وبشرتها البيضاء المشربة بالحمرة. وذاك النمشُ الخفيف على أنفها الدقيق. كانت كالملاك النائم. بدأت رائحة الدماء تفوح من ملابسه، لا بدّ أن يعود إلى الفندق ليبدّلها. رفض «سليمان» أن يتركه

وأَصرَّ على اصطحابه لبيته ليغتسل وينظف ملابسه قبل عودته إلى الفندق. ودّعاهما بعد أن قام «أُسامة» بتسديد فاتورة المستشفى متضمنة أجر مبيتهما لليلة أخرى، على وعد بأن يزورهما بعد أُسبوع ليطمئن على جرح «فرحة».

غابت الشمس، وتوشحت السماء برداءٍ مخملي متدرج الألوان، وعاد الشابان للبيت. كانت ليلة دافئة وسعد «أُسامة» بصحبة صديقه الذي أطعمه أكثر مما ينبغي. استيقظ في الصباح التالي على صوت الهاتف. كانت أمه وكعادتها قد قلقت؛ لأنه لم يتصل بها. أخبرها أنه قضى ليلته في بيت «سليمان» وأنّه سيعود إلى القاهرة بعد الظهر إن شاء الله. دفع «سليمان» دفّة باب الغرفة برفق، ثمّ وقف يتمطع مادًّا ذراعيه وأسرع يكبح تثاؤبًا قبل أن يقول بكسل:

- فول بالزيت الحار وبيض مقليٌ بالزبد الطازج.. ما رأيك؟

ابتسم «أُسامة» وكان قد جاع في ثوانٍ بمجرد سماعه لكلام صديقه. بعد دقائق كانت الرائحة الشهيّة قد ملأت الغرفة.

بعد ساعةٍ كانا يجلسان معًا أمام حاسوب «سليمان» حيث بدأ هو بسؤاله:

- هل ستعود فعلًا بعد أُسبوع لزيارة الفتاة وأُمّها وذلك الرجلُ الغريب الذي تعرفت به على الشاطيء؟

- بالتأكيد إن شاء الله. وربما أهاتفهما بعد قليل، فالفتاة تحتاج لرعاية.

أُفكّر في اصطحابهما ليقيما بالمستشفى حتى يلتئم جرح «فرحة»، ومن الممكن أن أخصص لهما غرفة صغيرة هنا أو هناك، ولا أظنهما ستثيران المشاكل، الفتاة يتيمة ويبدو عليهما الفقر وبساطة الحال، كما أنّ أُمّها كريمة النفس.

رشف «سليمان» رشفة من كوب الشاي الذي تجمعت أبخرته على نظارته المستديرة مما دعاه لخلعها؛ لكي يمسحها بطرف قميصه، وهو يقول:

- ما زلت طيب القلب يا «أُسامة». تتعاطف سريعًا مع الآخرين. أتذكر عندما كنت أخبرك أن لا تثق بـ«أدهم» الذي كان معنا في الصف الخامس الابتدائي وكنت تخبرني دائمًا أنّه طيّب القلب وأنّك متأكدٌ من حبّه لك، وكيف كان يؤذيك في كلّ مرّة ويسخر منك وكنت تسامحه. لم يتوقف عن أذيّتك إلّا بعد أن صفعه أخوك «حسام» أمام الجميع في فناء المدرسة. رغم ذكائك الشديد لا تقرأ النّاس جيّدًا. أنت إنسانيٌّ أكثر من اللازم. تتأثّر بالقشور ويخدعك المظهر، أخشى عليك يا صديقي.

ثم قال بعد صمتٍ قصير:

- الآن أخبرني، متى ستسافر؟ وكيف ستقنع والدتك؟ وهل ستخطب ابنة خالك قبل السفر؟ وهل حقًّا ستضحي بالمستشفى وما حققته من نجاح هنا في مصر؟ كانت الأسئلة المتوالية كافية بإدارة رأس «أُسامة» الذي كان

يزدحم بالأفكار فلجأ إلى الشرفة هربًا من حيرته ووقف يراقب المارة. فكر أن ينسى السفر تمامًا. لكنّه نفض هذا الخاطر سريعًا عن رأسه؛ لأنّه ما عاد يطيق تأجيل طموحاته العلمية أكثر من ذلك.

كان الطقس أكثر دفئًا وبدت السماءُ صافية وخالية من الغيوم. قررا أن يخرجا للجلوس قليلًا على الشاطيء قبل أن يسافر «أُسامة»؛ لينعما بدفء الشمس ورائحة البحر. أخبره «سليمان» أنّه سيأتي قريبًا ليقضي أسبوعين كاملين معه بالقاهرة، وأنّه سيقيم معه حينها في شقته القديمة وكان «أسامة» في حاجه ماسّة لجواره بالفعل؛ ليتنفسا معًا عبق ذكريات الطفولة.

***

٤

أخبرته أنها مرهقة جدًّا وواهنة، وتشعرُ أنّ الموت قريبٌ منها. كانت تبدو في حملها وكأنّها متأهبةٌ دائمًا للرحيل. لم يرف له رمش، صار الآن رجلًا صلبًا. ربما كان عليه التواصل أكثر مع زوجته ليخبرها عن الضيق المعنوي الذي يغزوه بالكامل. قال بصوت رتيب:

- «مريم»، دعينا نذهب عند والدتك؛ فأنت تحتاجين لرعاية.

- لا أرجوك يا «أحمد»، أنا أحبّ بيتنا وأشعر بالسكينة فيه، هنا كان أوّل حبنا.

- سنعود بعد الولادة.

- لا بدّ أن نظلّ وحدنا، أُحبّ الخصوصية. كلّ ركن هنا شهد همسة حبّ لن ننساها أبدًا، أليس كذلك؟

- بلى.

قالها ببرود. كان الأوان قد فات على العودة إلى الوراء. لو تمهّل قليلًا ما كان ليتزوجها. سذاجة العشاق المبتدئين جعلتهُ يظنُّ أن الحب

لا يتعرض للمحن. وكان في محنة، فأهله من ورائه تطارده نظرات الرجاء والعوز المادّي في أعينهم، وأمامه زوجة صابرة لكنه يشعر بالعجز؛ لأنه لا يوفيها حقها. شقيقته ستتزوج قريبًا، والأخرى خطبت منذ أسبوع، ثمن دواء أبيه، نظّارة أُمّه، فاتورة الكهرباء، اللحم، الخبز، الأُرز، ثُمّ بدأ فجأة يسخط على «مريم»، هي السبب! يَشعر أنّه لا بدّ أن يركض كثيرًا ويجتهد ليكون أهلًا لها. رغم أنّها لم تشكُ يومًا من أمرٍ ما، ولم تُشعره للحظةٍ أنها ينقصها شيء، فلديه إحساسٌ دائمٌ أنّها السبب لأنّه أحبّها. رآها أوّل مرّة عندما اقتربت لتسأل زميلة له عن قسم اللغة العربية بالكليّة حيث كان في السنة النهائية بكلية التربية. تطوع بشرح كلّ شيء لها، وكانت تنصت إليه وهي تنظر لوجه زميلته، من آن لآخر ترمي على وجهه نظرة خاطفة. أدرك يومها أنها ستكون زوجته. كان يذهب مبكرًا كلّ يوم ليراها قبل أن ينصرف لجدول محاضراته المختلف عن جدولها، وقرر يومًا أن يتبعها ليعرف بيتها. من بعيد شعر أن هوّة كبيرة تنفتح تحت قدميه عندما رأى البيت الذي تسكُن فيه. لا بدّ أنهم أغنياء جدًّا. قرر أن يصرف النظر، لكنّه تعذّب كثيرًا وهو يرى العيون تراقبها، فهي لافتةٌ للنظر ولديها وجه فاتن الملامح، وها هو زميلٌ آخر يسأل عنها. أسرع للقاء أُمّها وأخبرها بعد أن تناول فنجان الشاي الساخن وهو يجلس على أريكة فاخرة في بيت «مريم». ابتسمت

السيدة «دولت» له وأخبرته أنّ المهم هو رأي «مريم». عندها سحب نفسه بعمق وشعر أنه أكثر هدوءًا وأكثر ضعفًا في آنٍ واحد. فقد كان يخشى رأي شقيقيها لكنه يعلم أن «مريم» ستوافق عليه، حتمًا سيقنعها وسيجيد التأثير عليها. كان محاورًا لا مثيل له يُدير المزاج بسهولةٍ ويُسر، فقط لو رضيت بالوقوف معه لمدّة أطول، فهي تهرب من أمامه بسرعة وكأنّها رأت شبحًا. رفض «حُسام» زواجها منه، كما رفضه خالها وجدّها. وخاصّة بعد إصراره على الزواج في شقته المتواضعةُ والموجودة في حيّ شعبي على مسافة بعيدة من بيت جدّها وأمّها. كانوا يرون أنّه من بيئةٍ تختلف، طباعه تختلف، طريقته في الكلام تختلف، أهله طيبون لكنّهم يختلفون عنهم، والمشاكل ستظهر تباعًا بعد زوال حلاوة شهر العسل، كما أنّ «مريم» لن تتحمل تلك الحياة-كما كان يُخبرها «حسام» دومًا- لا بدّ من تكافؤ بينهما. رفض أبوه أيضًا الزواج وأخبره أن لديه حملٌ كبيرٌ ينوء به ظهره، ويحتاج منه بعض العون لفترة ما قبل أن يتزوج. لكنه لم يسمع له. طاردها بنظراته وكلماته ورسائله الورقية التي كان يرسلها مع شقيقته، وكانت الكلمات تدغدغ عواطفها. كان يكتب فيها الشعر، وكان ينظر إليها بطريقة مختلفة. ورغم أنّها لم تبادله النظرات ولم تكتب إليه يومًا. بل أحرجته كثيرًا ومرّت من أمامه وكأنّه لا شيء فقد ظلّ يحبّها بجنون. في النهاية رضخت له، وتمسّكت به،

وأصرّت على قبوله. كانت ترى أن الحبّ وحده يكفي ويُغني عن كلّ شيء، فخضعت أُمّها إليها وتمت الخطبة. نصحها «حسام» شقيقها الأكبر أن تطيل فترة الخطوبة قليلًا لعلها تغيّر رأيها. أما «أُسامة» فقد كان موقفه مختلفًا، أراد أن يُقنعها، وذات يوم دار بينهما حوار:

- هل تحبينه؟ سألها هامسًا وهو يربت على كتفها بحنان، قالت بخجل:

- نعم.

- لماذا؟

- لأنّه يحبّني، كما أنّه يُعجبني.

سألها باهتمام:

- ما الذي أعجبك في شخصيته؟

- لطيفٌ ومهذّب وهادىء.

- كيف تعلمين أنّه هادىء؟ هل تتحدثين معه كثيرًا؟

-إطلاقًا..أنا فقط أتحدث معه أُخته وهي تحكي لي عنه وعن مواقفه.

- ما رأيك في تفكيره؟

- ممتاز، فهو يحصل على تقدير جيد جدًّا.

تململ «أسامة»، ثُمّ قال بوضوح:

- أقصد طريقته في التفكير.

- أيضًا ممتازة.

- كيف تعلمين وأنت لا تتحاورين معه!

تجولت بعينيها في الغرفة، وقالت:

- سمعته طيّبة، يقولون أنّ عاقل.

- هل هو شخصٌ مسئول وبارٌ بوالديه؟

- أكيد، والده يشكر فيه ألم تسمعه وهو يتحدّث عنه أمام خالي وجدّي؟

قال «أسامة» باستنكار:

- لكنّه والده!

- أعلم طبعًا، لكنّه ابنٌ بارٌّ به وبأُمّه أيضًا، أنا أعلم الكثير عنه من شقيقته.

- هل يصلي؟

- أظنّ ذلك. ولماذا لا يصلي! والده يصلي وكلهم كذلك.

- سألت شابًّا كان يدرس معه في نفس القسم يقول أنه أنانيٌ وعصبي ودائم الشّجار مع والده، كما أنّه..

استوقفته وقد كست ملامحها علامات الألم، وقالت:

- لا تُكمل أرجوك، سأموت إن لم أتزوجه. ألم تخبرني أن أتزوج من شخص مجمله حسن، وأنه ليس هناك شخصٌ كامل؟ «حسام» أيضًا يختلف مع أمي ومعك أحيانًا ويصرخ في وجهيكما، لكنه طيّب. أليس كذلك؟

ران عليهما صمت للحظات قبل أن يقول:

- دعيني أصحبك بالسيّارة؛ لنتجوّل في حيّهم قليلًا، أُريدك أن تتخيلي معيشتك هناك.

- حسنًا، فلنذهب الآن.

كان الحيّ بالنسبة إليها كجنّة. كانت تضحك كطفلةٍ صغيرةٍ في مدينة الملاهي. حاول «أُسامة» أن يمنحها مساحة لتفكر، ربما تتراجع.

لم يُحبّ أن يضغط عليها، فقد أخبرته أنها تُحبه وبكت على كتفه كثيرًا. تحول البيت إلى صراع دام عامًا كاملًا بعد تخرجها، لا ترى «أحمد» ولا تتواصل معه أبدًا، لكنّه يظل يأتي ويطلب يدها للزواج مرّات ومرّات. تعاطف «أُسامة» معه كما تأثّرت السيدة «دولت» فهو لم يملّ أبدًا ولم

يستسلم. تمّ الزواج وانتقلت «مريم» لبيت زوجها، قدّمت أُمّها إليهما الكثير من المساعدة دون علم «حسام» والجدّ. «أُسامةُ» فقط كان من يعلم وكان دائمًا هناك ليُسعد شقيقته. كانت الشهور الأولى رائعة. أُسرة بسيطة مكونة من ستة أفراد «أحمد» هو أكبر أشقائه. أنفق والده كلّ ما معه على زيجته التي قسمت ظهره كما يخبره دائمًا.

- «لن أستطيع أن أُجهّز شقيقتيك إن متُّ فهما في رقبتك».

قالها أبوه واستوعبها هو جيّدًا. حاول أن يُسافر لبلد آخر ليكسب المزيد من المال لكنّه لم ينجح. كان يُسلّم راتبه كاملًا لوالده ويكتفي بالقليل، وكانت «مريم» تصبر معه. مرّ كلّ هذا أمام عينيه وهو بجوارها. تنحنح وهي متكورة على جذعه، كانا يراقبان غروب الشمس من خلف زجاج النافذة. قال بصوت نبرته عاليةٌ وجادة:

- سنذهب اليوم لبيت والدتك، هذا قرار لا تناقشيني فيه.

-كما تحب يا حبيبي.

عادت تتكور على جذعه، وأخيرًا أحاطها بذراعه. «الحبُّ وحده يكفي ويُغني عن كلّ شيء»، همست لنفسها وهي تتحسس جنينها بكفها الرقيق.

***

٥

دقّتْ الساعة الخامسة مساءً عندما وصل «أُسامة» إلى القاهرة. كانت محطّة القطار تعُجّ بمختلف القوم المسرعين في كلّ اتجاه غدوًّا ورواحًا من بابي الدخول و الخروج. سائق جدّه الخاص كان ينتظره بالسيّارة أمام بوابة محطة القطار. عانقه بحرارة، وقال بودّ صادق:

- حمدًا لله على سلامتك يا دكتور، اشتقنا إليك.

- وأنا أيضًا قد اشتقت إليكم. كيف هم أبناؤك يا عمّ «يونس»؟

- بخيرٍ والحمد لله، سَترك الله وأدام عليك العافية. يقبّلون يديك.

- العفو يا عمّاه.

ثُمّ مال عليه، وسأله بترقّب:

- هل مزاج جدّي رائق اليوم؟

أجابه السائق همسًا، وهو يغمز بعينه:

- رائق طالما أنك لن تسافر مرّة أخرى.

أدرك «أُسامة» على الفور أن جدّه قد تحدث مع السائق وشكا له منه. التفت إلى «فرحة» وأُمّها، وقال لهما:

- سنمرّ الآن على المستشفى حيث ستقيمان، وسأعود إليكما في وقت لاحق.

ركبت «فرحة» السيّارة ورأسها ملفوف بضمادة بيضاء سميكة. كانت تعرج في مشيتها أثر إصابتها في ساقها اليمنى. ما زال قفصها الصدريُّ يؤلمها. أمّا أُمّها فكانت متوترة وخائفة، فهي لا تعرف القاهرة. جلس «أُسامة» بجوار النافذة التي كانت تهتزّ نتيجة مرور سيّارة أخرى مجاورة ومُسرعة. كان يراقب الطريق في صمت. بعد أن مرّوا سريعًا على المستشفى، وفور تأكده من استقرار الأُم وابنتها في غرفة إحدى العاملات حيث استضافتهما مرحبة بعد أن أوصاها «أُسامة» أن تعتني بهما جيّدًا، غادر «أسامة» مسرعًا فقد اشتاق لأُمّه كثيرًا. اقتربا من الشارع العتيق الذي يحتضن منزل جده المكون من طابقين تحيط بهما حديقة كبيرة ألقت أشجارها بظلالها الوارفة على السور الحجري، وزحفت الفروع بدلال؛ لتتدلى أعواد الزنبق وزهرات البنفسج، بدا المنزل كعروس بهيّة رقيقة بين تلك العمارات التي تحيط به. من حسن الحظِّ أن جده لم يوافق على هدم البيت ليبنى مكانه عمارة فارهة كما فعل الأخرون. كان المنزل سنجابي اللون نظيفًا جدًّا يوحي باب دخوله

الأمامي بالفخامة وقد تم الاعتناء بمقابضه النحاسيّة وتلميعها جيدًا.

ترجل السائق بقامته المديدة من السيّارة وفتح بوابة البيت الحديدية، ثُمّ عاد إلى مقعده واجتازها بهدوء مارًّا بممر قصير تحفُّه الأشجار القصيرة من الجانبين، وقد ملأ صدر «أُسامة» عبق الريحان الذي كان ينتشر في كلّ مكان.

فتحت باب البيت امرأة بشوشة الوجه تأملّتهما بنظرات فاحصة، وهشّت لرؤية «أُسامة» وكأنّها بُشرت بخبر سارّ، فهي تُحبّه. كانت تلك «أم صلاح» والتي تعمل عند جده منذ أمدٍ بعيد هي وزوجها، والآن بعد وفاة زوجها الطيّب يشاركها ابنها الأكبر الاهتمام بشئون العائلة، بالإضافة إلى تنسيق الحديقة والمهام الأخرى الخاصّة بالمنزل.

تذكّر «أُسامة» زوجها -رحمه الله- وكيف كان يزعجه كثيرًا في صغره ويسخر من شاربه الضخم وجلبابه ذي الأكمام الواسعة، لكنّه كان طيّب القلب وتحمله كثيرًا، كان الرجل من البساطةِ والتواضع حتى لم يثر هذا غضبهُ أبدًا، لم يكن جلبابه مخزيًا له، ولم يخجل يومًا من لهجته. لم يجد فيها مساسًا بكبريائه، وكانت لديه عزّة نفس عظيمة.

أمّا ابنه «صلاح» فهو يشبهه كثيرًا. أسرع «أُسامة» إلى الداخل باحثًا عن أمه بالبيت فلم يجدها.

كان البيت كعادته أنيقًا ودافئًا. مصابيح أُرجوانية ومذهّبة تنير أثاثًا ثقيلًا من الخشب الثمين. وأرضيّة خشبية باللون الجَوزيِّ الفاتح. وزخارف بديعة تحتضن وتتكاتف على الحوائط.

قُسّم البيتُ إلى أربعة أجنحة. جناحان بالطابق السفلي متصلان ببعضهما البعض، وجناحان مفصولان بالطباق العلوي أحدهما يخصّ «حسام» وزوجته. أما «أُسامة» فسيكون من نصيبه الجناح الآخر عندما يحين وقت زواجه.

أنصت فإذا بصوت التلفاز يأتي من بعيد؛ فعلم أن جدّه بغرفة المعيشة فاتجه إليها فورًا وفتح الباب بهدوءٍ. تبادل مع جدّه النظرات فاحتلت وجهه ابتسامة واسعة، كان فم جده هذه المرّة مختلفًا عن كلّ المرّات السابقة؛ لأنّه نسي أن يرتدي طاقمًا للأسنان مما جعل «أُسامة» يرقّ له بقلبه وهو يبادله الابتسامة.

- مرحبًا جدّي.

- مرحبًا حبيبي.

- أين أُمّي؟

- خرجت منذ قليل، صديقتها القاطنة بالبناية المجاورة سقطت على درج بيتها، فكسرت ساقها واضطرت لزيارتها مع باقي الجارات.

جلس بجوار جده الذي أضنته الشيخوخة يشاهد معه البرنامج الذي كان يتابعه. وحدث ما كان يخشاه، سأله جدّه بصوت مرتعش:

- هل ستسافر مرّة أخرى؟

أجابه «أُسامة» بهدوء:

- غالبًا يا جدّي، فالحياة في مصر صارت بؤسًا على بؤس، وكما ترى الحال يزداد سوءًا كلّ يوم.

صمت الجدّ طويلًا وهو يرنو إليه، ثم قال:

- كعادتك تهرب من المواجهة، تهرب من النقاش، وتُريد أن تهرب منّا بالهجرة.

قال «أُسامة» وكأنّه يتأهب لخوض معركة:

- الشباب يكفنون أحلامهم كلّ يوم، وأنا لديّ حلم كبير لن أتمكن من تحقيق طموحي العلمي في مصر.

«أحمق» قالها الجد بغضب، ثُمّ أردف قائلًا:

- جيلكم جيلٌ هشّ لا يصمد أمام الصعاب. معظمكم- إلّا القليل- لا يقدّم شيئًا لمجتمعه، قوّة تحملكم ضعيفة، ولهذا كلّ منكم يفكّر في نفسه فقط، ومصلحته وشهواته فقط. كثيرًا ماتدفنون هويتكم العربية هناك

فتموتون وأنتم على قيد الحياة. تفرّون من بلادكم استسلامًا وتئدون أحيانًا مواهبكم.

انعقد لسانه وآثر الصمت؛ حتى لا يحتد النقاش بينهما. كاد يخبره أنّه لا يفكّر الآن في الزواج ولا يُريد المال وأنّه لا يهرب بل هو فعلًا يريد أن يخدم العلم ويحقق شيئًا نافعًا للعالم كلّه. واصل جدّه حديثه قائلًا:

- لو سافرت وتركتنا أنا وأُمّك هنا، فسأموت وأنا غيرُ راضٍ عنك.

انتشله صوت خطوات أمّه من حالة الضغط العاطفي التي يمارسها جدّه عليه كلّ مرّة. عادت السيّدة «دولت» من زيارتها لصديقتها. كانت «دولت» امرأةً رصينة، لمّاحة شديدة الذّكاء، وحكيمة. لديها قُدرةٌ غريزيةٌ على إرضاء الجميع. فهي تُدركُ أنّ والدها يُحبّ أن يُعامل تلك المعاملة اللينة التي يُعاملُ بها المريض، وكانت تحرص على معاملته بتلك الطريقة الرحيمة. وتعملُ على إرضاء نزوات كلّ من بالبيت، تُنصت لـ «حسام» ليسرد على مسامعها ما يُريده، وتُلقي في روع «أُسامة» أنّها تعول على رأيه السليم، إنّها عصبُ الحياة بهذه الدار. حيّتهما وهي تمدّ ذراعيها لتحتضن ابنها طويلًا، ثمّ انضمت إلى الحوار وراحت تتنقل بعينيها بين وجه ابنها ووجه أبيها وهو يلقي عليه بالمزيد من اللوم والعتاب. رمقته بنظرة كلّها رجاء أن يعدل عن قراره ويستمع إلى نصيحة جده ولا يهاجر، فقد يئستْ من إقناعه بالعدول عن هذا الخيار الذي

كان يراه الوحيد لكي يحقق طموحه وأحلامه.

قال بأدب محاولًا أن ينهي هذا الحوار المتكرر:

- أُقدر نصيحتك يا جدي، ورأيك على رأسي، ولكني أود أن أُجرّب السفر حتى لا أندم بقية حياتي.

طالعه جدّه بعينيه التي طالما كانت تطلُّ منهما الجرأة والثقة بالنفس، وقال بلهجة حادة:

- والمستشفى الذي بنيته من أجلك؟

- دكتور «أمين» وكذلك ابنته الدكتورة «سارة» سيهتمان بالمستشفى مع «يُوسف» ابن خالي، وسيظل كما هو فلا تقلق. كما أنني سأتنقل بين مصر وهناك.

- أنت أكثر كفاءة من «يوسف» فهو ما زال يحتاج من يدعمه ويشجعه وهو يحتاجك.

- دكتور «أمين» موجود وهو يدير القسم الخاص بجراحة المخ والأعصاب بالمستشفى، وكذلك «سارة» فهي تدعم «يوسف» دائمًا، وكلاهما يجتهدان في قسم الجراحة العامّة.

أطفأ جده التلفاز وقام مستندًا على عصاته العجراء وهو يتمتم غاضبًا

بكلامٍ غير مفهوم، يُريد مغادرة الغرفة.

أطبق الصمت على صدر «أُسامة»، فقال راجيًا:

- يا جدّي الحبيب، هناك سيعاملونني كآدمي، أما هنا نحن نسحق أنفسنا بأنفسنا. نحن فعلًا أموات على قيد الحياة!

صمم جدّه على إنهاء الحوار، وكان «أُسامة» يعرفه جيدًا حين تنتابه تلك الحالة من الغضب، ويعرف متى لا يعارضه.

رفع عينيه إلى الساعة الكبيرة المعلّقة على الجدار، ونظر فيها لانعكاس صورة أمّه على زجاجها، والتي كانت طوال الوقت تتأمل ملامحه وعلى وجهها ابتسامة حانية كلها رجاء أن يرضيَ جدّه وهي تتمتم بالدعاء.

لم يتحمل «أُسامة» الوقوف معهما لحظة أخرى واستأذنهما، ثمّ خرج مسرعًا يتبعه نداء أمّه. اتجه إلى السيارة وأدار محركها ورفع صوت المذياع. سريعًا ما انتبه «صلاح»- الذي كان يجلس بجوار البوابة الحديدية- لأضواء السيارة ففتح البوابة على مصراعيها. مسّت كبد «أُسامة» لوعة حُزن وهو يرى وجه أمّه من خلف نافذةِ البيت بينما هو ينطلق بالسيارة مبتعدًا عن البيت. لوّح له أخوه الأكبر «حُسام» الذي كان قد سمع صياح جده الأخير فهبط من الطابق العلوي. كان يقف بجوار أُمّه وينظر إلى شقيقه «أُسامة»

نظرة عتابٍ ولوم. بيد أنه لم يُظهر هذا لأمّه. سارع «أُسامة» برسم ابتسامة لطيفة على وجهه، ولوّح لوالدته؛ فهو يدرك طبيعة شخصيّتها الحساسة، ولم يحب أن يزدها كربًا. همس مرّة أخرى لنفسه: عندما أسافر «حسام» و «مريم» سيعتنيان بها، ليس هناك داعٍ للقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

انطلق على الطريق لا يلوي على شيء، والأفكار تتناطح في رأسه، صوت مذيع نشرة الأخبار يصدر من المذياع صاخبًا يرتج له زجاج نوافذ السيّارة، كان متوتر الأعصاب سارحًا بطرفه فيما يكتنفه من ظلام دامس وهو على الطريق، شعر بتدفق الدماء لرأسه. ارتفع صوت منبه السرعة فقد تجاوز الحد الأقصى لها كعادته، مائة، مائة وعشرون، ماذا لو انقلبت به السيارة الآن! وقد خرج وأمّه غاضبة عليه؟، شعر بدنو الموت؛ فخفف من سرعته.

أين سيذهب الآن؟ آه تذكر! المستشفى، سيعرج عليها ليطمئن على «فرحة» وليلتقي بالدكتور «أمين». كانت المستشفى على حداثة عهدها تعدُّ من أفضل المستشفيات الخاصّة بالقاهرة، فبالإضافة إلى قسم الأمراض الباطنية، وقسم الجراحة العامة، كان قسم جراحة المخّ والأعصاب من أفضل الأقسام. تمّ إجراء بعض الجراحات مع أساتذة كلية الطب والذين انضموا للعمل فيها؛ نظرًا لسمعتها الطيبة وتجهُّزِها بأفضل التقنيات، في الحقيقة فعلًا جد «أُسامة» لم يبخل عليه بالمال. يُجرى هناك تفتيت أورام

المخ بالموجات الصوتية. كما تمّ إجراء الجراحات الميكروسكوبية لأورام المخ وأورام الجمجمة، وأورام الحبل الشوكي والفقرات، وأيضًا الجراحات لحالات النزيف بالمخ وتمدد الشرايين، والجراحات التكتيكية ثلاثية الأبعاد، مما حسّن من سمعتها ورفع اسمها عاليًا.

فور اجتيازه للبوابة كانت سيارة الإسعاف تطلق صفاراتها وفوانيسها الدوّارة وهي تخرج من جراج المستشفى مخلّفة وراءها ضجّة هائلة، هناك حادث وعلى الجميع في قسم استقبال حوداث الجراحة أن يستعد. لمح «يُوسف» وهو يُسرع إلى قسم استقبال الطوارئ فحيّاه تحيةً عابرة سريعة. ثُمّ ألقى التحية على موظفي الاستقبال، واتجه فورًا إلى مكتب الدكتور «أمين». كان الدكتور «أمين» هو أحد أساتذته في الجامعة، وله فضل عظيم عليه وعلى زملائه. لم يكن من ذاك النوع اللامع من أساتذة الجامعة الذي تجده يرتدي بدلات أنيقة ويتنقل بين الفضائيات ضيفًا عليهم، لم يكن أسيرًا للأضواء. لم يمتلك أغلى أنواع السيارات. كان مخلصًا لمهنته، إنّه الطبيب الإنسان. لهذا كان أول من وثق به «أُسامة» ولجأ إليه ليكون مسئولًا معه عن إدارة المستشفى هو وابنته الدكتورة «سارة».

«سارة» كانت من الفتيات اللاتي لا تلتفت لشيء إلا للعلم. درسا معًا ثُمّ تخرجا وهي لا تزال على حالها.. لا مجال لمنافستها في الحصول على المركز الأول دائمًا.

كانت تتقمص دور الأم دائمًا، صوتها الجاد، مظهرها وطريقتها في الملبس. كانت تحب هذا الشعور وتستلذّ به. في العمل كانت توجه «أُسامة» كطفل صغير رغم أنها تكبره فقط بشهرين، وكانت تحدثه أحيانًا- كما تحدث غيره- بلهجة آمرة:

- اذهب إلى غرفة العمليات، وقّع هذا، راجع ملف هذا المريض، اذهب لبيتك لتنل قسطًا من الراحة حتى تتمكن من التركيز مرّة أخرى، فأنت الآن خارج نطاق الخدمة يا دكتور «أُسامة».

طرق «أُسامة» باب غرفة الدكتور «أمين» ومرَّر رأسه من فرجة الباب أولًا ليرى إن كان مشغولًا أم لا، ثُمّ دلف وأغلق الباب خلفه. بدا الدكتور «أمين» رغم ابتسامته الطيّبة متعبًا بعينيه المحاطتين بهالات زرقاء. كما أنّ تلك التجاعيد التي انتشرت على رقبته وذقنه جعلته يبدو وكأنّه على حافّة القبر. قال الدكتور «أمين» وهو يحتضن كف «أُسامة» بحرارة:

- حمدًا لله على سلامتك، لقد قرأت بريدك الإلكتروني وسعدت للعرض الذي عرضه عليك الدكتور «جيمس». ماذا ستفعل يا بنيّ؟

- للأسف يبدو أنني لن أتمكن من قبول العرض.

كست وجه الدكتور «أمين» علامات التعجب، وجلس «أُسامة» يقصّ

عليه خبر أمّه وجدّه. انضمت إليهما «سارة» بعد دقائق وجلست تنصت مع أبيها. كان الحديث معهما سببًا في التخفيف من توتره فانصرف وهو أكثر هدوءًا وأهدأ بالًا. عاد إلى البيت فوجد أمّه لا تزال تنتظره مستلقية على الأريكة، متدثرة بشالها الأزرق، تتوسّد بشعرها الذهبي المنطوي تحت رأسها والذي انطفأ بريقه بالشيب. رجف قلبه عندما رآها ساكنة إلى حدّ أنّه انحنى على وجهها ليتأكد من سماع أنفاسها وأسرع يهزّ كتفها برفق. فتحت عينيها العسليتين وحرّكتهما ببطء فاطمأن قلبه، وانحنى مقبلًا كفّها الدافيء ثمّ رأسها، وقال يداعبها:

- أين الدجاج المشوي الذي أُحبّه؟ أنا جائع جدًّا يا حبيبتي.

قالت بحنانٍ وهي تمسح خدّه بكفّها الدافىء:

- اصبر قليلًا، فأختك «مريم» على وشك الوصول هي وزوجها. فالحمل يرهقها و «أحمد» يخشى أن يتركها طوال النهار وحدها بالبيت. كما أنّها ما عادت قادرة على خدمة زوجها وسيقيمان معنا حتى تلد لأعاونها وأهتم بها خلال غيابه عن البيت، ليتها تنتقل للإقامة معنا إلى الأبد.

قالت الجملة الأخيرة بصوت مُرتبك، وأردفت بعد أن رسمت ابتسامة على شفتيها:

- سنتناول العشاء سويًّا، وقد أعددت لكم طعامًا شهيًّا.

- هل أذهب لإحضارهما بسيّارتي؟

- لا. فهما في الطريق فعلًا، لقد استقلا سيّارة أُجرة.

لم يمض وقت حتى سمعا هدير محرّك السيّارة، وصلت «مريم». غمرته السعادة فقد كان مشتاقًا لرؤية وجه أخته البرئ، كما كان يفتقد اجتماع العائلة على مائدة واحدة. في تمام العاشرة مساءً كانوا جميعًا يجلسون في غرفة الطعام وعلى رأس المائدة كان الجدّ يداعب «مروان» أوّل حفيد لابنته «دولت»، والذي كان فاكهة البيت، ومصدر السرور لهم جميعًا، خاصّة بعد أن أتمّ شهره الثامن، وزُينت ابتسامته العذبة بأول أسنانه التي ظهرت أخيرًا. أعدّت السيدة «دولت» مأدبة عشاء فاخرة، الدجاج المشوي والأرز المعمّر الذي يحبّه «أُسامة». كما أعدّت المعكرونة بالصلصة البيضاء التي تُحبّها «ريم» زوجة «حسام»، وسلطة البطاطس المهروسة التي يفضّلها «حسام». والقرنبيط المقلي الذي تحبّه «مريم».

كان «حسام» كعادته لا يأكل إلّا بعد أن يتأكّد أن زوجته «ريم» تأكل فهو يعاملها بلطفٍ شديد. وكانت تعلم هذا وتتدلل عليه أمام الجميع. وكعادتها كانت «مريم» هادئة كقطة أليفة، لا يشعر أحد بوجودها.

راقب «أُسامة» عيني أُمّه وهي ترفرف ناظرة إليهم وهم يتناولون الطعام، تنسى أن تأكل وتكتفي بمراقبتهم، تبالغ في اهتمامها بزوج ابنتها «أحمد» وتشعره أنّه ذو مكانة كبيرة لديها، ما أجملها!

مرّت الليلة رائعة وسعدوا جميعًا بانتقال «مريم» و «أحمد» للبيت. قرر «أُسامة» أن يؤجل إخبار أُمّه بأنّه لن يخطب ابنة خاله «ريتال» الآن وسيؤجل الأمر؛ فليس هذا وقت الزواج حتى لا يكدّرها قبل النوم. ربما يستعين بأخته «مريم» لتقنعها. اتجه لغرفته ورأسه يدور كطواحين الهواء، وضع رأسه على وسادته، وطال سُهاده.

***

٦

كان يرتدي بذلة طبيّة خضراء وعلى رأسه غطاء يغطي به شعره. راعى أصول التعقيم، اغتسل بالصابون، وفرك يديه وذراعيه برغوة مضادةٍ للبكتيريا قبل أن يضع كمامه على أنفه وفمه. قُدّم إليه طبق عليه كل أنواع أدوات الجراحة. بدأ يقرأ آية الكرسي ليُطمئن نفسه وهو يتأمّل وجه المريض المخدّر أمامه. شعر بقطرة عرق باردٍ تسري في ظهره، ما زال متوترًا. دلفت «سارة» أخيرًا وهي رافعةٌ يديها بعد التعقيم فألبستها الممرضة قُفازَين لتشاركه في إجراء الجراحة. عبرت ابتسامة خفيفة وجه «يوسف» عندما رآها. قالت في ثقة نفدت إلى قلبه وهي تمدّ يدها بالمبضع:

- هيّا يا بطل.

أمسك بالمبضع وأعطى إشارة البدء بالعمل. «يُوسف» شخص حساس جدًّا، يحتاج إلى الحب اللا مشروط والعطف وليس الشفقة. وكانت «سارة» دائمًا تؤيده وتُشجّعه. تصرفاتها تمنحه الشعور بالأمان. توجيهاتها تعلّمه. أحيانًا كان يعلم القرار الصحيح، لكنّه يحتاج لتأكيد! كان

يبحث دومًا عن تلك الهزّة الخفيفة من رأسها، والمصحوبة بغمضة خفيفة لعينيها تعني «أنت على صواب» فينطلق في عمله بثقةٍ طالما أنّها وافقته الرأي. كانت تفهمه جيّدًا. هي أكثر منه خبرة ربما لأنها تكبره بعامين.

***

استيقظ «أُسامة» مبكرًا يتصبب عرقًا باردًا، وضع قدمًا خارج السرير ثُمّ أخرى، وانسلّ سريعًا إلى الحمّام لكي يغتسل وينتعش. بعد قليل كان شاردًا خلف زجاج النافذة وهو يفكّر في آخر لقاء له مع «ريتال». كانت ناعمة وساكنة كالحمامات البيضاء على غصون الأشجار الدقيقة التي تظهر أمامه في الحديقة الآن. كان المطر قد توقف عن التساقط منذ العشية، ولكن السماء كانت مكفهرّة بالغيوم. خرج من غرفته فإذا بصوت المذياع يأتيه مصحوبًا بضجيج أدوات وطناجر المطبخ. استيقظت السيدة «دولت» مبكّرًا كعادتها قبل الجميع. المطبخ دافئ؛ فقد قامت بإشعال الفرن. مدّت العجينة بالشوبك ووضعتها في قالب مستدير، ثُمّ وضعت عليها بعض الحبوب اليابسة وأدخلتها الفرن. خلطت البيض بالسكر وبدأت تُقشّر التفاح. ستصنع فطيرة التُفّاح التي تُحبّها»مريم». تذوقت الحليب فصنع لها شاربًا رفيعًا أبيضَ. دخل «أُسامة» فرأى الشارب وبدأ يمازحها فهشّت له، ثُمّ قبّل رأسها وجلس يراقبها، ثُمّ سحب بعضًا من التفّاح المقشور وبدأ

يلتهمه. قالت بحنان:

- أتذكر عندما كنت تتسلل أنت و«حسام» من خلف ظهري وأنا بالمطبخ؛ لتأكلا البطاطس المحمّرة، وألتفت فأجد ما قليته قد اختفى فأصرخ وأعود لتقشير المزيد!؟

- نعم أذكر، وأذكر آثار أصابعنا على كعكة الشوكولاتة التي كانت تفاجئك وأنت تقدمينها للضيوف.

ضحكت وهي تتأمل وجهه، وقالت:

- كان «حُسام» دائمًا يهرب من العقاب، وعندما كنت أقف أمامك لأضربك كنت أتراجع، لم أجرؤ يومًا على عقابك يا «أُسامة» كنت طيّبًا وودودًا جدًّا.

- أنتِ حبيبتي. (قالها وهو يقبّل رأسها مرّة أخرى)

أخرجت القالب المستدير من الفرن. أزالت الحبوب اليابسة، حان وقت وضع التفاح المقشور مع القرفة والسكر. عاونها «أُسامة» وكان يحبُّ القيام بهذا الدور كثيرًا.

- أين أم صلاح؟

- دعها نائمة؛ فقد اشتد ألم المفاصل عليها، لا تنس أنها تكبرني بعشر

سنوات يا ولدي. أظنني سأحتاج لخادمة أخرى تعاونا بالبيت. ولن أقدر أبدًا أن أستغني عن أُمّ صلاح فهي عشرة عُمر.

- لديّ من يُساعدك.

- حقًّا؟

- عندما كُنت في الإسكندرية شهِدّتُ حادثًا، صدمت سيّارة مسرعة طفلة صغيرة يتيمة الأب.

- يا إلهي! هل أُصيبت؟

- الحمد لله إصابتها طفيفة. هم فقراء جدًّا يا أُمّي. والدها كان عاملَ بناءٍ، أحضرتهما معي وهما بالمستشفى الآن، فأُمّها لن تقدر على رعايتها كما أنّها لا تملك المال.

- فلنسأل عنها أولًا، ولك أن تُحضرها إن اطمأننت لها.

- حسنًا، لقد قمت بتصوير بطاقتها الشخصية بهاتفي، سأُرسلُ الصورة لـ «رأفت» شقيق «ريم»، فهو ضابطُ شرطة ويستطيع أن يفيدنا في الأمر.

رفعت أُمّه رأسها ثُمّ أشارت بيدها على الخزانة الخشبية المعلّقة خلفه وقالت:

- أعطني عُلبة القرفة من تلك الخزانة الخشبية يا «أُسامة». أودّ إضافة

المزيد منها للفطيرة.

بعد نصف ساعةٍ كان المطبخُ يعبق برائحة القرفة، بينما كانت غُرفة «أُسامة» تعبق برائحة العطر. ارتدى «بلوفرًا» من الكشمير بياقةٍ ملفوفة، وبنطالًا أزرقَ. حان وقت العودة للعمل. خرج من البيت وصفق الباب خلفه. أدخل مفتاح التدوير ليُقلع بسيّارته وانطلق إلى المستشفى.

***

كان المطر يهطل بغزارة ملقيًا على المدينة غطاءه الأصمّ. ورغم ذلك كان المستشفى مزدحمًا بالمرضى. لم ينعم «أُسامة» بدقيقة واحدة ليلتقط أنفاسه. حالاتٌ جديدة في الغرف، وأخرى خطرة في قسم الطوارئ، وحادث مروع. ارتدى معطفه الأبيض فوق بذلته الطبية الخضراء وخرج من غرفة الحالات الحرجة متوجهًا للقاء والدي الشاب المصاب. استوقفه الدكتور «أمين» قائلًا- وهو يربتُ على كتفه ليشجعه-:

- تعلّم يا بُنيّ قساوة القلب، ولا تتورط شخصيًّا مع المرضى وأقاربهم.

كان «أُسامة» يُحدّق في الفراغ وكأن الكلام غير موجه له. كم يكره تلك اللحظات. عندما رأى وجهيهما، اجتاحت قشعريرة هيكله بدءًا من نخاعه مرورًا بالكتفين والبطن. الأمر يختلف تمامًا عن وقوفه في غرفة

العمليات. الآن يواجه الصراخ، يواجه الدموع، يواجه اللوم، يتحمل البشر. وقف أمامهما وقال بصوتٍ حاول أن يكون هادئًا:

- تعرّض لصدمة في جمجمته أدّت إلى رَضٍّ دماغي شديدٍ مع تجمع دموي يضغط على الدماغ ونبذل الآن ما بوسعنا لإيقاف تزايد الضغط الداخلي للجمجمة، ولا نستطيع القول بأنّه سيخرج من الغيبوبة ربما لساعات أو أيام.

صرخت الأُمّ وانهارت باكية، وبدأ الأب يضربه على صدره وكأنّه هو المخطئ. أصيب الشاب في حادثٍ مروعٍ، صدمته شاحنة وهو على دراجته البخارية، تركوه على الطريق نصف ساعة قبل أن تقف سيّارة لنجدته. «ليس ذنبي» أراد أن يقولها لهما لكنّه ظلّ صابرًا يتحمل الضربات من الأب المكلوم. حاول بعض الأطباء التدخل لكنه أبعدهم بذراعه. حتى أنّ الأب لطمه على وجهه قبل أن ينهار بين يديه، ويتعلق بصدره وينفجر في البكاء. بعد ذلك خرج «أُسامةُ» كالإعصار متجهًا إلى غرفته. لا يريد أن يرى أحدًا. كان وجه الموت يلوّح له هنا وهناك. «ليتني ما كُنتُ طبيبًا» همس لنفسه وهو يغلق باب الغرفة.

***

انتهى وقت العمل، لا بدّ من زيارة خاله «كمال» اليوم. لم يره منذ عودته من السفر. كان يقف أمام باب شقّة خاله، وقد جال بفكره نفس السؤال الذي يحيّره دائمًا، لماذا رفض خاله الانتقال لبيت جدّه ليقيم معهم

إقامة دائمة. كان يستطيع أن يقطن في الدور العلوي. ولو أراد أن يبني طابقًا جديدًا لفعل، لكنّه لم يفعل أبدًا، ولم يُلمّح يومًا إلى هذا الأمر. أخبرته أخته «دولت» أكثر من مرّة لكنّه كان يرفض. ألح عليه والده كثيرًا لكنّه لم ينجح في إقناعه، حتى أنّه لكي يريح ضميره عوّضه بكتابة معظم أسهم المستشفى باسمه، ومنحه مبلغًا كبيرًا من المال. تناهى إلى سمع «أُسامة» صوت خطواتٍ خفيفة مسرعة. فتحت «ريتال» الباب وقد اختفت تقريبًا بأكملها خلفه. ألقى نظرةً خاطفة نحوها. ثُمّ حيّاها ودلف سريعًا إلى غرفة الضيوف. جلس ينتظر خاله ولاحت أمام عينيه ذكريات الطفولة العذبة. في هذا البيت كان يركض مع أبناء خاله هو وشقيقته «مريم». كانت «ريتال» أكثرهم لطفًا وبراءة، كثيرًا ما كانت «مريم» تضربها وتسلبها لعبتها المفضلة. كانت لعبتها المفضلة عبارة عن عروس من القماش لا تفارق حضنها طوال النهار، وربما تشاركها وسادتها أثناء الليل تأنس بها وتهمس إليها بأسرارٍ كثيرة، وكأنّها شقيقة لها تستمد من كفّها الذي تقبض عليه الأمان. بدلًا من البكاء كانت تهرول نحو «أُسامة» وتشكو إليه ما فعلته مريم. كان يُعيد إليها لعبتها في الحال. اقتسامها للحلوى معه، سيرها خلفه طوال النهار وكأنّها ظلّه. استنادتها بذقنها الصغير على ذراعه وهما يُشاهدان التلفاز، تشجيعها له عندما كان يلعب مع أخيها «يُوسف»، وهما ينزلقان على إفريز الدرج. تلك

الهدايا التي كانت تغلفها بأوراق الكراسات وتهديها إليه كلّما رأته. بكاؤها عندما يغادر مع إخوته وأُمّه، ووقوفها في الشرفة لتلوّح لهم وهي تبكي. لاحت على شفتيه ابتسامة عذبة أسعدت خاله عندما دلف إلى الغرفة. تبادلَا عبارات الترحيب، وصمم خاله وزوجته على أن يتناول معهم طعام الغذاء.

- سلمت يداك يا خالة «زينب»، الطعام شهيّ جدًّا.

- أحقًّا أعجبك يا «أُسامة»؟

- أعجبني جدًّا، وخاصّة الدجاج المقليّ.

- فلتشكر «ريتال» إذًا، فهي من أعدّته بنفسها فهي تعلمُ أنّك تُحبّه.

على استحياء رماها بنظرة خاطفة وشكرها بامتنان.

- حان وقت القهوة أليس كذلك يا «زينب»؟

قالها «كمال» لزوجته التي أسرعت لتعدّ القهوة لزوجها ولأسامة، بينما بدأت «ريتال» تُنظّف المائدة وهي تُنصتُ للحوار بين والدها و«أُسامة»:

- هل حقًّا ستُسافر؟

- نعم إن شاء الله، فهي فرصة رائعة وربما لن تتكرر، سأنضمُّ إلى فريق علمي كبير، وسيساعدني دكتور «جيمس» الذي التقيت به هناك للعمل على إثبات صحّة نظريّة علميّة ربّما ستُشكّل نقطة فارقة في مجال جراحة المخ

والأعصاب، وعلاج الشلل الدماغي، وربما فقدان الذاكرة.

- ما شاء الله، يبدو أنّك متحمّس جدًّا للسفر.

- وللعمل أيضًا يا خالي.

- كُنت دائمًا محبًّا للعلم وشغوفًا به يا «أُسامة»، بارك الله فيك يا ولدي ونفع الله بك.

انتقل "أُسامة" إلى المقعد المواجه لخاله "كمال"، وقال مبتسمًا:

- خالي لماذا رفضت الإقامة معنا في نفس البيت، ليتكم تنتقلون للإقامة معنا بالبيت مع جدّي وأُمّي، سيكون أمرًا محببًا للجميع، وأظنّه الصواب.

تنحنح خاله ثُمّ قال وهو يرمقه بلطف:

- ولماذا تظنّه من الصواب؟

- ألسنا عائلة واحدة؟

- بلى.

- لماذا إذًا رفضت قديمًا الانتقال للإقامة معنا رغم إصرار جدّي وأُمّي؟

- أعلم أنها كانت رغبة أبي وأختي "دولت"، وكلاهما كان في حاجة

لجواري، وما تأخرت عنهما يومًا، غالب الأوقات كنّا نقضيها عندكم، طوال النهار في الإجازات، وكلّ جمعة أيام الدراسة، أتذكر تلك الليالي الرائعة التي كنا نقضيها معًا؟

لاحت على وجه "أُسامة" ابتسامة رائعة، وقال:

- ولهذا أعشق الشتاء، صوتك الدافىء، ضحكاتنا وأنت تقشّر لنا حبّات الفول السوداني، رائحة القهوة التي كنت تتناولها وأنت تحكي لنا الحكايا ونحن نجلس قُرب المدفأة في ليالي الشتاء. لكنّك كنت تصرّ على العودة لبيتك في آخر الليل، بكاؤنا ورجاء أُمي حتى اللهجة الصارمة من جدّي لكي توافق لم تفلح كلّها في إقناعك يومًا ما، لماذا؟

- كنت أُعلّق عيني بما سيكون.

- ماذا تقصد يا خالي؟

- ظننت في البداية أن أُمّك ستقبل الزواج من شخص آخر غير والدك، وكنت أتحسب لهذا الأمر، لكنها رفضت رفضًا قاطعًا. صحيح أننا كنّا عائلة واحدة، ولكن باتت للعائلة الواحدة فروع، وكلّ فرع له أزهاره، كما أنني لا أُحب أن أُضيّق على الآخرين. لا بدّ أن تكون لكلّ أُسرة خصوصياتها، الحدود يا بنيّ.

- أظن الأمر أبسط من ذلك، فعلاقتنا عميقة يا خالي.

- عُمق العلاقات يكمن في ذوبان الحواجز مع احترام الخصوصيات يا "أُسامة".

اقتربت "زينب" حاملةً فناجين القهوة، انضمّت إليهم وجلست تنظر إلى «أسامةُ» بأملٍ ورجاء. طالما تمنته زوجًا لابنتها لكنّه لم يُقدم على تلك الخطوة بعد. قريبًا منهم وفي نفس البيت كانت «ريتال» تقف في المطبخ لتجلّي الصحون وهي شاردةٌ. كانت تقرض شفتيها من شدّة القلق. أنهت مهمتها والتزمت المطبخ بينما كان يتساءل في نفسه عن سبب اختفائها وعدم انضمامها لجلستهم. خرج دون أن يراها. ما زال مترددًا في أمر خطبتها، لكنّه.. سيسافر.

***

٧

صفّ سيارته الفارهة أمام بناء من القرميد الرمادي واللون الوردي. كان المصرف مكونًا من قاعة فسيحة مضاءة ومحاطة بكُوى زجاجية ومنظمة بشكل جيّد ودقيق. فيها مقصورات صغيرة من الخشب الكتيم لتصون الأحاديث الودية بين الموظفين والعملاء. كان البناء جميلًا ومحاطًا بالخُضرة.

دلف إلى الممر وهو يرتدي بزّة بنيَّةً غامقة تشبه درجة لونها لون عينيه. بدأ «حُسام» العمل كمحاسب في شركة مقاولاتٍ مشهورة، حيث ذاع صيته سريعًا جدًّا. حقق «حُسام» طموحه في أن يصبح أحد أشهر رجال الأعمال، وأحد الذين يتم الاعتراف بمهارتهم وتميزهم. لامعًا ووسيمًا وذكيًّا وفخورًا بنفسه، هكذا كان «حسام» من الخارج. وكانت لديه زوجة جميلة وطفل رائع. بدأ الوخز في رأسه يتزايد. فقد سهر يعمل طوال الليل. مسّد صدغيه ومسح وجهه بكفيه الباردتين. كان شابًّا خفيف الروح، قوي البنية، أبرزت بزّته الأنيقة قامته الطويلة على نحو أكثر. أضفى عليه عرض منكبيه حضورًا

أقوى. مرر أصابعه عبر شعره البنيّ واتجه ليجلس منتظرًا دوره ليقوم بإيداع المال قبل أن ينصرف للبيت. محدّقًا بعينيه المتّقدتين الثاقبتين في وجه موظف البنك، وقف «حسام» يسأل عن رصيده وكم بلغت قيمته الآن.

كان الموظف متوترًا وملتفتًا إلى «حسام» بمزاجٍ منحرفٍ بوضوح، لكن تعبيرات وجهه تغيرت عندما ظهر الحساب على الشاشة، فانفرجت أساريره وولاه اهتمامًا أكبر. قد تجاوز حسابه في البنك المليون لأول مرّة، مما يعني أنه على الطريق الصحيح. قام بإيداع المزيد من المال وخرج من البنك متجهًا إلى سيّارته. تذكّر أنه لم يخرج مع «ريم» منذ فترة طويلة. هاتفها وهو منتشٍ وسعيد. أجابته على الهاتف، فأراحه سماع صوتها وكأنه قد تناول شربة من ماءٍ باردٍ بعد طول عطش.

- ما رأيك أن نخرج اليوم؟

- معقول؟ سنخرج!

- نعم يا قمري، فلتستعدي وسأمرّ عليك بعد نصف ساعة، اتركي «مروان» مع أُمّي.

- ولكن خالك جاء لزيارتنا وكلهم هنا بالبيت.

- يا الله! إذًا فلنؤجلها للغد.

- حسنًا حبيبي، أو في المساء نستطيع أن نتسلل بعد أن ينام «مروان» ونتركه مع والدتك لنتناول العشاء معًا في أحد الفنادق، اشتقت للحديث معك، أوحشتني كثيرًا.

- ماذا تفعلين لكي تظلّي فَكِهةً وجميلة هكذا.

أنهت المكالمة بضحكة انتزعت من وجهه ابتسامة واسعة. كان في حالة من السعادة جعلته يطير بسيارته وكأنّه فوق السحاب. عند أول منعطفٍ أدار مقود سيارته متجهًا لشراء هديةٍ لها. كانت «ريم» شابة جميلة مشدودة القوام لها وجه حلو التقاسيم لافتٌ للنظر. لديها شخصيّة استعراضية، تحبّ أن تلفت الأنظار إليها وتُدرك تمامًا كيف تفعل ذلك بذكاء. عطرها النفاذ، ملابسها ذات الألوان الصارخة، الحذاء ذو الكعب العالي، الحزام العريض الذي كانت تشدّه على خصرها، كلّ شيءٍ لامع ويبرق كانت تحبه. كانت تسير كعارضات الأزياء. ترفع صوت ضحكاتها لتخبر الآخرين أنّها هنا. في الحقيقة كانت «ريم» نادمة لأنّها ارتدت الحجاب، لكنّها لا تستطيع البوح بذلك ولا التصريح به، حوّلته الآن لإكسسوار إضافي تتلاعب به لتظهر أناقتها. وليس هناك مانع لإظهار أطراف شعرها الحريري، المهم أن تكون جميلة. لم يعترض «حُسام» أبدًا، فهو يعشقها كما هي. في نفس اللحظة التي خرج فيها «حسام» من المبنى الفخم حاملًا سوارًا ذهبيًّا بديعًا لزوجته

في علبةٍ فاخرةٍ من القطيفة الحمراء، مرّت سيّارة «سليمان» المتهالكة من أمامه دون أن يلتفت له. وصل أخيرًا من القاهرة، حاملًا حاسوبه النقّال وهواتفه وحقائب الاسطوانات الخاصّة به. لم يكن «سُليمان» يزدري الناس ولكنه لم يكن يجيد التحدث إليهم. فضّل الاختباء خلف الشاشة. وعاش بين الحاسوب والطعام. كان يتألّم في صمت. حتى «أُسامة» أعزّ أصدقائه كان لا يجرؤ على مناقشة سبب ألمه معه، فهو يُفضل أن يحتفظ به لنفسه. لم يكن قد تبقى في داخله سوى ذلك الجرح المفتوح، ذلك الحزن الأبدي منذ اختلف مع والده فطرده من البيت، وعاد لبيت جدّته حيث زاره «أُسامة» منذ أيّام. قرر البقاء فيه للأبد رغم محاولات والده أن يسترضيه ورغم توسلات أُمّه إليه ليعود. منذ تخرجه يتكفّل بنفقات أمه وأبيه وأشقائه ولا يتأخر عنهم أبدًا لكنّه يرفض الرجوع. اتجه لبيتهم القديم في القاهرة الذي كانوا يقطنون فيه قبل انتقالهم إلى الإسكندرية، فتح الباب فأصدر صريرًا عاليًا. شمّ رائحة التراب فشعر بانقباض، فقد جثم شبح الماضي على صدره، وقرر أن يتجه لبيت «أُسامة».

ازدحم البيت بالضيوف، الكلّ هناك. كانت السيّدة «دولت» تتنقل بين المطبخ وغرفة المعيشة حاملة ما لذّ وطاب. عاونتها أُمّ «فرحة» التي عاد بها أُسامة اليوم من المستشفى لتنضم لأول مرّة للعمل بالبيت مع أُمّ

صلاح وابنها. أظهرت نشاطًا ملحوظًا. كانت ذكية وفهمت السيّدة «دولت» في الحال. حتى أنها كانت تتحرك معها وكأنها قرأت أفكارها. أراحتها كثيرًا بينما كانت «فرحة» تجلس على الأرض بجوار المدفأة الزيتية في غرفة المعيشة تراقب الجميع بعينيها الخضراوتين بفضولٍ غريب. لأوّل مرّةٍ تشعر بالدفء. كان البيت كالقصر بالنسبة لها. بيتٌ كبيرٌ كان كلّ ما فيه صقيلًا ونظيفًا ومشرقًا. ما زال الضماد الأبيض السميك على رأسها. اقتربت منها «مريم» وقدّمت إليها قطعة من فطيرة التفاح التي أعدّتها أُمّها فالتهمتها الصغيرة بسعادة.

- أليست جميلة؟

قالتها «مريم» موجهة سؤالها لـ «ريتال» التي قالت وهي تتأبط ذراع صديقتها وابنة عمّتها رفيقة الطفولة، وهما يتأملان «فرحة».

- بلى يا «مريم»، هي جميلة فعلًا. شعرها الطويل البني الأشعث، وعيناها الماكرتان، حتى أسنانها الناعمة والمتفرّقة قليلًا منحتها ابتسامة جذّابة.

- أُمّها أيضًا جميلة لكنّ ملامحها مختلفة تمامًا عنها، في وجهها آثار جمالٍ مُتعب، لا بدّ أنها عانت كثيرًا بعد وفاةِ زوجها. علمت أنّه كان وحيدًا فالصغيرةُ ليس لها جدٌّ ولا جدةٌ، ماتا منذ سنوات، وخالها سافر إلى ليبيا العام الماضي.

- يا الله!..لا يبكي موت الفقير إلّا أُمّه وأبوه وعروسه، إذًا بكت زوجها وحيدة، المسكينة! حمدًا لله أن الله وهبها «فرحة».

- يبدو أنّ «فرحة» ذكيّة جدًّا.

- نعم صدقتِ، نظراتها تشي بالكثير يا «ريتال».

استدارت «ريتال» بوجهها وتلاقت عيناها بعيني «أُسامة»، وتركزت نظراتهما برهة فشعر كلّ منهما بالحرج وكأنهما يريا بعضهما لأوّل مرّة. بدأ الجدّ يتحدث عن ذكرياته كعادته، يُحبّ أن يأنس بالكلام عن الماضي لأنه يفتقده. كان يشعر بالغربة، يحنّ إلى رفاقه، يفتقد زوجته. يشعر أنّه يعيش في الوقت الضائع كما يقولون. «هرمت يا أبنائي وسئمت الحياة، ليتني أموت»..كان يُكررها كثيرًا عندما يكتئب. جرّب أن تعيش مع أناس من زمن آخر وقد اختفى كلّ ما اعتدت عليه، وقد مات كلّ من أحببتهم، أليس أمرًا صعبًا؟ ورغم ذلك كان يشعر بالرضا في نفسه؛ لأن الله وهبه مثل هذه الذريّة الوفية. حاول أن يكون سخيًّا مع ابنته فكتب عقدًا ووثّقه ببيع البيت والمستشفى لابنته «دولت» وابنه «كمال» مناصفةً بينهما، ولم يعترض أبدًا «كمال»، كما أنّه لم ينتقل يومًا إلى البيت.

وفجأة وفي غمار الأحاديث النديّة، انقطع التيارُ الكهربائي وانطفأت المصابيح. أسرع «أُسامة» بإحضار كشّاف كبير ووضعه في منتصف غرفة

المعيشة بينما كان «حُسام» يقول:

- لا بدّ أن نشتري مولدًا للكهرباء، أصبح انقطاع التيار الكهربائي يتكرر كثيرًا.

هزّت أُمّه رأسها موافقة. كان ضوء الكشاف لا يكفي فالغرفة كبيرة. كما أن الكشاف الآخر لا بدّ أن يكون بالمطبخ. قامت «مريم» بإشعال عدّة شموع ووضعتها في وسط الطاولة الخشبية المنخفضة الموجودة في زاوية الغرفة. ساد بينهم صمت حميمي.

رفرفت أهداب الصغيرة «فرحة» بتوتر، ودارت مقلتاها دورة كاملة قبل أن تدرك شيئًا ما! كانت تشعر أن خطرًا وشيكًا يحوم في كلِ مكان. نشرت الشموع في الغرفة ضوءًا مترجرجًا. تراقصت خيالاتهم المشوهة على الجدران. هناك شخص سيموت! هذا ما شعرت به قبل وفاة أبيها، انقباض في الصدر، وشيء ثقيلٌ يقبعُ على كتفيها. سرت قشعريرة في جسدها عندما ذكرت الكابوس الذي كان يتكرر ليلة وفاته. اقتربت أُمّها ووضعت أكواب الشاي الساخن على الطاولة واستدارت لتنصرف فوقعت عيناها على وجه ابنتها فأدركت فزعها. التقفتها بين يديها وأسرعت إلى المطبخ تتحسس خطاها على الضوء الخافت.

«الموتُ هنا يا أُمّي» همست قبل أن تنام!

انتهت الأُمسية واتجه كلّ واحدٍ منهم لغرفته بعد انصراف أُسرة الخال. كان البيت باردًا جدًّا. بقي «سليمان» مع صديقه. وَعدته السيّدة «دولت» أن تُرسل معه صباحًا أم صلاح وأم فرحة لينظفا المنزل ويجددا فيه الهواء النقي فانشرح صدره لاقتراحها وشكرها بامتنان.

ما زال التيار الكهربائي مقطوعًا، تمدد «أسامة» بجوار «سليمان» على أضواء الشموع. كانا يراقبان الظلال المتراقصة على الجدران. انتشرت رائحة الشمع المحروق في الغرفة. ابتسم «سليمان» وقال بمرح:

- أتذكر عندما كنّا نلعب بأيدينا لعبة الظلال هنا في بيتكم يا «أُسامة»؟

- كُنتَ بارعًا فيها يا «سليمان».

- والليلة التي ارتدينا فيها الملاءات البيضاء وخرجنا نفزع أشقاءك وأبناء خالك.

- نعم أذكرها. ماهرٌ أنت في اجترار الذكريات يا «سليمان». أتدري؟ أحيانًا أتمنى لو كانت الذكريات شيئًا أستطيع أن أخلعه وأطويه بهدوء وأدسه في حقيبة أو أضعه في صندوق أنيق، أُخبئه تحت الفراش ثم أرجع إليه إن احتجته فأجده.

سحب «سليمان» نفسًا عميقًا وشبّك كفيه خلف رأسه، وقال ردًّا على

كلام صديقه:

- أو ربما تلقيه في سلّة المهملات، أو تحرقه فيتبخر.

التفت إليه «أُسامة»، وقال:

- أعني الذكريات الحلوة! دعنا نفتش عنها فقط يا «سليمان» لتمنحنا بعض السعادة.

حدّق «سليمان» بعصبية قائلًا:

- وماذا عن الذكريات المؤلمة؟ أليست أمرًا يلتصق بك. ينغص عليك حياتك في كل نازلة سلام. في كل نسمة هواء تعرف عيناك نفس الوجه الذي تسبب في جروح التأمت على الكثير من الوجع. صفعة قاسية، خيانة صديق، قسوة أحدهم هنا، خوف شديد هناك، موت حبيب، ضياع شيء تحبه، الكثير من الفشل، بعض المواقف التي أهانك الناس فيها أو تجاهلوك أو طعنوك من الخلف. بينما أجمل ذكرياتك هي التي عشتها معهم هم أنفسهم في لحظات أخرى، فتخشى أن تتحسس تلك الذكريات الحلوة لأن الألم قابعٌ في أدنى بقاع نفسك يلملم أطرافه ويخبيء رأسه. خوفًا من أن يُطلّ الجانب الآخر في تلك المنحنيات المؤلمة وتجترّ الألم. كلاهما ملتصقان للأسف يا «أُسامة».

ران عليهما صمت طويل قبل أن يحاول «أُسامة» تغيير مزاج صديقه بالحديث عن شيء آخر، وليكن الحبّ!

قال بصوتٍ متهدج مفصحًا عمّا جال في خاطره، فقد كانت الذكريات الحلوة تدغدغ عواطفه:

- عندما لاقت نظرتي نظرة «ريتال» اليوم تذكرت أشياءَ عشناها معًا خلال الأعوام الماضية مع «يوسف» و «مريم» شعرت بشيء مختلف وتسارع نفسي على نحوٍ غريبٍ وتشوشت أفكاري.

- هل تحدثت معها؟

- لا.

- وماذا بعد؟

- لا أدري.

- حتى متى!

- لا أدري.

استدار «سليمان» مواجهًا للحائط المجاور للفراش، وعدّل وسادته وقال:

- سأنام الآن.

كان «أُسامة» يشعر بحنين للحديث عن «ريتال» التي كان يعرفها كابنة خاله، ويتفادى الكلام عن الزواج منها في آنٍ واحدٍ. وكان هذا عصيًّا على الشرح. استسلم أخيرًا بعد أن أخذ الكرى بمعاقد جفنيه. انصهرت الشمعة وانطفأ الفتيل مخلفًا خطًّا من الدخان ابتلعه ظلام الغرفة.

في ركن آخر بنفس البيت، وفي زاويةٍ يلفها الظلام إلا من بصيص مصباح صغير، كان جبينها يتفصّد عرقًا وهي ممددة على فراشها، وبجوارها أُمّها تمسح رأسها بالماء من آن لآخر، وجدت غطاءً مطرزًا طوته ووضعته على جسد ابنتها الذي كان يرتجف. رأت «فرحة» الكابوس مرّة أُخرى، كانت تتمتم بشيء ما وهي نائمة، قرّبت أُمّها أذنها من فمها لتسمع همسها «أحدٌ ما في هذا البيت سيموت!»

***

لم يُسمع صوت شقشقة العصافير هذا الصباح، فالبرد قارصٌ والكلّ يختبيء. حتى القطط الضّالة في الشوارع تكوّرت أمام عتبات البُيوت. بدأت الرياح الباردة تسحب الغيوم بسرعة مذهلة. أسراب من الندائف الزغبة تعبر من جديدٍ اللون الرمادي للسماء. كان البرد في الغرفة رهيبًا بحيث اقشعر جلده، وهو يخرج يده من تحت الغطاء ليضيء المصباح المجاور لفراشه ليتبيّن هل عاد التيّار الكهربائي أم لا، وكان قد عاد بالفعل. نظر «أُسامة» إلى

الساعة المعلّقة على الحائط وكانت تُشير إلى السابعة إلّا الربع. لا يزال «سليمان» يغُط في نومٍ عميق. انسحب بهدوء وأطفأ المصباح مرّة أخرى وتوجّه إلى المطبخ. توقّع أن أُمّه هناك فقد سمع صوتًا ما. دلف وهو يفرك كفيه من شدّة البرد فرأى «فرحة» أمامه وقد أسندت رأسها على طاولة الطعام واستسلمت للنوم. أُمّها تصنع كوبًا من الشاي لـ«أحمد» فقد استيقظ مبكرًا هو الآخر.

- صباح الخير.

- صباح الخير يا دكتور «أُسامة»

نظر إلى وجه «فرحة» بتفحّص، وقال:

- ما بالُ «فرحة»! أراها شاحبة اليوم؟

- كانت مريضة طوال الليل.

تحسس جبهتها بظهر يده، وقال:

- حرارتها ليست مرتفعة، ما كانت شكواها؟

- كان جبينها يتفصّد عرقًا، وكانت ترتجف يا دكتور.

انتفضت «فرحة» على صوتهما ثُمّ فتحت عينيها وأدركت أن «أُسامة» يجلس بجوارها.

- صباح الخير يا جميلة.

مسحت آثار النعاس عن وجهها بكفيها الرقيقين، وقالت بنصف ابتسامة:

- صباح الخير.

- سمعت أنّك مريضة.

- لست مريضة، أنا بخير.

مسح على رأسها بحنانٍ، وقال:

- سأغسل يديّ ثُمّ أحضر أدواتي، لا بدّ أن أفحص جرح رأسك وأُنظّفه يا قطتي.

قالت بمرح:

- وسترتدي قفّازات؟

- نعم.

- أُريد قفّازا لي.

- لكِ ذلك.

- وسنشرب الشاي معًا، أليس كذلك؟

- حسنًا يا أميرتي.

خالج قلبها شيئ من السعادة فهي تفتقد أباها، و«أُسامة» يغمرها بالحنان. بعد دقائق كانت تجلس كالقطة التي تنتظر المكافأة من سيّدها. سلّمته رأسها وجلست مستمتعة باهتمامه بجرحها. سألته بفضولٍ أنيس:

- هل تُحبّ صديقك؟

- «سليمان»؟

- نعم.

- أكيد أُحبّه.

حرّكت عينيها بمكرٍ، وقالت:

- لماذا؟

- لأنّه طيّب القلب ودائمًا يضحك، أليست روحه خفيفة.

قالت وهي تحملق في قميصه، ويداه تفتشان في جرح رأسها:

- هو يخفي شيئًا خلف نظّارته السوداء المستديرة.

تعجب من ملاحظتها وحاول أن يلهيها عن «سليمان» بسؤالها عن القصص التي تقرأها، وأطرق يُفكّر في كلام صديقه أمس عن الذكريات، لا شكّ أنّه فعلًا يُخفي عنه الكثير. هناك أمرٌ ما في حقيبة ذكرياته يؤلمه، ولعلّه

يبوح له به يومًا ما.

❋ ❋ ❋

صدر أزيزٌ مُزعجٌ من الباب الحديدي عندما كان «صلاح» يدفعه بقوّة ليُفسح الطريق لسيّارة «أُسامة» حيث كان في طريقه إلى المستشفى وبجواره على المقعد «أحمد» الذي كان القلق يبدو على وجهه. يبدو أنّ والده استدعاه لأمرٍ هام، ربّما الأمر يخصّ زواج شقيقته الذي اقترب موعده، لا بدّ أن يُفكّر في كيفية تدبير المال ليساعد أباه. في شارعٍ آخر كان»حسام» يَصفّ سيّارته أمام الشركة التي يعمل بها. أمّا «سليمان» فكان يستعد للخروج من بيت صديقه مع أم صلاح وأم فرحة إلى شقّته القديمة لتساعداه في تنظيفها. بقيت السيدة «دولت» وابنتها «مريم» ومعهما «فرحة» بالطابق السفلي. وظلّ الجدّ نائمًا حتى الظهيرةكعادته طوال الشّتاء. أمّا «ريم» فكانت غاضبةً لأنّها لم تخرج مع زوجها كما وعدها الليلة الماضية، لقد تجاهل الأمر ويبدو أنّه بدأ ينشغل عنها كثيرًا.

❋ ❋ ❋

٨

ارتفع صوت شارة نهاية المسلسل الذي كانت تتابعه. أغلقت التلفاز فخيّم الصمت على البيت. حتى صغيرها كان ساكنًا يراقب لُعبة ملونة من القماش ويعبث فيها بكفّه الصغير في صمت لطيف. شعرت فجأة أن صوت عقارب الساعة قد صار عاليًا، ومزعجًا، ومملًّا. وكأنّه ينقر رأسها نقرًا. تنهّدت «ريم» بأسى وهي تطالع وجهها في المرآة. لا يوجد ما تفعله! الآن تشعر بالملل. سرّحت شعرها في جدائل مرفوعة ومربوطة بمشبك مزين باللؤلؤ الأبيض. سحبت حجابًا شفافًا زهري اللون، ولفَّتْه حول عنقها وعقدته لتضعه على رأسها للضرورة إن جاء رجلٌ غريب. القميص «الجينز» الذي كانت ترتديه أعطاها مظهرًا أنيقًا ولا مباليًا في نفس الوقت. أمّا البنطال فكان ضيّقًا جدًّا. كانت تتخبط بين أنوثتها الطاغية وطبعها الطفولي. حرّكت يدها لتتأمل السوار الذي اشتراه لها، أعجبها بشدّة، لكنّها ملّت من الهدايا. كانت تحتاجه وتشتاق لوجوده. حملت «مروان» وهبطت الدرج وهي تداعبه. صوت حذائها الرنان طرق مسامع السيدة «دولت» التي كانت قد انتهت للتوّ من إعداد طعام الغذاء. لم يكن الأمر صعبًا.

في الحقيقة غياب أم صلاح وأُم فرحة لم يفرق معها كثيرًا، فقد اعتادت على فعل الكثير. حملت السيدةُ «دولت» حفيدها واتجهت مع «ريم» إلى غرفة المعيشة حيث كانت ابنتها «مريم» تشاهد التلفاز. تبعتهم «فرحة» في صمت، كانت عيناها لا تفارقان الصغير «مروان» والذي انتبه لوجهها الصغير وبدأ يضحك لها. كانت «مريم» قد أنهت الشهر السابع من حملها. ازدادت شحوبًا وأصبحت لا تقوى على الوقوف طويلًا. انتفخت شفتاها، وتورّم أنفُها. تغيرت ملامحها قليلًا، لم تعُد «مريم» الفاتنة، توارت معالم أنوثتها تمامًا، زحفت أعراض الحمل فطغت عليها بضراوة. أخبرتها أُمّها أنّها ستنجب ذكرًا كما حدث لها عندما كانت حاملًا في «حسام»، حتى أنّ أنفها كان في حجم البطاطا. ضحكت «مريم» عندما سمعت أُمّها تصف نفسها وهي حامل، وضحكت «ريم» ضحكة رنانة وأسرعت تغطي رأسها بالحجاب الشفاف الذي لم يحجب شيئًا! فقد دلف على صدى ضحكاتها «أحمد» الذي عاد للتوّ من عند أبيه. قبّل رأس «مريم» وحياهم، وجلس بجوار زوجته «مريم» بعد أن داعب «مروان» قليلًا. يا له من طفل رائع.

لفت «ريم» ساقًا على ساق وتأرجحت على نحوٍ خفيف في أريكتها قبل أن تسأله:

– متى ستبدأ إجازة نصف العام يا «أحمد»؟ تسمح لي أن أناديك بدون

ألقاب؟ أليس كذلك؟

أجابها بتوتر:

- بالطبع فكلّنا أُسرةٌ واحدة. الإجازة ستبدأ بعد أُسبوع إن شاء الله.

قطع الحوار الوليد آنفًا تصاعد رنين هاتف «ريم»، أسرعت لتجيب وهي تقول بدلال:

- أهلًا حبيبي، أين أنت؟ اشتقت إليك.

-....

- حقًّا! إذًا سأستعد حالًا يا روحي.

-......

- طبعًا سأرتديه، أعلم أنّك تُحبّه.

-....

مدّت يدها بالهاتف تجاه السيدة «دولت» وأخبرتها أن «حسام» يريد أن يتحدث إليها، تناولت السيدة «دولت» الهاتف، وكانت تتوقع ما سيقوله لها، «مروان» سيبقى معك يا أُمّي وسأخرج مع «ريم» لنتناول الغذاء معًا. بالطبع لم تعارض، ولم تخبرهم أن ظهرها يؤلمها. أسرعت«ريم» وركضت على الدرج حتى اختفت خلف الباب. تنفّست «فرحة» بعمق فتسرّب عطر

«ريم» النفّاذ لأنفها رغمًا عنها. التفت «أحمد» لزوجته فوجدها شاحبة تتألم، كانت تشكو من دوار شديد. قام معها ليعاونها على التمدد فوق الفراش. بينما جلست السيدة «دولت» تهدهد حفيدها وعلى وجهها علامات القلق. لا تعجبها ملابس زوجة ابنها، كما أن تصرفاتها غير محسوبة. هي تخشى أن تخبر «حسام» مرّة أخرى؛ ليحاول نصح «ريم»، لتغير طريقة ملابسها وتنتبه لدلالها أمام الآخرين؛ لأنه سيغضب. لا بدّ أن «أحمد» سيشمئزّ من تصرفاتها لأنّه خلوق جدًّا. ماذا سيقول عنهم النّاس؟ ابتعلت أفكارها وآثرت الصمت. رفعت «مروان» على كتفها وتمنت أن ينام لأن ظهرها يؤلمها. انتبهت أخيرًا لـ «فرحة» التي كانت تراقب كلّ شيء بعينيها النابهتين فهشّت لها وسألتها بحنان:

- لماذا أنت صامتة؟ هل تحبين الألوان؟ تعالي لننادي على «صلاح»؛ ليشتري لك دفترًا للرسم وعلبة ألوان، ألا تحبين الرسم؟

- أُحبّ الرسم، سأنادي على العمّ «صلاح».

وركضت مخلّفةً وراءها الجدة تهدهد حفيدها بصوتها الحنون، تُردد أُنشودة توارثتها الأجيال..لعلّه ينام..

«نام نام نام، واطبخ لك جوزين حمام»

***

كان الشارع هادئًا وخاليًا من المارّة، حتى أن الكثير من العصافير استقرّت وسكنت على فروع الأشجار المنتشرة هنا وهناك على جانبي الطريق. ارتفع زمور سيّارة «سليمان» وهي تقترب من بوابة البيت فأفزع العصافير الساكنة، طار بعضها هنا وهناك.

– أين «صلاح»؟

قالت «أمّ صلاح» وهي تفتش في الحديقة بعينيها من خلف البوابة الحديدية. اقترب راكضًا وفي يده دفترٌ للرسم وعلبة ألوان. قال وهو يعطيها لأُمّ «فرحة»:

– طلبت السيدة «دولت» منذ قليلٍ أن أشتريهما لـ «فرحة». تناولت «أُمّ فرحة» الدفتر والألوان وهي سعيدة. تعلم أنّ ابنتها تُحبّ الرسم. تذكّرت أن إجازة نصف العام اقتربت، لا بدّ أن تحاول نقل ابنتها لمدرسة قريبة من البيت، ولعلّها تسافر يوم السبت القادم وتصحبها لأداء امتحان نصف العام، ثم تقوم بسحب ملفها والأوراق من مدرستها القديمة بالإسكندرية. كانت سعيدة؛ لأنهما سيبتعدان عن المكان الذي كانتا تعيشان فيه. حياةٌ مرّة قاسية تلك التي كانت تعيشها هي وابنتها، فهي على الدوام تعمل في البيوت، قذرة الملابس خاوية البطن تستمع للشكوى من أصحاب النعم وكأنّهم يخشون الحسد، يقدمون إليهما فضلات موائدهم. أمّا في هذا البيت فهما تأكلان

من نفس طعام أهلِ البيت. فتح «صلاح» بوابة البيت ودلف «سليمان» بسيّارته العتيقة على الممر بهدوء. انتظر في الحديقة وجلس على أحد المقاعد حتى يعود «أُسامة». لم يُحبّ أن يدخل البيت بدون صديقه. كان يهتّم بتلك الأُمور إلى حدّ كبير. حريصٌ هو أكثر من اللازم. لم يكن يعلم أنّ «أحمد» بالبيت، رآه واقفًا في نافذة غرفته التي تُطلُ على الحديقة. كان شاردًا وساكنًا كالصنم. كان حزينًا حتى أنّه لم ينتبه لوجود «سليمان». بعد قليل أقبلت «فرحة» راكضة نحوه لتخبره أن الجدّ يطلب منه أن يلحق به في غُرفة المكتب. أمسكته من يده وبدأت تشدّه ليقوم معها.

- هيا.. هيا.

- هل لديك ذراعٌ قوي؟

- نعم أنا قوية.

- شُدّيني إذًا.

أمسكت «فرحة» بيده وبدأت تشدّه وهي تعضُ على شفتيها بعد أن ثبتت قدميها في الأرض مستجمعة كلّ طاقةٍ لديها ومالت بجسدها للوراء قليلًا، احتقن وجهها وخرج من حلقها صوت مضحك.

- لن تقدري يا «فرحة»، فأنا ثقيلٌ جدًّا.

- لكنّك خفيف الدّم كما يقول الدكتور «أُسامة». أليس كذلك؟

سار معها وكلاهما يضحك بعفوية. انضمّا بعد قليلٍ للجدّ بينما كان يقرأ. كانت تلك المرّة الأولى التي تدخل فيها «فرحة» لغرفة المكتب. وجدت الكثير من الكتب والقصص. فأخذت تتنقل بعينيها على الكتب المصفوفة في الرفوف باحثةً عن قصصٍ للأطفال. خاب رجاؤها فخرجت إلى صالة الاستقبال الواسعة. جلست في نفس المكان الذي كانت الجدّة تهدهد فيه حفيدها قبل أن يستسلم للنوم. وجدت تلك اللعبة التي كانت «ريم» تداعب بها ابنها الصغير ملقاة على الأرض فتناولتها وتفحصّتها بفضول.

في تلك اللحظة فتحت «ريم» باب جناحها وخرجت في كامل زينتها. ارتدت فستانًا أرجوانيًّا ناعمًا انسحب على قوامها فأظهره بمظهر فتّان، كان ثوبًا جميلًا. كانت تختال به. الكلّ يُعجبُ بها ويُحبّها وهي ترتديه. أزاحت الحجاب قليلًا كعادتها وشمّرت الأكمام. ضمّت شفتيها وأطبقتهما لتتأكد من ثبات أحمر الشفاه، عطرُها دغدغ أنف «فرحة» وهي بعيدة عنها بأمتار، تنفّست بعمقٍ مرّة أخرى فقد أعجبها العطر الفاتن. ها هو حذاؤها يعزف سيمفونيته المعتادة على الأرض. غمزت بعينيها لـ«فرحة» وهي تقترب منها قائلةً:

- هل نام «مروان» يا حلوتي؟

ردّت فرحة وهي تراقب شفتيها:

- نعم يا سيدتي، نام فور أن تركتِهِ مع السيدة «دولت».

طبعت «ريم» على خدّها قبلةً خلّفت بقعة حمراء على بشرتها الرقيقة، وقالت وهي تمسح خدّ الصغيرة بأطراف أصابعها:

- أخبريهم أنني خرجت مع «حسام»، وأخبري أُمّ صلاح أن البيت يحتاج للترتيب.

هزّت الصغيرة رأسها وتذكّرت دفترها الجديدَ والألوان. فانسلّت إلى غرفتها بعد أن أبلغتهم الرسالة وبدأت ترسم شيئًا ما. كانت رسمتها عن «ريم»، نفس الفستان الأرجواني، نفس الحذاء، نفس اللون الأحمر على شفتيها، لكنها أحاطتها بخطوط عشوائية شكّلت في النهاية حلقة متقطعة، كانت رسمتها جميلة جدًّا، لولا إطارها القبيح!

***

ببذلته الخضراء الطبيّة الخاصّة وعلى رأسه غطاء يغطي به شعره، بينما اختفى أنفه وفمه خلف الكمامة، كان جبينه يتفصّد عرقًا. أخيرًا انتهى «أُسامة» من تقطيب الجرح، والتفت إلى الدكتور «أمين». مرّت ثلاث

ساعاتٍ وهما في غرفة العمليات، كاد الدكتور «أمين» ينهار من شدّة الإرهاق. أخيرًا سيتمكنا من الجلوس ورفع رأسيهما للأعلى. كانت فقرات رقبته تؤلمه بشدّة.

«لا بدّ أن أُسافر».. همس لنفسه وهو يضع مفتاح السيّارة ليديرها متجهًا إلى البيت. ما زالت فكرة الهجرة تطفو من آن لآخر أمام عينيه. تأخّر الوقت، لم يتمكّن من العودة في موعد الغذاء ليجتمع مع العائلة، حتى أنّ «سليمان» تناول الطعام مع السيدة «دولت» ووالدها و«أحمد» و «مريم»، وعاد لبيته قبل أن يلتقي به بكل أسف. هاتفه فورًا ليعتذر له فهو مرهق جدًّا ويحتاج للنوم. سيزوره غدًا إن شاء الله، وربما يخرجان معًا. كان الطريق هادئًا، انقطاع التيار الكهربائي المتكرر غمر الشوارع بوشاح أسودٍ أرخى السكينة على البيوت. دلف إلى البيت ومعدته تقرقر، كان جائعًا جدًّا. بدّل ملابسه وتناول الطعام على عجلٍ وأسرع ليلحق بأُمّه التي هرولت عندما سمعت صوت حفيدها «مروان». لم يعد والداه حتى الآن. مرّ في طريقه بغرفة المعيشة فوجد «فرحة» تجلس بهدوء أمام التلفاز غير مبالية بما يعرض على الشاشة ويدها على دفتر الرسم. كانت منهمكة في رسم شيء ما. طالع الدفتر وسألها وهو يمسح على رأسها بحنان:

- هل هذا بيتنا؟

حركت رأسها بعفوية مؤكدةً أنّه هو. قال بمرح:

- لماذا كلّ نوافذه مفتوحة؟ نحن في الشتاء والجو بارد، أغلقيها حتى لا نصاب بالبرد.

قالت وما زالت عيناها على دفترها:

- لأنها مفتوحه أمام الجميع.

- ليست مفتوحة!

- بل مفتوحة.. مفتوحة.. مفتوحة.

ابتسم ولم يعلّق، هي طفلة وهكذا الأطفال يتشبثون بآرائهم بعنادٍ شديد. كاد يخرج من الغرفة عندما قالت بعفوية:

- أنتم تستهلكونها.

انزوت ابتسامته، وسألها بفضول:

- ومن هي؟

- السيدة «دولت».

- لم تقولين هذا؟ وهل تعرفين معنى كلمة «تستهلكونها»؟

- هكذا قالت أم صلاح، سمعت تلك الكلمة وهي تقولها لأمّي بالمطبخ.

- ولم قالت أم صلاح تلك الكلمة؟

رفعت الصغيرة قلمها الذي كانت تُلوّن به عن الدفتر، وقالت:

- هي أوّل من يستيقظ، وهي من تهتم بإعداد الطعام، وهي التي تعطي الدواء لجدّك وتحممه وتساعده في ارتداء جوربه، كما تحمل إليه الطعام، وتُنصت إليه طويلًا دون ملل، وهي التي تهاتفك لتطمئن عليك، وهي التي تحمل «مروان»، وكانت تدلّك قدم السيدة «مريم»، وقامت بكيّ القميص للسيّد «أحمد»، وهي التي تكتب كلّ شيءٍ في ورقة ثُمّ تعطي النقود لأُمّي لكي تشتريها من السوق، كما أنّها تعلم موعد حقنة أُم صلاح فهي مريضة بالسّكر، وأهدتني هذا الدفتر والألوان.

ابتسم «أُسامة» وقال باعجاب:

- هي فعلًا تفعل كلّ هذا بحبّ، ونحن جميعًا نُحبّها. وهكذا الأُمّ.

- إذًا لا تصرخ في وجهها كما يصرخ السيد «حُسام»، ولا تبخل عليها بالشكر؛ لأن السيد «أحمد» لا يشكرها أبدًا، ولا تكن كسولًا مثل السيدة «مريم»، ولا أنانيًّا كالسيّدة «ريم».

ثُمّ رفعت رأسها ونظرت إليه ببراءة، كان يطالعها باستغراب فاغرًا فاه، فكلامها يبدو ككلام النساء! رمقته بنظرة فارغةٍ، ثمّ قالت بخجل:

- هل أخطأت؟ أنا آسفة، هذا ما قالته أُمّي اليوم لأمّ صلاح.

أرخى ملامح وجهه ليطمئنها، فمهما قالت هي صغيرة، ولعلّ كثرة جلوسها بين أمّها وأم صلاح بالمطبخ هي السبب، قال برويّة:

- لا عليكِ، ولكن أرجو أن لا تخبري أحدًا بهذا الكلام، فليكن هذا سرّنا..اتفقنا؟

- اتفقنا.

عادت لدفترها، وقلبت الصفحة مستشرفة صفحة جديدةً بيضاء، وقالت بمرح:

- سأرسم السيدة «دولت» الآن فأنا أُحبّها جدًّا.

هزّ رأسه موافقًا ومعجبًا بذكائها، يبدو أنّها قويّة الملاحظة، أو ربما تنصت لكلام أُمّها بتركيز شديد. في الحقيقة ما قالته كلّه صحيح، هم يستهلكونها. على إثر ذاك الحوار أسرع حيث كانت تئنّ أُمّه من آلام ظهرها وتتوجع بيد أنّها لم تظهر هذا له، وسريعًا ما رسمت ابتسامة حالمة وهي ترفع إليه حفيدها الحبيب الذي استيقظ منذ قليل وبدأ يبكي باحثًا عن أمّه.

- مرحبًا أيّها القطّ الصغير... قالها وهو يقذف «مروان» في الهواء. راح الصغير يضحك ودموعه ما زالت على خدّه في براءة.

في تلك اللحظة كانت «فرحة» ترسم شمسًا كبيرة على وشك الغروب، لوّنتها بلون أحمر قاني وقرّبتها من خطّ الأُفق فوق سطح البحر. كان لقرص الشمس هالة ذهبية مشعّة، لكنّها ألقت بالقلم وأمسكت بالممحاة، ثُمّ بدأت تمسح الهالة المحيطة بقرص الشمس وهي حزينة.

***

حفنة من النجوم كانت تراقب الطرقات والعابرين في هدءات الليل المعتمة. مضى الليل إلّا أقلّه ولم يبق إلّا انحسار الغطاء عن جبين الفجر. كانت رأسها على الوسادة وعيناها مفتوحتان تحدّق في الظلام بحثًا عن بقعة أمل مضيئة. أقبلت الأفكار كالمطر يفرغ إفراغًا دفعة من غير تلبث. خطواتها للماضي الذي كانت تعيشه أيام صباها الأولى مع «مريم» و«أُسامة» هنا أو هناك أسرع من التفاتاتها للحاضر الذي تعيشه. كانت «ريتال» جميلة إذا رمقت فيها الطرف جال. لكنّ «أُسامة» كان يمرّر عينيه على وجهها كما يمرّرهما على كتابٍ لا يُريد قراءته. من فرط جمالها الهاديء كانت نظرتها ذات شعاع. ذاك الشعاع الذي ينفذ إلى القلب بلا استئذان. فمتى سيفتح لها قلبه؟

- «ريتال»، هل أنت نائمة؟

- لا يا «يُوسف»، ماذا تريد؟

جال في الغرفة لبرهة ثُمّ اقترب منها...

- أُريد أن أتحدث معك قليلًا.

أشعلت «ريتال» المصباح واعتدلت في فراشها، وأفسحت مكانًا لأخيها ليجلس بجوارها. بدت عليه الحيرة الشديدة، كان يتلعثم في كلامه محاولًا أن يقول شيئًا ما. كاد يخرج من غرفتها بعد أن تحدّث عن أشياء تافهة، أدركت أن هناك ما يقلقه فأمسكت بذراعه قبل أن يخرج، وقالت بصوت خفيض:

- ما الذي يقلقك؟

- أُريدُ أن أخطب «سارة».

التفتت إليه ورفعت حاجبيها باندهاشٍ، وقالت:

- سارة! إنها أكبر منك بعامين!

هزّ كتفيه في لا مبالاةٍ، وقال:

- وما في ذلك؟ لا يهمني هذا الأمر.

استطرد في عدم اكتراثٍ، وقال:

- لا يبدو عليها عمرها الحقيقي، وأنا أبدو أكبر لأنّني ضخمٌ وقامتي طويلة.

كان «يُوسف» بالفعل طويل القامة مجدول الذراعين، تباعد منكباه وترامى بينهما صدرٌ مصفّح. يبدو وكأنّه أكبر من عمره الحقيقي بأعوام. رمشت «ريتال» بعينيها العسليتين، وقالت:

- يقولون إن التجاعيد تظهر على وجه المرأة قبل الرجل، لهذا ينصحون بأن تكون الزوجة أصغر حتى لا تظهر عليها مظاهر تقدّم العمر بسرعة. وأنّ المتاعب تظهر بعد سنوات، عندما يتخطيا الأربعين. ربّما تندم مستقبلًا عندما تظهر عليها علامات الزمن وأنت لا. فتبحث عن غيرها وتؤلمها.

- لن أفعل، فأنا حقًّا أُحبّها.

- وهل هي ستوافق؟

رفعت «ريتال» حاجبيها في تساؤلٍ، فاستطرد قائلًا وهو يشيح بنظراته في حيرة:

- هذا ما أخشاه.

- ألهذه الدرجة أنت معجب بها؟

أومأ برأسه موافقًا، ثم قال متغلبًا على تردده:

- لا أتخيل حياتي إلّا معها.

أطرقت «ريتال» تفكّر فيما يعتمل في صدر أخيها من مشاعر. فهي

تعلم قدر مرارة الألم. حاولت أن تُخفف عنه؛ فقالت بهدوء:

- فلتبدأ خطوتك الأولى. فكّر جيّدًا وخُذ وقتك وعندما تكون على يقين أنّ «سارة» هي الزوجة التي ستعيش سعيدًا معها، وتتأكد من قرارك بلا تردد فاتحها في الأمر، وامنحها الفرصة لتفكّر وتردّ عليك. وعندما توافق ستبدأ العاصفة.

- أيّ عاصفة!

- أبي وأمي والدكتور «أمين». سيعترض الجميع بلا شكّ.

سرح بنظراته، ثمّ قال:

- الخطوة الأولى انتهيت منها بالفعل. لا بدّ أن أعرف رأيها. ما رأيك أن تزوريها بالمستشفى، وتسأليها؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أُريد الذهاب إلى المستشفى.

- لماذا!

- هو كذلك، بلا سبب.

قال بنبرة أسيفة، وهو يستدير مغادرًا الغرفة في ارتباك:

- كنت أعلم أنّك لن تساعديني.

لحقت به وهمست:

- ما رأيك أن تطلب من «أسامة» أن يسألها؟

- سأحاول.

- أو أخبرها أنت بنفسك.

- لا.. لا أستطيع.

عادت «ريتال» إلى غرفتها لتتكيء على شرفة الفجر وتراقب خطى النور، وهروب الظلام من الثقوب. «اللهم لا تعلّق قلبي بشىء لم تكتبه لي» همست قبل أن تُحدّق مرّة أخرى في الفراغ. سيذهبون جميعًا غدًا لزيارة بيت جدّها وللاطمئنان على «مريم» لأنّها مريضة، فقد أوهنها الحمل بشدّة. غدًا الجمعة سيكون «أُسامة» هناك، ماذا ستفعل؟ لن تجلس معه في نفس الغرفة، ولن تنظر إليه، ولن تتحدث معه، نعم. ستغلق عينيها وكأنّها لا تراه. ولكن كيف ستغلق قلبها!

***

كان الحيّ هادئًا كعادته في أيّام الجُمعة، أمّا بيت الجدّ فلم يكُن هادئًا أبدًا. وقفت «فرحة» تتأمّل لوحة زيتية كبيرة بإطارٍ مذهّب تتوسط الجدار الرئيسي معلقة فوق أريكة وثيرة وفخمة أُلقي عليها بأناقةٍ زرابيٌّ مزركشة

ومطرزة بخيوطٍ من حرير. كانت اللوحة تحيّرها، فهي لقصرٍ كبيرٍ وفخمٍ جدًّا يُشبه بيت الجدّ كثيرًا، لكنّ النوافذ في اللوحة كانت كلّها مُغلقة! «لماذا كلّها مغلقة؟» كان السؤال يتردد في رأسها، أمّا الأشجار التي تحيط بالبيت بدت وكأنّها تحرسه، حتى حفنة الأزهار التي نُثرت في الحديقة بدت وكأنّها تحلّقت حوله لتزيّنه، في السماء فوق هذا القصر مباشرةً هناك انعكاس لألوان اللوحة يبدو لمن يرامق اللوحة من بعيدٍ وكأنّه هالةٌ من نور! قرّبت عينيها من طرفِ اللوحة وحملقت فيه محاولةً قراءة توقيع رسّام اللوحة. أعجبها كثيرًا خطّه، وقررت أن توقّع لوحاتها مثله. لا بدّ أن تسأل عنه الجدّ فالسيّدة «دولت» أخبرتها أنّ تلك اللوحة كانت هديّة من شابٍ رائع ووفنانٍ موهوب، رسمها خصيصًا له. جلست قليلًا على درج خشبيٍّ حلزوني فخمٍ يفصل بين الطابق العلوي والسفلي، التقط عليه حسام وزوجته الكثيرَ من الصور، فكلاهما يهتم بالمظاهر كثيرًا. كانوا جميعًا هناك.. وكانت تُنصت إليهم وهم يتحدّثون.

- لقد ازداد وزنك قليلًا يا «حُسام».

قالها «سليمان» ممازحًا «حسام» بينما كان «أُسامة» يوزع على الجميع أكواب الشاي.

- ماذا ستسمينها إن كانت أُنثى؟. قالت «ريم» موجهة سؤالها لـ«مريم»

التي كانت تشعر بدوار وألم في معدتها. والتي قالت بابتسامة واهنة:

- أظنّه ذكر بإذن الله، هكذا قال الطبيب والله أعلم.

- كلاهما نعمة.

رفع السيد «كمال» صوته ليُسمعها من بعيد. كان «أحمد» يتمنى أن تنجب له زوجته ذكرًا. أراد أن يطلق عليه اسمًا غريبًا. ما زال يبحث عن اسم مميز. لم يعجبه اسم حتى الآن.

- ألمٌ كالنقر أشعر به في تلك الجهة من صدري يلازمني طوال الليل. قال الخال «كمال» موجهًا كلامه لابن شقيقته «أُسامة» الذي اتكأ على كتف «يوسف»، وكلاهما ينصت لشكواه باهتمام.

- صنعت لنا «ريتال» كعكة شهيةً جدًّا يا «دولت»، أظنّها تُحسن صنع الحلويات كعمتها. ابتسمت «زينب» وهي توجه كلامها لشقيقة زوجها «دولت» التي كانت تحمل حفيدها وتربّت على ظهره لينام.

مرّت «فرحة» من أمامهم بسرعة خاطفة، أرادت أن تجلس بجوار «ريتال» التي فور أن علمت بظروفها خرجت واشترت لها ثوبين. همست في أُذنها وهي تخبيء فمها بكفّها وترقب الجميع بطرفٍ خفي:

- الملابس جميلة، شكرًا لكِ سيّدتي.

- هل أعجبتكِ يا «فرحة»؟

- نعم وأعجبني الفستان الأزرق، أمّي ستشتري لي حذاء جديدًا يليق به.

- جميل جدًّا.

- سأرسمك الآن.

ابتسمت بخجل ثُمّ أسرعت إلى المطبخ حيث دفترها وألوانها وبدأت ترسم.

- أُريد أن أتمدد على الفراش فأنا متعبة، تعاليا معي إلى غرفتي.

قالت «مريم» وهي تستند على كتف «ريم» و «ريتال»؛ لتنهض بصعوبة موجهةً كلامها لهما:

- خذوا معكم «مروان». قالت السيدة «دولت» وهي تناول حفيدها لأُمّه لتضعه في الفراش.

- سأخرج الآن للقاء زميلي وأعود بعد ساعة.

قالها «يوسف» وهو يغادر البيت بعد أن رنّ هاتفه الجوّال.

- أين الشاي؟ لا نعترف بالكوب الأول.

قالها «حسام» فسارعت أُمّه بالرّد:

- اصبر قليلًا وسأعدّه أنا، فأمّ صلاح وأمّ فرحة يعملان في المطبخ منذ الصباح.

أشار «كمال» لابنته «ريتال» أن تنتظر لتحمل أكواب الشاي الفارغة إلى المطبخ، وأخبرها أن تُعدّ الشاي، جمعت «ريتال» الأكواب وأطباق الحلوى الفارغة ثُمّ حملتها وسارت بتؤدة، لكنّها كانت متوترة؛ لأنّها ستضطر للمرور أمام «أُسامة» في طريقها إلى المطبخ، فالتوت قدمها وسقطت وطاحت الأكواب، وانتشر الزجاج هنا وهناك. جرحت كفّها اليمنى جرحًا عميقًا وسال دمها. صرخت صرخة مكتومة وأسرع والدها إليها مع «أُسامة» الذي أمسك يدها فورًا ليتفحّص الجرح بعفوية الطبيب، وقال:

- جرح عميق. لا بدّ أن أقطّبه حالًا.

جذبت يدها بعصبية، وقالت:

- لا. سيقطّبه أخي «يوسف»، هاتفه حالًا يا أبي.

- دمك يسيل من يدك يا ابنتي!

انبعثت تتكلّم باكية بصوتٍ عالٍ مضطرب:

- أعلم ولكن.. أُريد أخي.

بحزم شديد ودون أن يلتفت لكلامها قال «أُسامة»:

- سأُحضر أدواتي، وأُريد مصباحًا قويًّا؛ لأتأكد من خلو الجرح من قطع الزجاج الصغيرة.

أسرع «حسام» بإحضار مصباح قوي، وقرّب إليهم طاولة مرتفعة. همس أبوها في أُذنها بكلمات هدّأتها «أنا معكِ يا ابنتي ولا تنسي أنّه طبيب» وربّت على كتفها بحنان وضغط عليه مواسيًا. ثُمّ أمسك بكفّها ومدّها أمام «أُسامة». رمشت كثيرًا بين دموعها وابيضت شفتاها. حقن «أُسامة» كفّها بمخدّر، وبدأ ينظّف الجرح قبل أن يقطّبه. لم يُدرك أنّه يقطّب جرحًا ويفتح جرحًا آخر. كانت تتألم وتبكي على كتف أبيها. لم تُحبّ أن تقترب من «أُسامة» لتلك الدرجة المؤلمة. تركت دموعها تسيل على وجنتيها، دموع تختلط بدموعٍ كلاهما مذاقه مرّ. فهي تتوجع مرّتين. كانت تنحني على قلبها حتى يداني وجهها الأرض. تعتدل وتنظر إليه فينشقُّ فؤادها فتلملمه بانحناءة أخرى مرسلة عينيها تُمطر مطرًا. انتهى أخيرًا ولفّ كفّها بضمادة سميكة. رمقها بنظرة رحيمة، وقال بصوت مرّ على صدره بحذرٍ قبل أن يخرج على لسانه:

- سلّمك الله يا «ريتال».

- شكرًا لك.

ما إن انتهى من تقطيب جرحها، هرعت وسحبت كفّها وضمّتها على صدرها، وانزوت متكورة على الأريكة بجوار أُمّها.

في تلك اللحظة تصاعد رنين هاتف «أُسامة». طالع الشاشة فظهر

اسم «توفيق» موظف الاستقبال الذي التقى به في الفندق الذي أقام به في الإسكندرية. أخبره أنّه في ورطة فهو لم يُسدد ديونًا تراكمت عليه، والآن يهدده المدين بوصل أمانةٍ إمّا أن يسُدّ الدين أو يحبسه. استنجد به ليقرضه المبلغ في المحطة على عجل، وكان المبلغ بسيطًا بالنسبة لـ «أُسامة».

– لا تحمل همًّا، أخبره «أسامة» ليطمئنه بينما ينهض فقد شعر بعطفةٍ شديدةٍ تجاهه، وطمأنه أنّه سيمدّه بالمال واتفقا على اللقاء في محطة القطار بعد ساعات قليلة ليسلمه المال.

أنهى «أُسامة» المكالمة ونادى على أُمّه، همس بأذنها أن الوقت قد حان، فقد حسم الأمر، وطلب منها أن تخطب له «ريتال» من خاله بينما يذهب هو للقاء «توفيق». أن يُغرم بك شخصٌ ما فذاك رائعٌ جدًّا. وأن تكون على يقينٍ أنّه مُغرمٌ بك فذاك أروع. تداعت إلى باله سنوات دراسته الجامعية. في تلك الفترة كان سعيدًا وكان لا يزالُ لا مباليًا. لم يعلق قلبه بفتاةٍ قطّ. وكأنّ قلبه كان محجوبًا بشكلٍ ما.

صار يتململ في جلسته مع العائلة ينتظر مكالمة من «توفيق» عندما يصل القطار. ففور أن ينصرف ستتخذ أُمّه الخطوة الأولى لتتشكل حياته القادمة، كانت دقّات قلبه تتسارع كلما وقعت عيناه عليها، كلّما مرّت قريبًا منه، كلّما نطق أحدهم مناديًا عليها. «ريتال»، لا يدري لماذا كان يهرب منها!

السادسة والنصف مساءً، وصل القطار وتسلّم «توفيق» المال بعد أن أطلع «أُسامة» على الأوراق، وكان يُقسم له أنّه لا يكذب. ما زال لا يُصدّق أنّه ساعده بتلك السهولة!

على الطريق كانت سيّارة «أُسامة» تصدر أزيزًا مرتفعًا كعادتها، لم يكن هناك في ذلك اليوم سوى رائحة الزهور التي انتشرت وكأنّ السماء أمطرت مِسكًا فتعطر كل شيء. غيّرت الرياح اتجاهها فجأة متجهة صوب الشمال، ثم تضاءلت تدريجيًّا، فكان الجوّ منعشًا ولطيفًا ومشرقًا عكس الأيّام السابقة حتى أنه قد خلع سترته قبل أن ينصرف من البيت. كان يقود سيّارته وهي تشق طريقها ضد تيار الهواء، يُفكّر في «ريتال»، يشعر بحنين كبير إليها، يريدُ أن يتحدّث معها. كان يتذكّر عذوبة تلك اللحظة عندما التقت عيناهما وهو يقطّب الجرح. ضوت على ثغره ابتسامة عندما تذكّرها وهي تسحب يدها كقطة صغيرة تهرع لحضن أُمّها فور أن انتهى من تضميد كفّها المجروح. اختلج قلبه في صدره، لا بدّ أن يعود للبيت بسرعة. ارتفع صوت منبه السرعة فقد تجاوز السرعة القصوى مرّة أخرى. قلل من سرعته التزامًا بالقسم الذي جعلته أُمّه يقسمه أمامها قبل أن يغادر البيت للقاء «توفيق».

ظهرت أمامه فجأة سيّارة مقبلة من الاتجاه المعاكس. كرّس كلّ جهده لإدارة المقود تجاه اليمين. تحاشى- في آخر لحظة- السيّارة المقبلة.

ثُمّ ضغط بقدمه على مِدْوس التوقيف فاصطدم بسيارة أخرى، ثم دارت سيارته في الهواء وشعر بطرقة شديدة على رأسه، كان لا يستطيع تحريك يديه وهناك سائل دافئ يسيل على ذراعه. شعر بألم شديد في رأسه. ابتلعه الظلام وشعر أنه يسقط في مكان عميق.

***

٩

ثقلٌ في جسده وكأنّ أكياسًا ممتلئة بالرمال مربوطة في أطرافه الأربعة. شعر بالهوان والضعف. صوت الصفير يخترق أذنه ولا يتوقف أبدًا. أنفاسه بطيئة وكأنه يتنفس من ثقب إبرة. رأسه تميل إلى الخلف ويتملكه شعور غريب. الفزع قابع على صدره. ترى أين هو الآن؟ عقله يتجمّد ويتخدّر. هناك شيء ما يسيطر على إرادته ويتحكم في أوصاله، فما عاد قادرًا على فتح عينيه أو تحريك لسانه في فمه! وكأنّه يحلم أو ربما هو في المرحلة قبل الاستيقاظ من كابوس مقيت. أصواتٌ تأتي من بعيد. يد أمه تتحسس جبينه وهي ترتجف. أحسّ بدمعة من عينيها على خده. سمعها تبسمل وتحوقل وتستغفر الله.

إنها تبكي وخاله يصيح بصوت يرتجف! هناك من يتحدث باللغة الإنجليزية، ويتمتم بأسماء أدوية. كان يعرف تلك الأسماء ويشم الآن رائحة الدواء، يبدو أنه في المستشفى.

كان يشعر بوخز أصابعهم في جسده كلّه. تناهى إلى سمعه صوت

عجلات السرير النقال الذي كانوا يحملونه عليه، لينقلوه إلى غرفة أخرى. سيجرون له أشعة مقطعية على رأسه. استسلم لهم، وقد كان بالفعل مستسلمًا رغم أنفه. فلا حيلة له وهو عاجز عن إخبارهم أنّه يسمعهم.

أعادوه بعد ساعة لغرفته، حاول أن يفهم تلك المصطلحات الطبية التي يكررونها وهم يتناقشون عن حالته، فهو طبيب ويُدرك خطورة الأمر لا ريب. كانوا ثلاثة، «يوسف»، و»سارة»، والدكتور «أمين». انتهى النقاش بالدعاء لأمه بالثبات والصبر، فشعر بانكسار نفسي وبكى. شعر بضجة في الغرفة، لقد لاحظوا دموعه. وها هو أحدهم يتحسسها بأصابعه الحانية، هدأت أصواتهم بعد قليل، وتركوه مرّة أخرى. سينام الآن، سينام.

مر وقت طويل قبل أن يستيقظ على صوت جهاز قياس معدل نبضات القلب، الآن بدأ رنينه ينتظم ثُمّ انخفض الصوت، أو ربما اعتادت أذناه عليه. ما زالت عيناه مغلقتين ولا يستطيع تحريك لسانه. أنصت فإذا بصوت باب الغرفة يُفتح حيث دلف شخص ما. صوت أنثوي رقيق، هي الدكتورة «سارة» إذًا. أمسكت بيده وبدأت تحقنه بعقار ما شعر به وهو يتدفق في عروقه.

سمع صوت خطوات ثقيلة، ثم تبعها صوت باب الغرفة وهو يفتح مرّة أخرى. هذه المرّة كان صوتًا لشخصٍ آخر، بعد لحظاتٍ كانت همهماته

قريبة من أذنه. حركات سريعة، وأصوات مختلطة ميّز من بينها صوت صديقه «سليمان»، ثم صوت شارة حاسوبه النقال وهو يديره. صوت غلايته التي يضعها على مكتبه، وها هو صوت خروشة البسكويت الذي يتناوله دائمًا، بل هو يشمّ رائحته! ربّما بدأ يهلوس!

غرقت الغرفة في سكون عميق، وانتظمت أنفاس الرجل الذي لم يتعرّف على صوته بعد. لقد وضع رأسه قريبًا منه، يبدو أنه يجلس بجوار فراشه، فأنفاسه تلامس أذنه. ويشعر بحرارة يده على جبينه. ماذا يفعل!

حاول أن يصرخ لكنّه لم يقدر.

بعد لحظات فتح عينيه والتفت حوله فوجد نفسه في مكان عجيب، غرفة خالية، جدرانها مصمتة، ليس لها باب ولا نافذة واحدة. شعر باختناق عندما تأملها. بدأ تدريجيًّا يشعر بذراعه، ثم رأى كفيه أمام عينيه، مسح وجهه بهما ثم تحسس صدره وساقيه. ورفع يده إلى رأسه ليتأكد أنّه سليم. هل مات؟ لم يتوقع أنه سيموت الآن! هل حقًّا لن يعود؟

لم يفعل شيئًا بعد. لم يعش حياته كما خطط لها، لم يحقق طموحه العلمي، لم يتزوج الفتاة التي يُحبّها، لم ينجب طفلًا حلوًا تقرّ عينه به. لم يُحسن لأمّه ويشكرها حتى ترضى عنه. لم يقرأ القرآن كما ينبغي، لم يصلّ تلك الصلاة التي تخشع جوارحه فيها حتى تنهمر دموعه من خشية الله. لم

يرتج صوته بالآيات وتتصدّع نفسه. لم يلمس الكعبة ويطوف حولها. لم يفعل شيئًا يطمئن به ويشفع له. لم يتُب من ذنوبه بعد، لم يتُب بعد.

أين الطريق؟ هل هذا هو القبر؟

مرت دقائق ثمّ بدأ الحائط الذي أمامه مباشرة يتغير، وكأن جزءًا منه صار هشًّا وضعيفًا. بدأ يقترب منه ووضع يده وتحسسه بحرص، ثم دفعه بلطف فإذا به ينهار ويتلاشى. وظهر أمامه سرداب طويل ليس له نهاية، ثمّة ضوء قويّ لكنّه حاني. تسللت خيوط الضوء وانحدرت على أرض الغرفة أمامه. تسارعت أنفاسه. سَرت رجفة في جسده كلّه. أخرج قدمه وتحسس الأرض، ثُمّ خطا خطوة واحدة وانحنى ليلمس الرمال المبتلّة بكفه. خرج من الغرفة يغمره الخوف وصوت غريبٌ يرتج في صدره.

- عُد إليه.

تحسس صدره بوجلٍ وهمس محدّثًا ذلك الصوت:

- من هو؟

انبثق وميضٌ أبيض من صدره حيث كان يضع يده. ثمّ حلّق طائر بديع وظلّ يخفق بجناحيه العاصفين. وأطلق صيحة طويلة عذبةً وشجيّة فاستأنس بها «أُسامة». كان المكان هادئًا لكنّه بارد جدًّا.

صدر صوتٌ قوي بكلمة واحدة سرى صداها في المكان حوله:

- الله.

أصابته قشعريرة عندما بدأ الطريق ينحني به موازيًا لانحناء نهر قريب. بدأ يشعر بالوحشة مجددًا عندما سمع صوت الرعد فجأة، وتلاه سقوط مطر خفيف، انسلّ بين الأشجار بسرعة، كان ينصت ويترقب.

رأى كوخًا أمامه فاقترب منه، وكان أمامه درج حجري اكتست جوانبه بالعشب الأخضر نتيجة الإهمال. صعد بحذر، ووقف يخفق الباب خفقًا ضعيفًا فيده قد صارت كقطعة من الثلج. سرت قشعريرة في جسده لا يدري خوفًا أم بردًا! فبدأ يفرك كفيه من شدّة الصقيع الذي احتواه. بعد قليل فتحت الباب امرأة عجوز مزرية المظهر تمسح على ثوبها بيديها، عيناها مظلمتان وكأنهما بئران عميقان وكئيبان. تأملته في ريبة، أجفل منها لكنّه دلف عندما رأى «فرحة» داخل الكوخ فاقترب منها، كانت مطمئنّة ومستلقية على بساط قديم مهترىء الأطراف، وأمامها دفتر الرسم وعلبة الألوان، كانت ترسم شيئًا ما. طوق مستدير، أو حلقة كبيرة!، فور أن رأته رفعت دفترها أمام عينيه، وهي تركض نحوه، وقالت:

- انظر، لقد عرفت السرّ!

تمعّن في رسمتها فأضاءت الحلقة المرسومة على الورقة، وبدأ يظهر بداخلها ظلّ لشيءٍ ما. وكأنّه بيتُ جدّه! سألها وهو يخفي عينيه من وهج الضوء الذي كان يزيد:

- ما هذا؟!

قالت بصوتٍ تردد صداه في أُذنيه:

- «الهالة المقدّسة»

ثُم تغيرت ملامحها فجأة وألقت دفترها على الأرض فتحطّم الدّفتر وكأنّه من زجاج وليس من ورق! وتبعثرت قطع الهالة المضيئة بعد تهشّمها على الأرض، صاحت «فرحة» بفزعٍ وهي تشدّه من ذراعه:

- لا بدّ أن تعود.

فتحت الباب وخرجت من الكوخ ثُمّ استدارت وأشارت إليه ليتبعها. فسار مُبطئًا في البداية، ثُمّ بدأ يركض، ويركض، ويركض حتى تسارعت أنفاسه.

- «أُسامة»، هل تسمعني؟

إنه...إنه.. ذاك صوت الذي يعرفه! حاول أن يجيبه لكنه لم يتمكن.

- «أسامة»، افتح عينيك أو حرك أصبعك إن كنت تسمعنا.

صوت آخر يعرفه!

- سيستعيد وعيه تدريجيًّا إن شاء الله.

قالها أحدهم، لكنّه.. لم يتعرف على صوته!

صفير في أذنه. شعر بهبوط، أنفاسه تُسحب من صدره. هناك أصابع تتحسس نبضه.

- لقد بدأ ينخفض ضغطه.

قالها آخر وهو يفتح الصمام ليفرغ الهواء، ويزيلُ جهاز الضغط عن ذراع «أُسامة».

شيء بارد يتدفق في أوردة يده. يشعر الآن بملمس ملاءة السرير المُمدد عليه. تحسسها بطرف سبابته، ثم حركه وبدأ يجاهد لكي يفتح عينيه.

ضوء قوي يتلاعب أمام مقلتيه، من بعيد رأى وجهه المستدير وعيناه الضيقتان وهو يمسك بمصباح ويسلطه على عينيه بينما يرفع جفنه بإبهامه، إنه الدكتور »أمين» الذي قال باسمًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

- أين أنا؟ هكذا خرجت منه أول كلمات بتلقائية، كلمتان فقط لكنهما تعنيان لمن حوله الكثير.. بل ربما تعنيان حياته.

بالتدريج بدأت وجوههم تتبيّن له. لم يترك الدكتور »أمين« يده للحظة واحدة. كانت على وجهه ابتسامة خافتة، وبدا على وجهه الإرهاق والقلق.

من بعيد ومن خلف الزجاج الرواق الخارجي رأى وجه أمه. كانت تبكي بينما كانت ذراع «حسام» تحيط بكتفيها بحنان، خاله أيضًا كان يبكي.

- ما الذي حدث؟

شعر بيدٍ باردة تلمس خدّه الأيسر فالتفتَ بصعوبة ليجد «يوسف» بجواره. مرّت ساعتان كاملتان وربما أكثر. قاموا بالعديد من الأشعات، والتخطيطات، وتم فحصه أكثر من مرّة. وأخيرًا تمكن من استعادة وعيه وتركيزه ليسألهم مرّة أخرى عمّا حدث. كان يتمدد في فراشه متعبًا مرهقًا عندما بدأ دكتور «أمين» يشرح له كلّ شيء بالتفصيل:

-كان حادثًا مؤلمًا، تعرّضت لصدمة في جمجمتك أدّت إلى رَضٍّ دماغي شديدٍ مع تجمع دموي كان يضغط على الدماغ فتزايد الضغط الداخلي للجمجمة، وتوقعنا أنّك ستكون في غيبوبة لوقت طويل، في الحقيقة كدنا نيأس لولا رحمة الله بك. شُجّت رأسك وتلقيت العديد من الصدمات. جسدك ممتلئ بالرضوض والكدمات. ساقك مكسورة، لقد نجوت بأُعجوبة. حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

- الحمد لله.

- يبدو أننا سنستضيفك بالمستشفى معنا لفترةٍ طويلة، حتى يلتئم الكسر في ساقك اليسرى وتتعافى بإذن الله، كما أن هناك عدّة جروح تحتاج إلى عناية.

اكتظّت الغرفة بالزوار، اجتمع الزملاء ينثني بعضهم على بعضٍ لينظروا إليه، الكلّ أتى ليسأل عن «أُسامة». مرّت به «ريتال» سريعًا مع أُمّها وأبيها. تساءل في نفسه هل أخبرتها أُمّه بأمر الخطبة أم لا. نظرة خاطفة علقت بقلبها لكنّها لم تتمكن من البقاء طويلًا، فقد كان المكان مزدحمًا برفاقه. كان متعبًا ونام كثيرًا، استوى عنده الليل والنّهار. مرّ الأُسبوع الأول وهو يعاني من صداعٍ متواصل، وألم شديد في كلّ عظام جسده. لازمه شعور دائمٌ بالخوف! لم يتخلّص منه طوال مدّة إقامته بالمستشفى وحتى وهو يستعدّ للعودة إلى البيت الكبير مع أُمّه التي لم تفارقه أبدًا. وكأنّها تخشى أن يباغتها الفراق ثانية.

***

ألقت حقيبتها وركضت نحو غرفة المعيشةِ حيث كان يجلس فور أن عادت من المدرسة. كانت تشتاق إليه، فهي تُحبّه بشدّة. وقفت أمامه وأزاحت خصلات الشعر القصيرة المنسدلة برقّة على جانب عينها، وأسندت راحتيها على خصرها، ثُمّ طالعته بنظرة تشي باللوم والتأنيب، وقالت:

- لماذا تأخرت؟

ابتسم بودّ، وقال لها:

- أوحشتِني يا «فرحة». ملابسك جميلة جدًّا، وجدائلك رائعة.

تجاهلت مدحه لمظهرها رغم أنّ هذا كان يسعدها كثيرًا. طالعته مجددًا بعينيها الماكرتين، وأردفت قائلة:

- غبت عن البيت لأسابيع طويلة، وحدث فيهم الكثير. كان لا بدّ أن تعود مبكّرًا.

- سأُحاول أن أعود.

غضنت حاجبيها، وقالت:

- لكنك عُدت بالفعل! ما بك؟ أنت بخير، أليس كذلك؟

رد بنظرة شاردة:

- أنا بخير لكنني، لم أعد إليه بعد.

- من هو؟

صمت لوهلة محاولًا أن يلملم أنفاسه المتعثّرة، ويتغلّب على الرهبة التي اجتاحت صدره. أردفت قائلةً وهي تعلّق نظراتها بنظراته:

- ظننتك ستموت؟

أجفل قليلًا ثُمّ انتبه لكونها يتيمة، فحاول أن يصرف الحديث عن الموت وقال يلاطفها:

- ذهبتِ إذًا إلى المدرسة؟

- نعم سافرنا يومين قبل إجازة نصف العام، واجتزت الامتحانات وعدنا بعدها. نقلتني أمّي لمدرسةٍ قريبةٍ من بيتكم منذ يومين. أحضرت لي الآنسة «ريتال» حقيبة جديدة، وأخبرتني أنّك كنت ستُحبُّ أن تفعل هذا بنفسِك.

- ابتسمت الصغيرة عندما لاحظت التفاتته عندما ذكرت اسم «ريتال»، فأردفت بمكرٍ قائلة له:

- أخبرتنا السيّدة «دولت» أن الآنسة «ريتال» كانت تبكي من أجلك كثيرًا. سبق أن أَخبرتُك فقد زرتك مرّة بالمستشفى لكنّك كُنت نائمًا، ألم تسمعني؟

- آسف؛ لأنني كنت نائمًا عندما زرتني يا «فرحة»، هل كنتِ تتحدثين إليّ وأنا نائم؟

- نعم، وأخبرتك بما حدث على سطح البيت.

- وماذا حدث؟

- ألم تسمعني!

- لا.

- ما زالت النوافذ مفتوحة. إنّه يراقبها.

- من هو؟ ومن هي التي يراقبها؟

رمشت بعينيها ثُمّ أشاحت بوجهها عنه، وعادت تنظر إليه بريبةٍ، وقالت:

- أخبرتني أُمّي أن لا أحكي، فالفتاة الخلوقة لا تُفشي الأسرار. أليس كذلك؟

أومأ برأسه موافقًا لها، فأسرعت تسأله:

- هل من الممكن أن أسألك سؤالًا؟

- تفضلي.

- لماذا السيدة «مريم» حزينة؟

- ليست حزينة. وإنّما هي مريضة؛ لأنّها حامل.

- لا إنّها حزينة..حزينة..حزينة.

- ما زلت عنيدة يا «فرحة».

- لست عنيدة.

- بل أنتِ عنيدة..عنيدة..عنيدة.

ضحكت «فرحة» عندما قلّدها، ثمّ قطعت ضحكاتها فجأة، وقالت وهي تركز نظراتها على عينيه:

- السيّدة «مريم» حزينة لأنّها تحبّه، لكنّه لا يُحبّها.

- من تقصدين؟ «أحمد»؟

قالت بصوتٍ خافت:

- أُمّي ستضربني، أخبرتني أنكم ستطردوننا من البيت.

- لن نطردكم يا «فرحة».

هربت منه وهي تجرّ حقيبتها المدرسية وتتلفّت وكأنّها ارتكبت جريمة. بدأ القلق يستبد به وقام يعرج متكئًا على عكازاته إلى حيث كانت ترقد أخته. ما زالت ساقه تؤلمه. كانت غرفتها في رُكنٍ هاديء من المنزل. تلك الجهة التي تقع أسفل الجناح العلوي الذي يقيم فيه «حسام». حتى أن غرفتها تقع تمامًا أسفل غرفة حسام وزوجته. كثيرًا ما كانت تسمع بُكاء «مروان» عندما يستيقظ ليلًا. حتى سعال شقيقها كانت تسمعه. اقترب من فراشها ومسح على جبينها بحنان ففتحت عينيها وابتسمت بوهن، وهي تقول:

- كيف أنت الآن يا «أُسامة»؟

استدار ليجلس فخرجت منه ندّة ألم، وهو يحاول أن ينثني على المقعد، قال وهو يجزّ على أسنانه:

- بخير الحمد لله.

- هل تتألم؟

- ساقي تؤلمني كثيرًا، لكنني أتحمّل. أمّا ما يضايقني فعلًا فهو شعوري الدائم بالرهبة والخوف.

ربّتت على كفّه بحنانٍ وسألته:

- وممّ تخاف يا أخي؟

- لا أدري.

تبسّمت وقالت وهي ترمقه بلطف:

- أتذكُر عندما كُنّا نغني معًا بصوتٍ عالٍ عندما كُنّا نخاف ونحن صغار؟

- نعم. أذكُر.

ثم اقترب من وجهها فاستطاع أن يعاين عن كثب تلك الظلال الرمادية التي كانت أسفل عينيها، وسألها بإشفاق:

- لماذا أنتِ حزينة؟

- أنا بخير يا «أُسامة»، لا تقلق.

- أشعر أنّ هناك شيئًا ما تخفينه عنّي.

- الحمل يرهقني كثيرًا. ضغطي منخفض والطعام لا يستقرّ في معدتي.

أطرق قليلًا ثُمّ عاد يسألها:

- كيف هو «أحمد»؟ هل يقضي وقتًا معك أم يذهب لوالده؟

- كان بالبيت طوال إجازة نصف العام، لم يتركه للحظة حتى انتهت الإجازة.

رفع «أُسامة» حاجبيه، قائلًا:

- جميلٌ أنّه كان بجوارك. لا شكّ أنّك تعبتِ أثناء غياب أُمّي وملازمتها لي بالمستشفى. فالحياة مع جدّي ومحاولة التعايش مع تقلّبات مزاجه مرهقة للأعصاب، وهي أكثر من يصبر على طباعه.

حرّكت سبابتها نافية وقالت بنبرة تشي بامتنانٍ وإعجاب:

- لازمه «سليمان» طوال النهار كما أوصته أُمّي. كان يجلس معه في غرفته ويصحبه إلى غرفة المعيشة ليشاهد معه التلفاز، وأحيانًا في الحديقة بعد تحسّن الطقس. وكان يرحل بعد عودة «حُسام» الذي كان يجلس قليلًا بجوار جدّي حتى ينام فيحمل حاسوبه النقّال ويصعد لزوجته وابنه. أكثر

من ثلاثة أسابيع ولم يملّ «سليمان»، لا بدّ أن تشكره.

ابتسم «أُسامة»، كان على يقين أن «سليمان» صديق وفيّ ويُعتمدُ عليه. كما كان على يقين أن غياب أُمّه عن البيت لأسابيعٍ، وانشغال «حسام» بعمله وبه؛ قد أصاب «ريم» بالضجر، فهي لا تتحمل ظروفًا كهذه أبدًا. قال وهو يفرك جبينه:

- لا شكّ أن «ريم» كانت تشعر بالملل والضجر طوال الأسابيع الماضية.

قالت بانزعاج بعد أن تغيرت ملامحها:

- لا أظنّ.

أغمضت عينيها مرّة أخرى، وعادت للنوم فانسحب «أُسامة» بهدوء وأغلق الباب خلفه.

عاد إلى غرفة المعيشة حيث ركضت نحوه «فرحة» ووقفت أمامه بجديلة واحدة مفكوكة، كانت لا تتحمل الشرائط التي تجدل بها أُمّها شعرها. أرادت أن تستعرض أمامه دفترها بزهوٍ بعد أن انتهت من رسمتها الجديدة. كانت قد رسمت بيتًا كبيرًا مكونًا من طابقين ومحاطًا ببنايات فارهة، ورسمت فوقه بوضوحٍ عينين كبيرتين واسعتين وداكنتين، كلّ

منهما تبدو وحدها ككهف مقفرٍ مظلم ومخيف. نوافذ البيت كلّها مفتوحة. والأزهار حول البيت منثورة بإهمالٍ وكأنّ هناك من دهسها بقدميه، حتى الأشجار حول البيت كانت كالأشباح!

- ما تلك العيون السوداء المخيفة يا «فرحة»؟

- كلّهم يراقبونكم، السهام تَسقُطُ من أعلى.

- من هم يا «فرحة»؟

أطرقت قليلًا ثمّ قالت بهمس يشبه الفحيح:

- الغرباء!

طالعها بارتياب وراوده شعور غريب. لماذا تتحدّث «فرحة» كالكبار! وكأنّها امرأة كبيرة وناضجة! لم يكُن يومًا جبانًا! لماذا يخاف؟ وممّ يخاف؟ تركته الصغيرة غارقًا في حيرته وركضت حاملة دفترها نحو المطبخ لتريه لأمّها. بينما اقتربت السيّدة «دولت» وهي تحمل فنجاني قهوة ليتناولاها معًا. كانت متعبةً جدًّا ومرهقة، لكنّ فرحتها بشفاء ابنها أنستها الألم.

- ما رأيك أن نُحدد موعد خطبتك أنت و «ريتال»؟

- ليس الآن يا أُمّي.

- لكنني أخبرتهم بالفعل يوم الحادث كما طلبت أنت منّي!

- فلنؤجل الأمر الآن، لست مستعدًا للارتباط.

- ماذا! وأخي؟ والفتاة التي تعلّقت بك ووافقت هي وأهلها فور أن طلبت يدها للزواج منك، ليتك كُنت موجودًا لتشهد كيف رحبوا جميعًا.

- أرجوكِ يا أُمي، ليس الآن.

- ولكن...

- ليس الآن.

عاد إلى غرفته وما زال الخوف يلازمه، الجحيم يكون حين لا يعود هنالك أيّ أمل، وما عاد لديه أملٌ في الحياة، فهو ينتظر الموت!

***

١٠

على الموقد كان هناك طنجرة يغلي فيها الماء، بينما كانت عينا «ريتال» تذرفان الدموع. دموعها هذه المرّة كانت بسبب تقطيع البصل على طاولة الطعام، ستّعد طاجنًا من الخضار وأُرزًا مُعمّرًا والكثير من السلطات، فهي ماهرةٌ في إعدادها. ابتسمت براحةٍ وسكينة عندما تذكّرت أن «أُسامة» بخير. كانت تتمزق خلال الفترة الماضية. «الحمد لله» قالتها بصوتٍ مسموع بعد أن تنهّدت بعمقٍ وهي وحدها بالمطبخ. حلّقت مرّة أخرى في سماء أحلامها الوردية بعيدًا عن الواقع. أفزعها نداء أخيها الذي دخل فجأة...

- «ريتال»، أين أنتِ؟

- هنا يا «يوسف»، ما بك؟ أفزعتني!

- عندي لكِ خبرٌ مفرح.

تسارعت دقّات قلبها وشعرت أنّه سيخرج من قفصها الصدري، يبدو أنّ «أُسامة» قرر أخيرًا أن يحدد موعد الخطبة، فعمّتها كانت قد أخبرتهم قبل الحادث أنّه يُريد خطبتها، بينما خرج «أُسامة» للقاء صديقه في محطة

القطار، لكنّهم لم يتحدثوا مرّة أخرى في الأمر منذ أن خرج من المستشفى. انتظرت البشارة على لسانِ أخيها، وقالت:

- خيرًا يا أخي؟

- وافقت «سارة» على زواجها مني.

احتضنت «ريتال» شقيقها تشاركه فرحته. وأخفت كلّ ما يختلج في أحاسيسها المضطربة، خُطف قلبها لوهلةٍ بيد أنّها لم تظهر هذا له، استعادت رباطة جأشها، وسألته باهتمام:

- هل تحدثت معها بوضوح.

- وأخبرتُها عمّا يُقلقني، وأفصحَتْ لي عن مخاوفها.

- و هل وافق والدها على إتمام الزواج؟

- لم تُخبره بعد، فهي تتوقع رفضه أيضًا للأمر. طلبت منّي أولًا أن أُخبر أبي وأُمّي.

- إذًا، فلتستعد للإعصار كما أخبرتك من قبل.

اغتمّ وجهه فجأة وعبس، فقد كان يخشى تلك اللحظة بالفعل. نظر لوجه أخته، وقال بتوتّر:

- هل من الممكن أن ترافقيني لتيسري عليّ تلك المهمة.

تأبّطت ذراعه وسارت معه نحو غرفة والديها، وهي تقول:

- بالتأكيد، هيّا بنا.

دلفت «ريتال» مع أخيها لغرفةٍ أخرى حيثُ كانت «زينب» تجلس بجوار زوجها تخيط قميصًا ليوسف اكتشفت فيه ثقبًا صغيرًا وهي تعلّقه في خزانته منذ قليل. وكان زوجها متكئًا على الأريكة ويطالعُ نشرة الأخبار في التلفاز. وقفا صامتين فتعجّبت أمهما، وقالت:

- ما بكما؟ هل هناك شيء؟

بدا على «يوسف» الارتباك فاستدار ناظرًا لوجه «ريتال» ينشدها أن تبدأ هي بالكلام. قالت وهي تتنقل بعينيها بين وجهيهما:

- «يوسف» يريد أن يخطب زميلة له.

انفرجت أسارير «زينب» فهي تُلحُّ عليه منذ فترةٍ طويلة أن يخطب. وها هو أخيرًا استجاب لرجائها. قالت مبتهجة:

- أخيرًا يا «يُوسف» أسعدت قلبي يا ولدي، ترى من هي؟ وما اسمها؟

- ازدرد «يُوسف» ريقه بصعوبة وأطال النظر لوجه أمّه قبل أن تخرج حروف اسمها من بين شفتيه:

- «سارة».

رفع أبوه عينيه عن شاشة التلفاز، وقال منتبهًا:

- دكتورة «سارة» ابنة الدكتور «أمين»؟

- نعم يا أبي.

- لكنّها تكبرك بعامين، فهي من عُمر «أُسامة»!

- أعلم يا أبي.

بدا الانزعاج على وجه «زينب»، وقالت بتأثّر:

- ولماذا يا ولدي تتزوج عروسًا تكبرك؟ أنت شاب رائع وتتمناك كلّ فتاة. أشر فقط بأصبعك. ما يجبرك على تلك الزيجة؟

تدخلت «ريتالُ» في تلك اللحظة، وقالت:

- وهي أيضًا رائعة يا أُمّي، هي ذكيّة، وناجحة، وواثقة بنفسها، كما أنّها ذات شخصيّة مميزة أعجبتني، فقد راقبتها عندما كنّا نذهب إلى المستشفى خلال فترة مرض «أُسامة».

عقدت الأُم حاجبيها، وقالت في حيرة:

- أعلم يا ابنتي. فقد لاحظت هذا أيضًا، لكنني أخشى من قرار أخيك وليس منها.

التفت «يوسف» لأُمّه وسألها بانفعال:

- ولماذا تخشين قراري يا أُمّي؟

- أخشى أن تخطبها وتعلّقها بك ثم تندم وأنت شاب خلوق وحسّاس، ربما تُكمل معها وتمضي في طريق الزواج تعاطفًا وليس حبًّا، حرجًا وليس إصرارًا فتتعسها وتتحول حياتك إلى جحيم.

جلس «يوسف» حذو أُمّه، وقال بجدية:

- فكّرت أكثر من مرّة قبل أن أخبرها برغبتي في الزواج منها فلا تقلقي يا أُمّي. قراري هذا بعد تفكير عميق. كما أنّها ترددت كثيرًا في البداية، فمنحتها وقتَها حتى فكّرت، وأخيرًا وافقت.

- فكّر مرّة أخرى يا حبيبي.

- لقد اكتفيت من التفكير.. والآن أُريد مباركتكِ أنتِ يا أمّي.

التفتت «زينب» لزوجها الذي كان يُنصت في صمت، ووجهت سؤالها له:

- ما رأيك يا «كمال»؟

اعتدل «كمال» في جلسته ورفع حاجبيه، وفاجأهم بردّه:

- موافق طبعًا.

انفرجت أسارير»يوسف» وراح يتنقل بعينيه بين وجه أبيه وأُمّه، وقلبُه يرقص فرحًا، يكاد لا يصدّق ما سمعه للتو. دون نقاش وبلا كلمات يشرح

بها أسباب مباركته لتلك الزيجة، قام «كمال» في الحال واحتضن ابنه بحنان، ثُمّ ترك الغرفة بعد أن طلب من «يُوسف» أن يخبر الدكتور أمين أنه يُريد زيارته معه ليخطبها له.

ألقت «زينب» القميص الذي كانت تُخيطه على الأريكة ولحقت بزوجها إلى غرفتهما، وتركت «يوسف» مع «ريتال». وقفت أمامه بعد أن أغلقت باب الغرفة ورنت إليه، ثمّ قالت بمرارة:

- ما هذا يا «كمال»؟ هل أنت حقًّا موافق؟ أم هذه طريقة دبلوماسية منك حتى لا يحتدّ النقاش؟

- بل موافق وبشدّة.

- كيف؟

خلع نظّارته وفرك عينيه ثُمّ وضع رأسه على الوسادة ليستعد لقيلولته وقال:

- أرى أن شخصيّتها مناسبة جدًّا له، ستكون داعمة له يا «زينب». أنا أعلم ولدي جيّدًا، دعك من قامته الطويلة ومظهره الموحي برباطة جأشه وقوة بأسه. هو شاب طيّب ومهذّب ولله الحمد، لكنّ لديه شيىء في نفسه أعلمه، ذاك الاطمئنان المنقوص الذي يبحث عنه في وجوهنا، تلك الرهبة التي يدفعها باللجوء إلينا مرّات ومرّات في قراراته، هو دائمًا متردد. عندما

رأيته يتحدث إلى «سارة» ونحن بالمستشفى رأيت نظراتها الواثقة فيه، رأيت تشجيعها له دون أن تُحرجه.

زمّت «زينب» شفتيها، وقالت:

- ولكنّك قلت بنفسك أنّه متردد، ألا تخشى من تردده هذا؟ أليست كابنتنا؟ عندما يخطبها ويتركها ستُحسب عليها خطبة أمام الناس. أحببت الفتاة جدًّا عندما التقيت بها، لكنني أخشى من ولدي، لا أثق في جديته.

أطرق «كمالُ» مفكرًا وقبل أن يرد عليها كان «يوسف» يطرق باب الغرفة، أطل برأسه من فرجة الباب، وقال وقد أشرق وجهه بابتسامة واسعة:

- تحدثت إلى الدكتور «أمين»، موعدنا الخميس إن شاء الله في بيتهم.

رفع «كمال» رأسه عن الوسادة و هزّ رأسه لولده بثقةٍ، وقال:

- على بركة الله.

أغلق «يوسف» الباب وتنهّدت الأم بقلق. يبدو أنها الوحيدة التي تعترض. جلست تفكّر في كلام زوجها، بالفعل ابنها يحتاج لزوجة قوية الشخصية تدعمه باحترام، تقف بجواره، تدفعه للأمام وهي تحترمه، و»سارة» فتاة خلوقة وستكون عونًا له دون أن تهينه أمام الجميع، كما أنّه شاب رائعٌ وطيب ولا شكّ أنّها تدرك هذا جيّدًا.

ثم التفتت «زينب» إلى زوجها فوجدته قد غرق في نوم عميق، فهزّته بعصبية فانتفض فزعًا على صوتها.. وهي تقول:

- هل ستنام؟

أجابها بتضجر فقد أيقظته بالفعل، ثُمّ قال بانزعاج:

- نعم. سأنام يا «زينب»!

تململت وسألته بصوت خافت:

- هل تحدثت إليك «دولت» مرّة أخرى بشأن خطبة «ريتال» لأُسامة؟

- ولا مرّة، كُنت أزوره كلّ يوم، لم يسألني حتى عنها!

- ترى لماذا؟

- وكأنّه قد غيّر رأيه بعد الحادث. أو ربما هو نفسه قد تغيّر! ليس هذا نفس الوجه الباسم الذي غادر البيت بعد أن قطّب جرح «ريتال».

- فعلًا. لقد تّغير.

***

مرّة أخرى كان العرق يغرق جبينها وهي ترتجف. استيقظ كل من بالبيت على صراخها بعد منتصف الليل بربع ساعة. هرعت السيدة «دولت» إلى غرفة أُمّ «فرحة» وسألتها عن سبب صراخ ابنتها، فقالت وهي تمسح

وجه «فرحة» بيدٍ ترتجف:

- من آن لآخر ترى كابوسًا مزعجًا، وتكون على هذه الحال.

قالت السيدة «دولت» وهي تهزّ الفتاة بحنان:

- أيقظيها.

هزّت أُمّ فرحة رأسها نفيًا، وقالت:

- لا تستيقظ أبدًا.

- سأُنادي «أُسامة»

كان «أُسامة» يقف قريبًا من باب الغرفة وينتظر نداء أُمّه لتسمح له بالدخول. اقترب من «فرحة» التي كانت تنتفض وجلس يراقبها. بدأت مقلتاها تتأرجحان يمينًا ويسارًا خلف أجفانها المغلقة. تسارعت أنفاسها، تحسس «أُسامة» نبضها فوجده متسارعًا جدًّا. بعد لحظات سكنت، وبدأت أنفاسها تنتظم.

- ستنام الآن. قالت أُمّها وهي تربت على وجنتها بحنان.

هدأت أنفاس «فرحة»، فطمأن «أُسامة» أُمّها، فأخبرته أنّها اعتادت على هذا الأمر. خرج مع أُمّه من الغرفة ولم يغمض له جفن في تلك الليلة، فقد ازداد شُعوره بالخوف!

في الصباح التالي كانت شاحبة الوجه. اقتربت «فرحة» منه حيث كان يجلس، فسألها بلطف:

- لماذا كنتِ تصرخين ليلة أمس؟

حدّقت في وجهه بعينيها الخضراوتين وقالت وكأنّها تخبره سرًّا خطيرًا:

- رأيتُ الكابوس المُخيف مرّة أخرى.

سألها بجدّية:

- وهل رأيتِه من قبل؟

هزّت رأسها موافقة، وقالت بصوت خافت:

- نعم قبل وفاة أبي.

ربّت على وجنتها برفق، وسألها:

- ماذا ترين في ذلك الكابوس؟

شبّكت كفيها وانكمشت أمامه، ثُمّ قالت:

- أسمع ذئابًا تعوي، وسباعًا تزأر، وكلابًا تنبح كلها يطلب فريسة واحدة.

- وهل يفترسونها.

- بل هناك من يفترسهم واحدًا تلو الآخر.

- كيف هذا؟

- لأنّه حولهم في كلّ مكان.

- من هو؟

- الموت!

تراجع بجذعه إلى الخلف وطالعها باستغرابٍ، ثُمّ سألها:

- والفريسة؟

هزّت كتفيها، وقالت:

- ما زالت تقف على الطريق وحيدة.

حاول أن يُطمئنها قائلًا:

- لا تخافي.

- لست خائفة، ولكن لديّ شيء بالغ الخطورة أقوله لك، يجب أن أُحذّرك.

- مِن ماذا؟

- هناك أحدٌ ما سيموت في هذا البيت.

- لم تقولين هذا!

حدّقت بعينيها الخضراوتين في عينيه طويلًا فشعر برهبة وتذكّر الحادث.

عاد يسألها:

- من كانت الفريسة يا «فرحة»؟

وقفت تحدّق في عينيه مرّة أخرى، ثُمّ أشاحت بوجهها بعيدًا ولم تُجبه. سألها مرّة أخرى:

- أخبريني من هي الفريسة ولن أخبر أحدًا أبدًا، أعدك أنّه سرّ.

ظلّت على صمتها، لم تتحدث، لم تخبره. ثُمّ قالت قبل أن تتركه حائرًا:

- كان على وجه الفريسة وشاح أبيض، لا أدري من سيموت!

أسرعت مجيبة لنداء أُمّها وتركته يتساءل. ترى من سيموت؟ هو أم من؟ ربما جدّه! أو..يا إلهي! هل هي «مريم»؟ لا لا.. بل هي أُمّه.. بدأت الأفكار تتناطح وتتصارع في رأسه.

***

كان للبيت الذي يسكُن فيه «سُليمانُ» في القاهرةِ مظهرًا غامضًا. بدا البيتُ مرتفعًا لكنّه ضيّق ومنطوٍ على نفسه. يضمّ كل طابق شرفتين

صغيرتين. لم يذهب اليوم للقاء «أُسامة». بدا منهمكًا في البحث عن شيء ما على الإنترنت. كان منفعلًا وهو يتابع قراءة ما يظهر على الشاشة. ضرب بقبضته على سطح المكتب بغضب، يبدو أنّه اكتشف شيئًا ما!

تصاعد رنين هاتفه النقّال، كان «أُسامة» من يتصل به. لوهلة كان يحملق في شاشة الهاتف حائرًا هل يرد الآن أم ليس هذا هو الوقت المناسب. قرر أن يؤجل ما يتابعه لوقت لاحق. وقام بالردّ عليه:

- «أُسامة» كيف حالك؟

- الحمد لله، اشتقت إليك، واشتاق جدّي إليك.

- لقد أصبحنا أصدقاء.

- شكرًا لاهتمامك به يا «سليمان».

- لا تنس أنّه في مقامِ جدّي أيضًا؟

شعر «سليمان» بتغيّر في صوت «أُسامة» حتى صوتُ أنفاسه كان مضطربًا.

- «أُسامة»، هل أنت بخير؟

- نعم بخير.

- هل حددت موعد خطبتك أنت و «ريتال»؟

- لا، ليس الآن، أجلت الأمر.

- لماذا؟

- لا أدري.

- ألم نتفق أن نغير تلك الإجابة الرتيبة؟ ابحث عن كلمة أخرى ولا تهرب من الحقيقة. أخبرني بربك ما بك؟ أشعر أن صوتك حزين.

- أنا خائف، لم أعد أستطيع أن أضع قدمي خارج غرفتي من دون أن أخشى الموت. حتى وأنا نائم أشعر أنّها النهاية ولا ريب.

- لعل هذا من أثر الحادث، لا تنس أنّك تعرضت لصدمةٍ شديدة.

- أشعر أن الموت يلاحقني.

- مهما تعملق الموت فإنّه لن يوقف يومًا الحياة، لأنّه الأضعف وكلّ شيءٍ في نماء. سبحان الحيّ الذي لا يموت!

مرّت عليهما لحظة صمت قصيرة، قطعها صوت «أُسامة» وهو يقول:

- من خطورة العيش بين الطاعة والمعصية أنّك لا تدري في أي فترة منهما ستكون الخاتمة. وأنا أتنقل بينهما ولهذا أنا خائف.

- وكلّنا كذلك!

- «سليمان»، هل أنت بخير؟ أشعر أن صوتك حزين.

- أنا بخير يا صديقي لا تقلق.

- أخبرني إذًا متى ستأتي يا «سليمان»؟

- الليلة إن شاء الله، ربّما أتأخر قليلًا فلا تقلق.

- في انتظارك.

أغلق «سليمان» هاتفه وطالع الشاشة مرّة أخرى. كان مشغولًا بمتابعة أخبار خطيبته السابقة على الإنترنت. عالق هو في شباكها حتى بعد أن رفضت الزواج منه، ما زال يتابع صفحتها على الفيسبوك. قبل مكالمة «أُسامة» كانت قد اكتشف للتو أنها خُطبت لغيره. لم يتوقع أن يكون خطيبها هو زميله الذي وثق به كثيرًا وطلب منه الوساطة بينهما لحلّ الخلاف الأخير. كانا قد تحابا بعمق ثُمّ تباغضا وتقاتلت روحيهما على تحليل أجزائهما التي امتزجت، طالع الصور للمرة الأخيرة، نظر طويلًا لأيديهما المتشابكة، قرّب الصورة من عينيها وهي تبتسم، أدرك أنّها سعيدة، أنّها تحبّ، قرر أن يتحرر من أسرها، حرك المؤشّر على شاشة الحاسوب ببطء وهو يشعر بتنميل في ذراعه، صرّ على أسنانه، كانت الذكريات تعضّ على قلبه، أظلمت نفسه للحظات، شعر أنّ كل لحظة حبّ قضاها معها كأرواح تنتقم من كبريائه، ضغط على الزر ليخفيها للأبد.

***

أمطرت السماء مطرًا هتونًا واستمرّت تهمي. وقف «أُسامة» يراقب أشجار الحديقة بينما المطر يغسلها ويزيل عنها الغبار والأتربة. عادت لصدره رعدة الخوف. كان يشعر أن الموت قابعٌ هُنا وهُناك، سينهش نهشةً ويمضي. يختبىء خلف الظلال ليقتات على الفتات الساقطة من موائد الحياة. الحياة تقزّمت أمامه وصارت ضئيلةً مذعورة. البشر يتكاثرون، الأُمّهات تلد، الإنسان والحيوان سواء، والأرض تتفجر فينبثق النبات من جوفٍ تشبَّع بتُراب أموات سبقونا. ما فائدة أن أعيش الحياة طالما ستفنى!

كان حائرًا يتخبّط، ماذا سيفعل وجرحه بعد لم يندمل؟ كيف ينسى أن الموت ينتظره؟ كيف تعود إليه الرغبة في الحياة؟

كان يشتاق للشعور بالسلام، بالنور، بالشفافية. يأمل أن يشعر بذاك الخشوع الذي يتحدّثون عنه. عن تلك الرّجفة التي تجتاح الصدر فتجعل قارئ القرآن يبكي. في السابق، قرر أكثر من مرّة أن تلك الليلة ستكون الليلة التي يسجد فيها حتى يخرج قلبه من بين ضلوعه ويتملّص من قيوده لينبطح أرضًا ويُخبت لله. لكن لم يكن لديه قطّ الوقت لذلك، شغله طموحه العلمي فكان الوقت يمر وينسى قراراته.

كان الجو يتأرجح بين البرد القارص والدفء المفاجىء. خرج ليبحث عن مسجدٍ يحتويه. الحياة لا تستحق. لماذا نركض خلفها. كان يرزح تحت

موجة كبيرة من الخوف. خوف من الموت والهلاك. خوف من نزع الروح وألم اختلاف الضلوع وتلك الوحشة هناك في ظلمة القبر. حيث اللا عودة، حيثُ لا ينفع الندم. سلك طريقًا فرعيًا، ووجد نفسه في أحد الشوارع الضيّقة. مرهقًا بعبء الندم على كلّ لحظةٍ في حياته لم يقضها في طاعة، دلف إلى المسجد حائرًا، همس لنفسه: «لم أفعل شيئًا بعد! سأظلّ هنا إلى الأبد»

رفع وجهه العامر بالدموع وبحث عن مصحف، ثُمّ انزوى يبكي. ظلّ يقرأ حتى تقرّح جفنه. كان روّاد المسجد يطالعونه باستغراب. أغمض عينيه ودفع بإرادته في أتون المعركة الداخلية لعلّ الطمأنينة تعود إليه، غشيه النعاس وهو بين دمعةٍ وحرف، فتوسّد ذراعه ونام.

أيقظه الهدير الناجم عن أبواق السيّارات. نظر للساعة المعلّقة على حائط المسجد، إنّها الخامسة، اقترب أذان المغرب، قام وتوضّأ، ثُمّ جلس ينتظر الصلاة. انطلق صوت الأذان فارتجّ صدره واجتاحته قشعريرة فخرّ على ركبتيه مرّة أخرى. أُقيمت الصلاة فوقف مُنكسر القلب خاشع الجوارح لأوّل مرّة في حياته. كان الإمام يقرأ القرآن مستلهمًا معاني الكلمات فتطابقت نبرات صوته وحركات المعاني، فخرجت الكلمات واضحة وزادت بيان الألفاظ، فوجدت المعاني سبيلها لأذن «أُسامة» ونفذت إلى قلبه.

كانت الكلمات تضطرب في نفس الإمام قبل أن يأتي بها إلى الخارج،

يقرأ الآيات وكأن الحياة قد شاعت فيها، كأنها أطياف نورانية تتحرك، تقوم وتقعد، وتروح وتجيء. سلّم من صلاته وقد وّلد من جديد. وّلد بقلب جُرح جرحًا لن يبرأ إلّا برؤية وجه الله. فغمرته حالة من السكينة لم يخرج منها إلّا وهو يختم صلاة العشاء. صافحه المصلّون وكأنّهم يهنئونه، رحّبت به الكفوف، وودعته الدعوات على الطريق وهو عائد لبيت جدّه، دعوات من سمعوا أنينه وشهدوا دموعه.

***

١١

سلطانية زجاجية ضخمة تحتوي على حبّات الفول السوداني الغير مقشور كانت تتوسط الطاولة، بينما تناثرت حولها أقلام التلوين، وحيث انسكب بعض من قدح الشوكولاتة الساخنة الذي كانت تشربه منذ قليلٍ، كانت «فرحة» تجلس على كرسيّ من الخوص في وسط الحديقة وترسم عندما اقترب منها «أُسامة» بعرجته التي لم يتمكن بعد من التخلص منها، ما زال موضع الكسر يؤلمه. قال يحييها:

- صباحُ الخير.

- صباحُ الخير، لماذا استيقظت متأخرًا؟

- كُنت متعبًا فقد سرت لمسافة طويلة، ولأوّل مرةٍ بعد الحادث عندما خرجت أمس مع «سليمان»، أين أُمّي؟

- خرج الجميع.

- الجميع!

قال «أُسامة» متعجبًا بينما كانت تمصّ آخر ما تبقى في القدح بتلذذٍ.

أخرجت لسانها ولعقت ما على شفتيها من بواقي الشوكولاتة، وقالت وهي تعدّ على أصابعها:

- السيّد «حسام» أوّلًا وبعده السيّد «أحمد»، ثُمّ خرجت السيدة «دولت» وحدها على عجلٍ بعد أن جاءها اتصال على هاتفها الجوّال. أمّا السيّدة «مريم» فخرجت بعد أن طلبت من عمّ «صلاح» أن يوقف لها سيّارة أُجرة، وأخيرًا خرجت السيّدة «ريم» وحدها بعد أن تركت «مروان» مع أُمّي بالمطبخ.

- وكيف خرجت «مريم» وهي مريضة؟

- يبدو أنّها لم تخبر السيّدة «دولت» أنّها ستخرج، هكذا قالت أُمّي عندما رأتها تخرج بعدها.

جلس «أُسامة» على الكرسي بجوار «فرحة» وكان حائرًا. هناك أمرٌ ما يدور بالبيت! قفزت الأسئلة إلى ذهنه كحبّات الفيشار واحدًا تلو الآخر.

أين ذهب الجميع؟

قفزت إلى ذهنه تلك الجمل المتفرّقة التي قالتها له الصغيرة«فرحة» ولم ينتبه لها جيّدًا:

لماذا السيّدة مريم حزينة؟

هي حزينة..حزينة..حزينة.

حزينة لأنّها تُحبّه لكنّه لا يُحبّها.

أخبرتني أُمّي أن لا أحكي.

ستضربني أُمّي.. هل أخطأت!

هل ستطردوننا من البيت؟

قام كالمحموم يقطع الحديقة ذهابًا وإيابًا. ما زالت ساقه تؤلمه. كان يعرج ويستند من آن لآخر على أقرب شيء إلى يده. ظلّت «فرحة» تلاحقه وتتحدّث إليه وتثرثر وهو لا يُنصتُ لها. وقفت بينه وبين البيت ثُم فتحت ذراعيها ورفعتهما لأعلى مشيرة إلى البنايتين الفارهتين المنتصبيتين أمام البيت، وقالت:

- السهام تسقُط من أعلى.

تذكّر رسمتها للبيت بنوافذه المفتوحة وفوقه عينان كبيرتان مخيفتان. رفع رأسه فرأى السيّدة «رقية» التي تسكن في البناية المقابلة وهي تقف وتحملق هنا وهناك وتراقب الطريق. التقت عيناه بعينيها فهزّت رأسها تحييه. ردّ التحيّة بهزّة رأس خاطفة والتفت لـ «فرحة»، وسألها بحدّة:

- ماذا تقصدين يا «فرحة»؟ كُفّي عن الحديث بالألغاز.

كانت تلك المرّة الأولى التي يحدّثها فيها بتلك الطريقة مما أخاف

الصغيرة فركضت بعيدًا عنه واختبأت خلف شجرة قريبة تختلس النظر إليه من خلفها كقطٍ صغير وعاد لحيرته. بعد قليلٍ وقفت سيّارة أُجرة أمام باب البيت، كانت «مريم» التي بدا عليها الحزن الشديد. سارت بخطوات ثقيلة نحو الباب، التفتت لوجه «أُسامة» ولاحظت توتره. دلفت أمامه من الباب وهو يسألها:

- أين كنتِ؟

جالت بعينيها في المكان، ثُمّ قالت:

- كُنت عند صديقة.

- من هي؟

- لماذا تسأل؟ ولم أنت منزعج هكذا؟

- ألستِ مريضة؟

- بلى يا «أُسامة» مريضةً جدًّا وأشعر بدوار شديد.

أسندها وسار معها نحو غرفتها، كان ظهرها يؤلمها وكانت تشكو من صداعٍ بالرّأس. أشفق عليها فأعاد سؤاله بصوت خفيض، وقال:

- أخبريني إذًا، أين كنتِ الآن؟.

- لا أستطيع.

- لماذا؟

صمتت فلاحقها بسؤاله بعد أن جلست:

- لماذا أنت حزينة؟ لديك زوجٌ محبٌّ وخلوقٌ ويهتمّ بك! لماذا أنتِ مكتئبةً وقد عانى ما عاناه ليتزوجك؟ لماذا لا تهتمّي به بدلًا من العبوس في وجهه؟ ألا يستحق منك ابتسامة على الأقل؟

كانت «مريم» تنصت إليه وهي شاحبة، ابيضت شفتاها وزاغت عيناها ثُمّ فقدت وعيها أمام عينيه! تلقفها «أُسامة» على ذراعه، وحملتها معه أُمّه التي كانت قد وصلت للتوّ بينما كان يلوم أخته ورفعاها على السرير وبدأ يحاول إفاقتها. مرّت لحظات صعبة عليهما حتى فتحت «مريم» عينيها واستعادت وعيها وجلست بينهما تبكي، وأُمّها تهدىء من روعها. كانت تخفي شيئًا ما.

ازدردت السيّدة «دولت» ريقها ومسحت وجهها بكفيها، ثُمّ التفتت لابنتها لتتأملها بإشفاقٍ، وقالت:

- أين كنتِ يا «مريم»؟ وكيف تخرجين وحدك دون أن تخبريني؟ ألم نتفق أن نذهب سويًّا؟

بملامحٍ متعبة لم تجبها «مريم»، تذمر «أُسامة» وهو يُطلق زفراتٍ وقال بانفعال:

- لم هذا الغموض، لا أفهم؟ أخبريني الحقيقة الآن.

ران عليهم صمت مطبق فقال بعصبية:

- سأتصل بـ»أحمد» لأعرف منه أين كنتِ يا «مريم»، أنتم تخفون عنّي شيئًا ما.

انقبضت معدة «مريم»، وقالت بفزع:

- أرجوك لا تُخبره أنني خرجت من البيت.

- إذًا، أخبريني أين كنتِ؟

تبادلت مع أُمّها نظرات ذات معنى هو يجهله، ثُمّ قالت وهي تخفض عينيها:

- كنت أُعطي لأُمّه مبلغًا من المال، هاتفتني أمس وأخبرتني أن «أحمد» لم يعطها شيئًا منذ شهر. وقد اعتادوا على مساعداته لهم.

سألها بريبةٍ:

- وأين مرتبه؟

قالت «مريم» بتوتّر:

- اشترى هاتفًا جديدًا منذ ثلاثة أسابيع.

في تلك اللحظة تعلّلت «مريم» بصداع في رأسها وطلبت منهما إطفاء

المصابيح وإغلاق الباب. انتبهت السيدة «دولت» لكونها قد تأخّرت على والدها وطلبت من «أُسامة» أن يأتي معها ليفحص صدره فهو مريض جدًّا. فخرج معها والخوف من الموت ما يزال ينقر برأسه. يخشى أن تموت «مريم»، أو أن يباغته الموت فجأة. أمّا أمّه فكانت وساوس الشيطان تنهش بصدرها لأنّها كانت تعلم خبيئة ابنتها.

***

بدأ الأمر قبل الحادث، كُانت السيّدة «دولت» تلاحظ نظرات «أحمد» لـ «ريم» وتتبّعه لها، أبدى اهتمامًا مبالغًا فيه بابنها «مروان». كان يُقبل على مجلسهم عندما يخرج «حسام». ويدبّر عندما يعود من عمله. بعد الحادث كُانت تعود للبيت فتفاجأ بالهمز واللمز بين أُمّ صلاح وأُمّ فرحة. كلتاهما لاحظتا اهتمامه بـ «ريم» وجلوسه معها طوال النهار أمام التلفاز. وهي تعلم كيف تُدرك النساء تلك الأمور. كانت «فرحة» هي العين التي نقلت لها كلّ شيءٍ يحدث أمامها بالتفصيل. الفتاة قويّة الملاحظة، ونظرًا لقلّة اختلاطها بأترابها تحوّلت إلى كائنٍ صغيرٍ يتحدّث بلغة الكبار، لغة النساء.. فهي لا تفارق خيال أُمّها، والأخيرة تُثرثر كثيرًا مع أم صلاح.

«فرحة» كانت تميلُ لتقييم كلّ شخص تلتقي به. أخبرتها أنّ «أحمد» لا يصلّي بانتظام. وكانت «دولت» لا تعلم بهذا الأمر. وأخبرتها أنّه اشترى هاتفًا

جديدًا. كما أخبرتها أنّه لا يهتمّ بـ»مريم» أثناء غيابها. والمؤلم أنّها انتبهت للجيران وهم يراقبون نوافذ البيت. لاحظت الصغيرة أيضًا أنّ «أحمد» يصعد إلى سطح البناية وينحني على المطلّ ليراقب «ريم» وهي في غرفتها. حتى أنّها عندما صعدت رأت الأريكة التي تتمدد عليها أمام التلفاز، وأخبرتها أن تحركها من تحت النافذة. لكنّ «ريم» لم تنتبه لملاحظتها. بعد أن مرّ أسبوعان على الحادث عادت «دولت» للبيت فوجدت جارتها السيّدة «رقيّة» تنتظرها بصالة الاستقبال. كانت السيّدة «رقية» تعيش وحيدة بعد أن تزوج أكبر أبنائها وسافر إلى السعودية، بينما استقرت البنات بعد زواجهن في محافظاتٍ أخرى بعيدًا عنها. كانت طويلة وهزيلة جدًا وكأنّها مصابة بالجفاف. تلك النظّارة سميكة العدستين التي تستقر على أنفها وأذنيها كانت تخفي خلفها عينين فضوليتين. كان لديها من الفراغ ما يكفي لمتابعة كلّ شاردةٍ وواردة بالحيّ، شرفتها العالية جعلتها تراقب الجميع. قالت بعد أن انتهت من تناول قهوتها وأنهت مع آخر رشفة منها سرد أخبار كلّ سكان الحيّ:

- تعلمين أنني أُحبّك يا «دولت».

- وأنت غالية على قلبي يا «رقية».

- أردت أن أُخبرك بشيء لاحظته، وتعلمين أنك بمثابة أختي.

- تفضّلي.

- هل أنتم معتادون على الصعود لسطح البناية؟

- أحيانًا، لماذا تسألين؟

- وهل «مريم»دائمًا بالبيت؟

- أعلم أنّك لا تطرحين الأسئلة لمجرد الاستمتاع، أخبريني ما الأمر!

- تواجهين برأيي وضعًا صعبًا هنا.

- هاتِ ما عندك يا «رقيّة».

- رأيت «ريم» مع «أحمد» على سطح البنانية يتحدثان طويلًا ومعهما «مروان». كانت تضحك بدلالٍ كعادتها، صوت ضحكاتها جعلنا نخرج للشرفات.

ازدردت السيّدة «دولت» ريقها، وقالت بهدوء:

- لا بدّ أنّها كانت تعرّض ابنها للشمس كما نصحها طبيب الأطفال. فالشمس حجبت عن الحديقة بسبب ارتفاع البناية التي تسكنون بها.

- وهل يحتاج «أحمد» أيضًا لأشعة الشمس!، لا بدّ أن بينهما سرٌّ ما، أعلم ذلك بحكم خبرتي ونظرتي العميقة للنّاس.

- عزيزتي، ما نراه ظاهريًّا شيء يختلف عمّا نثبته. قد تبدو الأمور على غير حقيقتها من بعيد.

- أتمنى أن يصعد معها زوجها في المرّة القادمة.

أطلقت كلماتها الأخيرة كطلقات الرصاص ثُمّ نهضت فورًا وكأنّها جندي، ثُمّ سلّمت ببرود على السيدة «دولت» التي كان جسدها كلّه يرتجف من شدّة الغيظ. ضايقتها طريقتها في الحديث ومرّت عليها الليلة كالجحيم. كانت مشغولة بابنها عن الدنيا. سألت «سليمان» عن «أحمد» حيث كان دائمًا يلازم والدها ويعتني به، فعرفت منه أنّ «أحمد» غالبًا يجلس في غرفة المعيشة مع «ريم» أمام التلفاز، وأنّه لا يرى «مريم» أبدًا ولا يسمع صوتها بالبيت. طلبت من «زينب» زوجة أخيها في الأسبوع الأخير أن تلزم البيت لرعاية والدها و «مريم». أبدت «زينب» على استحياءٍ ملاحظات على كثرة حديث «أحمد» مع «ريم»، وكثره ضحكهما وكأن البيت لا يمرّ بمصيبة! كان «حسام» مشغولًا مع أمّه في هذا الوقت.

بعد أن عادوا جميعًا للبيت. ظنّت أنّ الوضع أفضل مما كان عليه، وأنّها شوشرات وألسنة تلوك في الأعراض بلا حساب. لكن القلق كان ينهشها ليلًا ونهارًا.

لاحظت بعد فترةٍ أنّ «ريم» توقفت عن الخروج من غرفتها والتزمت الجناح الخاص بها وبزوجها، حتّي أنّها كانت تطلب أن يُحملَ لهما الطعام هناك. كما لاحظت العصبية الشديدة التي اعترت «أحمد»، كان كالمجنون وبدا قاسيًا على زوجته. كانت في حيرة ولم تدرِ ما تفعله. هل تُخبر ابنتها

بالحقيقة أم لا؟ فاجأتها ابنتها أنّها تعرف كل شيء عن زوجها و «ريم». أخبرتها أنّ بينهما رسائل كثيرة، وأنّها اطلعت عليها، كما أخبرتها أن «ريم» صدّته في النهاية وانقطعت عن التواصل معه عندما صرّح لها بإعجابه وحبّه في إحدى الرسائل المكتوبة. أدركت «دولت» سبب مرض ابنتها وهوانها وحزنها، كانت تراقب كلّ شيء وتحترق. قهرها علمُ ابنتها بالأمر، وهدأت في صدرها وسوسة الشيطان تجاه «ريم» لكنّها لامت عليها تبسّطها معه منذ البداية. لم تُخبر «أُسامة» بما تعرفه، وفضّلت أن تخفي عنه الأمر حتى لا تُحزنه.

في غرفتها كانت «مريم» تدفن دموعها في وسادتها وكلّ دمعة مصحوبة بزفرة حارّة. عاشت كلّ شيء منذ البداية. أحسّت بزوجها، لاحظت نظراته، تابعت شروده، وصلتها أصوات ضحكاته مع «ريم». كما أدركت أنّها صدّته وامتنعت عن مراسلته ولكن بعد ماذا! بعد أن يسرت له الطريق! بعد فوات الأوان! بعد أن عكرت عليها صفو علاقتها به!

لم تفضح «مريم» سرّ زوجها-كما نصحتها أمّها- بينما كانت تُسلّم المال لأُمّه من أجل زواج شقيقته اليوم، لم تشكوه إليها، كانت تنثني على ما تحمله من همّ. بل أخفت خيبتها وحملتها كما تحمل ابنها في جوفها وعادت للبيت بحملٍ ثقيل.

***

كانت الرياح تصدر صفيرًا مخيفًا، الغبار المتطاير أجبر الناس على إغلاق النوافذ والقرار في البيوت. أسرع من بالبيت كلٌّ إلى غرفته وتدّثروا بالأغطية الصوفية وغطوا رؤوسهم وآذانهم بالقبّعات الصوفية. فقد كان البرد شديدًا جدًّا. كانت «مريم» الوحيدة التي لا تشعر بالبرد، فغليان دمائها في عروقها وهي تراقب عيني «أحمد» وهما تلاحقان «ريم» طوال النهار جعل جسدها كلّه يشتعل، احمرّ وجهها، واحتقنت عيناها. قررت أن تنهي الأمر. حان الوقت لمواجهة زوجها، فقد أرهقها ما انثنت عليه من ألمٍ نهش من نفسها الكثير. قالت وهي تعصر بكفيها ملاءة السرير الذي كانت تجلس عليه:

- لقد قرأت الرسائل.

- أيّ رسائل؟

- رسائلك على الهاتف والفيسبوك لـ «ريم». تصريحك بالحبّ لها أوجعني. لم تتوقف عن الكتابة حتى بعد أن سبّتك وأهانتك.

مادت الأرض به حيث كان يقف. غاص قلبه في أحشائه. حدّثته نفسه بالانصراف. تمتم غاضبًا:

- كيف تتجسسين عليّ؟

تجاهلت سؤاله وقالت بنبرة مرتعشة:

- «ريم» زوجة رجلٌ آخر يا «أحمد»، وهذا الرجل هو أخي.

طأطأ رأسه وهربت الدماء من وجهه. ظنّ أنّها ما زالت ضعيفة سهلة المراس كما في السابق. تناول قناعًا من أقنعته التي اعتاد أن يستخدمها كثيرًا. حاول أن يبدو حزينًا كي تشعر زوجته أنه آسف لما حدث. لم يحاول الدفاع عن نفسه، بل حاول طلب المغفرة.

- سامحيني، كان لهوًا وكانت نزوة، لا أعلم كيف فعلت هذا! أرجوك سامحيني؛ فأنا أُحبّك.

ردت بحدة دون أن تنخدع بنظراته الحزينة:

- كاذب! كُف عن دموع التماسيح، اخرج من الغرفة، أنت غريب عنّي.

حاول أن يضع يده على كتفها لكنّها تملّصت منه بقسوة. علته حمرة الخجل ثم استجمع قواه، وقال:

- لا بدّ أن نتناقش.

اخترقته نظراتها كالرصاصة وقالت:

- لا مجال للنقاش، أنت مجرم.

تبدّلت حُمرة الخجل بحُمرة الغضب، نظر إليها كما ينظر لوردة ذابلة كانت جميلة ونضرة عندما قطفها لأوّل مرّة، وفي تلك اللحظة شعر أنّه لم يعد يحبها، فقال بازدراء:

- وأنت مقصّرة.

كانت تشعر بدوار يجعلها تترنح على حافّة الكلمات. لكنّها تمالكت نفسها وتركته يفرغ ما في جوفه من سموم. سألته بصوت غضيض مختنق:

- وفيم قصرت؟ أخبرني..! أنا لم أطلب منك أن نترك بيتنا وننتقل إلى هنا، ولم أشكو يومًا من شيء، لم أتوقع أبدًا أن تنظر لزوجة أخي! كنت أثق بك وبحبك لي.

ابتسم بسخرية وقال:

- سمعتهم بالمطبخ يتحدثون مع أُمّك عنها بإعجاب. وصفتها الخادمة أمامي أكثر من مرّة.

- لستُ أقلّ منها جمالًا، لو خرجت بزينتي لوصفني الناس بأكثر مما يصفونه بها.

أشاح بنظره عنها وقال:

- طلبتُ منكِ أن نؤجل الحمل لنستمتع أولًا بحياتنا. كُنتِ تتعجلين الأُمومة.

- هذا ليس بيدي! الحملُ رزق وتلك مسئولية مشتركة.

قال بتشفٍ:

- ازداد وزنك، دائمًا أنت شاحبةً ومريضة، تنامين كثيرًا، حتى ملامحك الرقيقة تغيرت.

احتبست أنفاسها لحظة وشعرت بالغضب يمزّق ضلوعها، وأخذت تعدّ نبضات شرايين رقبتها. قبضت على دموعها وقالت بصوت محترق:

- وهل لا بدّ أن أكون جميلة دائمًا لتحبني؟ أليس الحبّ في السراء والضرّاء؟ الحمل شيء مؤقت وسيزول. ألست فرحًا لأنني سألد لك قطعة مني ومنك؟ ألم تسمع يومًا عن زوج أحبّ زوجته حتى وهي مريضة، حتى وهي تتألّم، حتى وهي تحتضر.

زفر بحنق، وقال ساخرًا:

- الحمل مؤقت لكنّ أثره يدوم، سيتغير جسمك إلى الأبد، لن تعودي «مريم» ذات القوام الممشوق.

صاحت وهي ترتجف وكان لأنفاسها أزيز مسموع:

- ولمَاذا لم تعطني أنت الفرصة لأثبت لك؟

- كلّ النساء يخبرن أزواجهن بهذا، وكلهن بدينات.

شخصت صوب المرآة حيث انعكاس صورته كأنها تحدق في وحش مرعب، وقالت:

- أنت حتى لم تفكر في التعدد! أنت اشتهيت زوجة رجل آخر! أنت مقزز.

- وهل كنتِ سترضين بزواجي من أُخرى.

- كُنت سأتوجع وأشعر بالقهر. وأبكي كثيرًا وأصرخ. ولكن كان سيظلّ حلالًا، أمّا طمعك في زوجة أخي!

انتابتها نوبةٌ من الشجاعة وأضافت بنبرة ممزقة حزينة:

- ألم تعجبك «ريم»؟ هي أيضًا كانت كذلك وهي حامل بابنها «مروان»، والآن عادت كما كانت، أنت لم تعطني فرصة.

- لن تكوني أبدًا مثل «ريم».

- لماذا؟

زفر بحنقٍ وقال بانفعالٍ وكأنّ «ريم» قد تمثّلت أمام عينيه:

- النعومة والدلال، النظرة المغرية. الضحكة المبهجة التي تهزّ قلب الرجل. ملابسها. الطريقة التي تنظر بها لزوجها وعندما تغمز بعينيها. ملامستها لكتفه وذراعه من آن لآخر ونحن جميعًا معهم. يدها وهي في يده وهما يصعدان الدرج أمامنا كلّ يوم ويتبادلان النظرات، أمّا أنتِ فزوجة تقليدية.

صرخت بحنق مقاطعة طعناته المتتالية، وهي تحترق:

- يكفي.. يكفي!

كان قاسيًا وفجًا غليظًا. مرر السكين على الجرح مرّة أخرى، وقال:

- كنت أسمع صوتهما كلّ ليلة يتسامران بعد أن تنامي، ضحكاتهما وأُنسهما ببعضهما البعض كانا يهزّاني، وكنت أحترق كلّ الليل.

- لماذا لم تغضّ بصرك؟ لماذا لم تنبهني وتخبرني بما تحتاجه؟ ألستُ سكنك؟

- وكيف سأغضّه وهي مباحة أمامي، كان الحديثُ معها سهلًا. كُنت أُشاهدها وكأنني أُشاهد الفاكهة المحرّمة. جسدٌ رائعٌ وقوامٌ ممشوق، ووجهٌ جميل، وقلبي متعبٌ تُهاجمه الأفكار بقسوة، وأحيانًا برفق. حفظت كل جزء منها...حفظته عن ظهر قلب.

كانت نفسه قد اتسخت وبدا كلامه وكأنّه بحاجة إلى أن يُغسل بالماءِ والصّابون. حاولت «مريم» أن تقول شيئًا لكنها شعرت أن روحها تختنق. فتحت فمها لكنّها لم تُخرج الكلمات. خرجت أنفاسها متلاحقة وشعرت وكأنّ روحها ستتبعها. كانت تفعل كل هذا في غرفتهما الخاصّة فقط. لم تشعر يومًا أن هناك سببًا يدفعها لإظهار أنوثتها وعلاقتها الخاصّة مع زوجها أمام الجميع. لم يعطها الفرصة. لم يحبّها حقًّا. نعم؛ لم يحبّها يومًا، هذا ليس حبًا أبدًا. كانت «مريم» بالنسبة له زهرة اشتهى رائحتها فقط، ولمّا قطفها وذبلت زهد فيها والتفت لغيرها. ولن يشبع أبدًا.

كان يتأرجح بين اعتقاده أنّه ليس هناك شيء يُخالف الأدب إذا ما سرد لها تلك المشاعر التي أحسّ بها عندما أحبّ «ريم»، وبين رغبته في تمزيقها بشراسة، وكأنّه ينتقم منها؛ لأنها فقدت ملامح أنوثتها.كان مصرًّا على إخراج كلّ ما بجوفه من مشاعر. أراد أن يطعنها. ساد صمتٌ ثقيلٌ بينهما قبل أن يكمل:

- حتى العلاقة بينها وبين ابنها، وكيف تحضنه وتحمله بحنان، وتهمس في أذنه من آن لآخر بعبارات فيها دلال ترقق فيها صوتها، الوشوشة، الهمس بكلام حلوٍ إن أوشك على البكاء. كلّ هذا كان يجرجرني على جمر مشتعل.

شعرت «مريم»- وهي ترتعش خائرة الساقين- أن هاوية مدوّخة تنفتح تحت قديمها. تحدث «أحمد» بلهجة أكثر هدوءًا ولكنها كانت تظهر عدوانية مضمرة، وقال:

- الخطأ مشترك بيننا. لا بدّ أن تدركي هذا جيّدًا. عودي معي ولنبتعد عنهم وسأمنحك فرصة أخرى لتصلحي من نفسك.

سرت في جسدها لسعات وقالت بلهجة حادة:

- فرصة! أنت من ستعطني فرصة!

ثمّ ضحكت ضحكة ممزقة حزينة، وقالت:

- إنك سردت لي أشياءً كثيرة. كلّ أسرارك عرفتها على لسانك. لقد أصبح كلّ منّا عدوًا للآخر. أنت عارٍ تمامًا أمامي. أنت حقير وشهواني، ليس من حقك أن تشتهي زوجة رجلٌ آخر.

زفر بحنق، وقال:

- كيف أمكن لشخصين كانا قريبين جدًا إلى بعضهما حد الالتصاق أن يتعاملا كغريبين هكذا؟

سألها وكأنّه يسألُ صديقًا قديمًا. لم يكن في صوته علامة حنينٍ أو ندم. كان يلومها! أراد أن يؤلمها بشدّة، أن يلقي بالخطأ عليهما معًا. كان يشعر بالرغبة الملحة في البقاء معها رغم كلّ شيء، وكأنّها ضرورة من ضروريات الحياة.

صاح في وجهها فسقط قلبها سقوط ورقة الشّجر من الريح:

- لمي أغراضك ولنعُد للبيت.

استطرد قائلًا بحدّة:

- يؤسفني أن أكون قاسيًا. كنت أتمنى أن تغفري لي. لكن على أيّة حال لم أعد أُحبّك كما تعوّدت أن أكون. سأرحل الآن.

أدركت «مريم» أن كلّ الملامات التي ستوجهها له الآن لن تجدي

في شيء. خرجت غاضبة من غرفتهما بخطواتٍ وئيدةٍ مهزومة وصفقت الباب خلفها. شعرت بالبرودة تسري في أوصالها فجلست بهدوء في ركن المطبخ وأطفأت الأضواء. خرج «أحمد»مسرعًا كالإعصار من البيت وشفتاه ترتجفان. انتبهت «مريم» لوجود أُمّها التي كانت قد أنصتت لكلّ شيء، كان صوت «أحمد» عاليًا بالقدر الكافي ليخترق الجدران ويكشف القناع عن وجهه القبيح. أشعلت الضوء واقتربت منها بهدوء، ثُمّ لمست خدّها بحنان. أخبرتها «مريم» بصوت خافت وهي تتجرع عبراتها:

- أشعر أنني لست على ما يرام، أريد البكاء.

كانت تريدُ أن تجمع شتاتها، لكنّها لم تجد شيئًا لتجمع شتاته. سالت دموع الحنق على وجهها، الآن اتخذت قرارها، ستطلب الطلاق.

***

١٢

رغم الرياح الباردة المحملة بالأتربة كانت أجواء حفل خطبة «يوسف» و «سارة» دافئة وصافية. صالة بيت أبيها الواسعة احتضنت بأريحية أفراد العائلتين بودّ ملحوظٍ بين الجميع. حدّق «يوسف» في عيني «سارة» النجلاوين حتى أحنت رأسها متعثرةً في ارتباكها. كانت تعلم أنّ بوسعها أن تنتمي إليه دون غضاضة، فحتى لو كان يصغرها بعامين فقد تعملق بشخصه النبيل بقدر يكفي ليحتويها.

على غير عادته سابقًا كان «أُسامة» متوترًا جدًّا. ارتدى بزّة زرقاء فاخرة، وقميصًا أبيضَ ياقته مستديرة، وربطة عنقٍ مميّزة. أمّا رأسه المحلوقة فقد زادته وسامة، كانوا قد أزالوا جزءًا من شعره ليقطبوا جرح رأسه الذي أُصيب به في الحادث فاضطر لحلقه بالكامل. جلس أخيرًا ثُمّ أطرق مفكّرًا في أحوال شقيقته، لا يدري لماذا طلبت «مريم» الطلاق! مرّ أُسبوع على مغادرة زوجها للبيت، حاول أن يتواصل معه لكنّه لا يرد على مكالماته، وهي ترفض أن تبوح له بسبب خلافهما. كثرت التفاتات «أُسامة» وحركاته.

لم يطل مكثه في مكان واحد أكثر من نصف دقيقة. كانت أُمّه تتحدث كثيرًا مع «سليمان»، لا بدّ أنّها تسأله أن يقنع «أُسامة» ليخطب «ريتال». ما زالت تُلحُّ عليه من آن لآخر. وما زال يتجاهل الأمر ويؤجله.

بدأت ضحكات الموجودين تخترق أذنه وتهزّ رأسه. أضواء الزينة التي كانت تومض هنا وهناك شوشت أفكاره. كان محاطًا من كلّ جهة بزملائه، أكثرُ الحديث كان عن العمل، رشقوه بأسئلتهم فوقعت جميعها في مرمى واحدٍ فأوجعته...

- متى ستعود للعمل؟

- كل من بالمستشفى يسأل عنك.

- هل صرفت النظر عن تلك النظرية العلمية التي كنت عازمًا على إثباتها بالتجارب العملية؟

- هل ستسافر مرّة أخرى؟

- هل سبب لك الحادث نوعًا من فقدان الذاكرة؟

- العقبي لك، متى ستتزوج؟

- كلّنا تزوجنا، حتى «يُوسف» خطب «سارة»، متى ستتزوج يا رجل؟ لديك كلّ شيء!

- لا تتأخر عن العودة للعمل أكثر من ذلك، الطبّ والجراحة لا يُحبان الكسل، لا بُدّ أن تعود.

تذكّر فجأة ذاك الصوت الذي كان يخرج من صدره قبل أن يفيق من غيبوبته... «عُد إليه». شرد عنهم قليلًا وهو يسأل نفسه مرّة أخرى وكأنّه انتقل إلى هناك:

- من هو؟

عاد الصوت يتلجلج في صدره:

- «الله».

خلصوا نجيًّا وتركوا سؤاله عندما طال صمته، فاستدار مبتعدًا عنهم وانحنى على المطلّ يراقب الطريق الممتد أمام بيت الدكتور «أمين». عادت الرهبة تسكن أضلعه. حلّ ربطة عنقه وحاول أن يتنفّس بعمق وهدوء لعلّ نسمات الهواء البارد تهدىء من روعه. كانت أُمّه تشعر بما يعتمل في صدره من حيرة وخوف، ولم تملك إلّا الدعاء له. لحقت به فانحنى نحوها عندما أشارت له؛ لتتمكن من الهمس في أُذنه:

- سأعود للبيت مع صديقك «أدهم» فهو يستعد للانصراف. وقد تأخرت على جدّك.

- سآتي معك يا أُمّي.

- لا، لا. أرجوك، لا بدّ أن تنتظر حتى ينتهي الحفل، ثُمّ عُد مع إخوتك، من أجل خالك ومن أجل دكتور «أمين» وكذلك «يوسف».

على مضضٍ قبل بالأمر ورافقها حتى الباب، وانصرفت مع «أدهم»

كانت «ريتال» تتبعهما بنظراتها من بعيد. ثَمّة وجع هنا بين الضلوع. عادت تشارك شقيقها فرحته بقلب مهترىء. حتى متى ستنتظر؟

مسح «أُسامة» بنظراته حشد المدعوين باحثًا عن «ريتال» فاستقرت عيناه عليها أخيرًا فزال عنه التوتر. يُحبّها لكنّه لا يستطيع أن يقترب منها، أو أن يتزوجها! لماذا؟ لأنّه سيموت، فما فائدة أن يعذّبها ويتركها وحيدة لأنّه سيموت؟ الأفضل أن يتركها كتابًا مُغلقًا صفحاته بيضاء، لعلّها تتزوج من شاب آخر؛ لأنّه سيموت، سيموت، سيموت. سهمٌ من الماضي رشق ذاكرته فسالت ذكرى عابرة:

- «ريتال».

- نعم يا «أُسامة».

- ماذا تفعلين؟

- ألعب بدميتي مع «مريم».

- تعالي واجلسي هنا. حتى أنتهي من حلّ هذه المسألة، فلدي غدًا اختبار هام.

- حسنًا، سأفعل.

كان في العاشرة، وكانت هي وقتئذٍ في السادسة. استمتع دائمًا بتتبعها لخطواته، وسيرها خلفه طوال النهار وكأنّها ظلٌ له. انتماؤها إليه كان يُسعده. كان من شأن ذلك أن يُدخل الطمأنينة إلى نفسه. طالما هي هناك تنتظره، فسيكون حتمًا بخير.

جلس شاردًا يتفكّر في كلّ ما مرّ به حتى الآن. ولد وعاش وكبر وتعلّم وتفوّق وصار طبيبًا يُشار إليه بالبنان، وماذا بعد؟ سيموت ويبتلعه التُراب. تلك الجمجمة التي تُخفي حيرته، التي تتناطح فيها أفكاره، التي يُغتال فيها حلمه كلّ يوم ستتفتت في القبر. ما فائدة الحياة إذًا!؟ لماذا يعيش؟ اقترب منه «حسام» الذي كان يحمل ابنه «مروان»، ناوله لأخيه فاحتمله فرحًا به وبدأ يداعبه، انتشله الصغير ببراءته من غيابة الجُبّ. أخرجته نظراته الدَّهِشة من ظلمة الكهف. بشّرته حركاته العفوية، وضحكاته الجزلة بالخير فخرج مما كان فيه وزال همّه. بدأت الأفكار المتناطحة تستسلم واحدة تلو الأخرى وخلت الساحة من القتال. ارتسمت على وجهه أخيرًا ابتسامة كانت تشتاق لشفتيه وهو يراقب ابن أخيه ينعس على ذراعه. كان يلثمه كثيرًا

ويشمّه؛ فهو يُحبّ رائحة الصغار. نَعِم أخيرًا بصفاء ذهنه للحظات. ابتعد به عن الضوضاء حتى لا يفزعه. ما أروع أن تُراقب طفلًا يداعبه النعاس، ستصيبك حتمًا عدوى السعادة.

اقترب بخطواته منها بقصدٍ أو ربّما دون أن يشعر، لا يدري! التفت إليها وكانت تضعُ شالًا أنيقًا من الصوفِ على كتفيها، ابتسم لها بعفوية، كان في حاجة لأن يتواصل معها. تلك الابتسامة التي كان يمنحها إيّاها من آن لآخر كانت تزيدها أسرًا. لكنّ انسحابه الأخير بعد الحادث وكأنّه لم يطلب من أُمّه أن تخطبها أوجعها بشدّة. ألقت «ريتال» بالشالِ على جسد «مروان» الذي كان قد استغرق في النوم على ذراعه، ثُمّ انسحبت بلطف بعيدًا عنهما. وظلّت تراقبهما خلسةً وتنظر إليهما بنوع من العذوبة. كان شيء ما في علاقته بابن أخيه الصغير يؤثر فيها. ارتبك «أُسامة» وشعر برغبةٍ في أن يتحدّث إليها، لكنّه لم يقدر على البوح بمكنون صدره.

وصلت السيّدة «دولت» لبيتها، وقد تخشّبت يداها من شدّة البرد. كان البيت هادئًا كهدوء المقابر. لم تره بهذا المنظر من قبل. دلفت باحثة عن الدفء فأرهبها السكون الذي خيّم على كلّ شيء. سمع أبوها صوت خطواتها فصاح مناديًا:

- من؟ من بالبيت؟

هرولت نحو غرفته ودفعت دقّة الباب بلطف. أطلّت برأسها من فرجة الباب، وقالت بصوتٍ خفيض:

- أنا «دولت» يا أبي.

تنفّس أبوها الصعداء وأشار إليها لتقترب. قبّلت رأسه وكان جبينه يتفصّد عرقًا باردًا. سألته وهي تتحسس جبينه بظهر يدها:

- هل أنت مريض يا أبي؟ الجوّ باردٌ جدًّا وجبينك يتفصّد عرقًا!

رفع يده بهوانٍ وقال بصوت مرتعش:

- كُنت خائفًا يا ابنتي.

شعرت «دولت» بالذنب فقد تركته مع أُمّ صلاح وأُمّ فرحة وأوصتهما أن تعتنيا به جيدًا، لكنّهما كانتا بعيدين عنه ولم تسمعا نداءاته. فقالت تهدىء من روعه:

- لا تخف يا أبي، بيتنا أمان. عُدتُ خصيصًا من أجلك.

- الوَحشة يا ابنتي. أشعر أن وقت رحيلي قد آن، وأرجو أن يغفر لي ربي تقصيري.

ابتسمت «دولت» لأبيها وجلست بجواره وأحاطته بذراعها بحنان. مدّ أبوها غطاءه على ساقيها وغطّاهما، ثُمّ أسند رأسه على صدرها كطفلٍ

صغير يبحث عن الأمان في أحضان الكبار. ران عليهما صمت حميمي دافيء، قطعه صوته وهو يقول:

- أين «حُسام»؟

- ما زال بالحفل يا أبي.

- «حسام» يا ابنتي يحتاجك، فهو منك وأنتِ منه، فكوني له ما لم يكنه لك، كوني له السّند. أعلم أنّه جَفاكِ كثيرًا، وأثقُ أنّك تملكين قلبًا دافئًا كقلب أُمّك الغالية رحمها الله. لا تبتعدي عنه حتى وإن ابتعد هو عنك.

هزّت» رأسها طاعة لوالدها، وقد كان انصراف ابنها «حسام» عنها دائمًا يؤلمها. كانت دائمًا تتوق إليه، تشتاق للحديث معه، تودُّ لو كان عكّازها الذي تتكىء عليه فهو ابنها الأكبر، لكنّه كان يصُدّها ويتعلل بانشغاله بعمله. أردف أبوها قائلًا:

- أخبري «أُسامة» أن يلازم أخاه ويأنس به ويصبر عليه ولا يهابه عندما يصرخ بعصبية. أخبريه أنّ الأنسَ يُذهب المهابة، والانقباض يضيع المودة، ذكريه أن يتبسّط لأخيه.

مسحت «دولت» بلطفٍ العرق عن جبين والدها، وقالت:

- حسنًا يا أبي، لا تقلق.

تنحنح، وقال بصوت مرتعش:

- لتعلمي أنني فخور بكِ. أُمّك قد اعتنت بك جيدًا فأحسنتِ إليّ وكنتِ نعم الابنة البارّة. كما كنتِ لزوجك نعم الزوجة العفيفة الشريفة. عندما مات زوجكِ انفطر قلبي عليك، لكنّك صبرت وثَبُتِّ، ومرّت الأيام بمرّها على قلبك وكنت تحلّينها بأولادك. وعندما رأيتك يوم تخرّج «حُسام»، ثُمّ «أُسامة» اطمأن قلبي وسمن جأشي، فقد رأيت عليهما آثار نعمة الله فأدركت أنّه عوّضك بهما.

دمعت عينا «دولت» وشعرت أنّ أباها يوصيها وصية مودع فجاهدت لتُخفي عبراتها، وجلست تُنصت إليه وهو يوصيها بـ «مريم»:

- ابنتك عينُك، لا تغفلي عنها. هي تحتاجك، كُوني لها الصديقة والابنة والشقيقة، وإن استطعتِ الأب. ظللي عليها واطلبي من شقيقيها أن يمنحاها ذاك الحُب الأبوي الذي ابتليت بالحرمان منه. كُنت أحاول أن أقوم بهذا الدور قد استطاعتي، وأظنني نجحت. وحتى إن فرقتهم الأيّام يومًا أخبريهم ألّا يطول البعاد، فليُسمعاها صوتهما ويطوفا عليها كما يطوف الطير على الأغصان حاملًا للخير ومرفرفًا بجناح يقطر حنانًا وعطفًا وودا.

التقطت «دولت» دموعها التي بدأت تهرب من عينيها وتنهّدت تجترّها دمعة دمعة، وقد اهتزّت لكلام أبيها عن ابنتها. استطرد أبوها موصيًا لها:

- أعلم أنّ «أُسامة» مرّ بلحظات صعبة، قطع ذلك الحادث طريقته التي يعالج بها أُمور حياته، أخبرتك أكثر من مرّة أن طريقته هذه ستُتعبه. لكنّك لم تنبهيه.

ربّتت «دولت» بحنانٍ على كتفه. أرادت أن تمنحه المساحة كاملة ليفرغ كلّ ما بصدره من بوح، كانت تُنصت إليه دون أن تقاطعه. فقالت لتحُثّه على إكمال حديثه:

- أخبرني مرّة أخرى يا أبي، وكلّي آذان صاغية.

اعتدل مضحيًا بذاك الحضن الدافيء الذي كان مستمتعًا به كيتيم وجد أخيرًا من يشمله بعطفه، والتفت ليطالع وجه ابنته وهو يحدّثها، ازدرد ريقه بعصوبة، فقد كان حلقه يؤلمه، وقال بنبرة دافئة:

- وددت كثيرًا أن أُخبر «أُسامة» أنّه لن يُحسن أن يعيش حياته على التوالي.

رفعت «دولت» حاجبيها، وسألته متعجبةً:

- ماذا تعني يا أبي؟

- لم يُحاول «أُسامة» يومًا أن يعمل أكثر من عملٍ في آنٍ واحد. تعوّد أن يُنهي شيئًا ثُمّ الآخر. كان يظنّ أن تلك هي الطريقة الصحيحة في كلّ شيء. حتى عندما كان يتناول طعامه وهو صغير، أتذكرين؟

أطرقت «دولت» مفكّرة وتذكرت كيف كان ابنها «أُسامة» يأكل الأُرز أولًا ثُمّ الخضراوات، ثُمّ يُنهي وجبته باللحم اللذيذ. يؤجل أشياءَ مهمة حتى ينتهي من غيرها، يُؤجل الخروج والمرح مع أقرانه حتى ينتهي من دراسته أولًا بإتقان حتى النهاية، لم يقبل أبدًا عملًا منقوصًا، وكان ينتهي في الوقت الضائع؛ لهذا لم يجد من يخرج يومًا معه. أشار أبوها لكوب الماء فناولته له، تناول رشفة ليبلل حلقه وشفتيه، ثُمّ استطرد قائلًا:

- الآن يؤجل الزواج حتى ينتهي من طموحه العلمي الذي لن ينتهي. وبعد الحادث صار يؤجل حياته كلّها ظانًّا أن القرب من الله مهمة سيتم إنجازها في وقت مُحدد، وكأنّ حياته ومهنته وعمره سينتظرونه على الطريق. ماذا لو تأخّر الموت عليه كما تأخّر عليّ؟ ماذا لو كُنت أعيش حياتي مثله؟ أخالني كُنت سأعيش وحيدًا في هذا البيت. ماذا لو لم يكُن لديّ ابنة بارّة مثلُك ترعاني وتُطعمني وتحممني وتعطف عليّ وتتحدث إليّ وتُنصت بصبرٍ طويل!. أبناؤك ملأوا عليّ البيت فنمت بينكم قرير العين. وأظنّك ستدعين لي بعد أن أموت إن شاء الله. هل يقدر «أُسامة» على الحياةِ وحيدًا؟ حتى متى سيؤجل «ريتال»؟ لماذا لا يتخذها زوجة طيّبةً ويُحبّها على التوازي وهو يمضي في طريقه؟ هي ليست قطعة الحلوى المفضلة التي سيُخبئها ليأكلها في وقتٍ لاحق. هي نفسٌ أخرى تتمنى وتتوق للحب، وقد تعففت كثيرًا وهي تنتظره.

كانت «دولت» تتمنى ابنة أخيها زوجة لابنها، أدركت بحكمتها وفطنتها أن»ريتال» لديها قلبٌ طيّب، ناعمٌ بطبيعته إذا اتصل بمحبوبٍ يصعب عليه أن ينفصل عنه، وعلاقتها مع من تُحبهم كالضياء مع الحرارة لا يفترقان، كانت تعلم أنّ «أُسامة» سيتثبت من طبيعتها تلك بنفسه عندما يتزوجها، لكنّه كان ينحّي أمر الزواج جانبًا بسبب العلم، فهو يخطط لحياته بالقلم والمسطرة، والآن بسبب الخوف من الموت.

تسارعت أنفاس والدها، وبدأ ينتفض. قال بصوت واهن:

- أخبري «أُسامة» أن يُحب وهو على الطريق، يعمّر في الأرض، وينشر العلم وينفع الغير ليكسب أضعاف عُمره بركة في الإيمان، والعمل، والسعادة في الدارين، فعندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة. الموت آتٍ لا ريب. فليعُد إلى الله، ولتكن حياتُه كلّها لله. حتى زواجه.

بدأ الجدّ يسعل فقد تحدّث طويلًا. عاد واستند برأسه على صدر ابنته مرّة أخرى. استسلم للنعاس الذي كان قد بدأ يداعب جفونه. أسندت «دولت» رأسها على ظهر الفراش وهي ما زالت بجوار أبيها. أطرقت تُفكّر في كلّ كلمة سمعتها منه وعيناها تهميان.

❋ ❋ ❋

على نحوٍ مباغتٍ تمزّق أستار الصمتِ صرخةُ ألم، ثُمّ تلاشت وسط دياجير الليل. اجتمع كلّ من بالبيت. اندلع صوت بكاءٍ متواصل، توجهت الأنظارُ ناحية الفراش، لفظ الجدّ أنفاسه الأخيرة!

وقف «أُسامة» يحدّق في وجه جدّه، يبدو نائمًا، ساكنًا. كانت الحياة تدبّ في جسده منذ لحظات. يا إلهي! أين ذهبت روحه؟ كيف توقف كلّ شيء فجأة! تبدّلت أمام عينيه كلّ صفحات الكتب التي قرأها ودرسها في عالم الطبّ. تلك المعجزات التي تموج في قميص من الجلد كلّنا نرتديه. توقف هذا الكيان فجأة! سبحانك ربي!

وقف مشدوهًا فقد رأى الكثير من الأموات، ولازمهم خلال لحظاتهم الأخيرة، راقبهم وأرواحهم تغادر أجسادهم، لازمهم وهم يتألّمون، وكثيرًا ما وقف عاجزًا عن تقديم المساعدة لهم. رأى حوادثَ مفجعة. كان يتأثّر ويهتزّ، ولكنّ ليس بتلك الطريقة! خلال الحادث الذي تعرّض له، جرّب بنفسه أن يقترب من الموت ذاك الحد القريب، وجهًا لوجه، رأى وجهه مكشوفًا، لامست أنفاس الموت الحارقة وجهه، كاد أن يقضي عليه بالضربة القاضية. بدت الدنيا له ككهفٍ حقير تتصاعد رائحة الماءِ العفن من أرضيته المتآكلة. وجهها ظهر بزينته قبيحًا كعجوزٍ لها عينان ككهفين مظلمين.

تذكّر صوت «فرحة» وهي تخبره عن الكابوس الذي كانت تحلم به.

ترددت كلماتها في أُذنيه «لا بدّ أن أُحذّرك، هناك من سيموت بهذا البيت». أجفل وران عليه صمتٌ مهيب لم ينتبه خلاله لانهيار أُمّه وبكائها الشديد. مدّ يده ومسح على رأسها واحتواها في حضنه. كاد أن ينسى الحادث، كادت ضحكات الصغير في الحفل تنسيه أن الموت يلاحقه. ظنّ أن الخوف قد غادر صدره وحلّ الأمان محلّه للأبد. لم يشفى الجُرح بعد. لا بدّ أن أعود إليه.

ازدحم البيت بالأهل وكان «أُسامة» يسير بينهم وكأنّه لا يراهم، كان كلّ ما يشغله هو جدّه. أراد أن يُساعده، ولكن كيف! كان «كمال» يلازم غرفة والده، ظلّ يقرأ القرآن منذ دخل البيت ويصلّي ويدعو له. سيدفنوه بعد صلاة الظهر، ولا بُد أن يُعدّ الآن للغُسل.

- «أُسامة»، قُم معي هيّا.

- إلى أين يا خالي؟

- سنُغسّل جدّك.

- ماذا!

دلف مع خاله «كمال» وابن خاله «يوسف» حيث كان جدّه مستلقيًا وبدأوا يخلعون عنه ملابسه برفق. بكى خاله «كمال» وهو يحمل أباه ويثني جذعه ليعصر بطنه ليخرج ما فيها ويغسله وينظفه.

خشبة الغسل، منظر السدر وهو يذوب في الماء ويُحدث رغوة، الكافور ورائحته النفّاذة وملمسه ولونه الأبيض، الكفن ذو الثلاث طبقات. وجه جدّه بعد أن انتهوا من تغسيله وتكفينه. المسك وهو يضعه على جبهته ومواضع السجود. خرج «أُسامة» من الغرفة بروح جديدة لم يعرفها من قبل. طرح الدنيا خلف ظهره، وحمل بعد الصلاة نعش جده، ومضى سيرًا نحو القبر.

لم يفارق المقابر بعد أن قفز داخل القبر ومدد جسد جدّه وحلّ عقدة كفنه بنفسه، حاول «حسام» أن يقنعه أن يعود معه للبيت، لكنّه أبى. كانت دموع صامتة تنهمر على كنزته وعلى الأرض. انصرف المعزون وعاد «حسام» وخاله «كمال» و«يوسف» للبيت لاستقبال العزاء. أمّا هو فجلس يقرأ القرآن ويدعو لجدّه. غربت الشّمس وهو على حاله وصديقه «سليمان» يجلس بجواره على الأرض. قام أخيرًا عندما ألحّت عليه أُمّه وتوسلت إليه على الهاتف. هبت الريح مرّة واحدة فانتابته قشعريرة. ما عادت لديه الرغبة في الحياة.

* * *

١٣

لون السماء الرمادي انعكس على البيت وأعطاه سحنة حزينة. غرق الجميع في السواد وأُقيم سرادق كبير للعزاء أقبل عليه الأقارب، والمعارف، وجيران الحيّ ليعزّوهم في فقيدهم. مرّ الوقت ثقيلًا على الجميع. لم تتأخر جارتهم السيّدة «رقيّة» عن الحضور وكانت كعادتها أوّل من يصل. وكأنّها من أهل البيت. صوتها العالي وملاحظاتها على كلّ شيء. وكلامها مع كلّ من تدلف من الباب جعلها محطّ أنظار الجميع. كانت «دولت» تعاملها بحرصٍ لأنّها تُكثر من نقل الأخبار من هنا لهناك. مرّ «حسام» بجوارها فتناهى إلى سمعه حوار لها مع جارة أخرى. ارتج القول عليه فتسمّر مكانه، وهربت الدماء من رأسه. شعر وكأنّ هناك من طعنه بخنجرٍ في صدره.

بدأ العرق يقطر من جبينه ويرسم هالات داكنة تحت ذراعيه. ركض كالمحموم وصعد- ثلاثًا ثلاثًا- الدرجات المؤدية إلى جناحه بالبيت. وجّه ضربة عنيفة من قبضة يده إلى الباب الذي أخذ يرتجّ وفتحه ودلف إلى الغرفة كالإعصار. لم يعرف تحديدًا سبب صعوده لبيته، إلا أنّه كان

مدفوعًا برغبةٍ عارمةٍ في التفتيش..أراد أن يبحث عن شيء ما، أن يكتشف أيّ شيء.. قلَب المنزلَ رأسًا على عقب باحثًا عن هاتف «ريم» الجوّال فلم يجده. قرر أن لا يبحث عنه فلا ريب أنّها لا تراسله على الهاتف فهو أمامها طوال النهار. تذكّر فجأة السحابة السوداء التي تحوم فوق رأسه. زوج أختي وزوجتي! قفز أمامه المنظر المُريعُ فأفزعه. وجد ورقة مطوية بعنايةٍ فتسارعت دقات قلبه، سريعًا ما كرمشها وألقاها أرضًا بعد أن قرأ فيها وصفة لإعداد قناع للبشرة. علبة أنيقة من القطيفة الحمراء! ارتجفت يده وهو يُمسكها، اكتشف بعد لحظة أنها علبة الهدية التي اشتراها لها منذ أيّام. دفترٌ صغيرٌ! لا بدّ أنّها مذكراتها، قلّب صفحاته فلم يجد سوى بعض أرقام هواتف زميلات دراستها، جنّ جنونه فأطاحها على الأريكة في غمضة عين.

تنتابه ارتعاشات عندما يتذكر الهمس الذي وصل لمسامعه. كانت جارتهم العجوز السيدة «رقيّة» تصف لزوجة المستشار التي تقطن في البناية المقابلة لبيتهم على الجانب الآخر من الشارع كيف أن «ريم» تلتقي بـ «أحمد» على سطح البيت بعيدًا عن أعين الجميع.

- المسكين لا يدري ما الذي يحدث في غيابه.

- وما الذي يحدث؟

- الغراب الأحمق «أحمد» كان يصعد على سطح البيت كلّ ليلةٍ

وينحني على المطلّ حتى يراها من النافذة. رأيتهما مرّة يضحكان مع ابنها فوق سطح البناية.

- الوقح! ولكن أين «مريم»؟

- يقولون مريضة.

صرخ بحنق: «يا لها من خائنه!».. صعد كالإعصار لسطح البيت حيث كان لقاؤهما كما قالت العجوز. اقترب بخطًى حذرة من حافّة المطلّ فوق نافذة غرفتهما في جناحهما الخاص بالبيت. انحنى إلى الأمام وكانت النافذة مفتوحة فرأى منظرًا أفجعه. المصابيح مضاءة والغرفة كلّها مكشوفة. الأريكة التي تتمدد عليها زوجته طوال النهار وهي تشاهد التلفاز تظهر بالكامل لمن ينظر من أعلى. تذكّر كيف كانت تهاتفه طوال اليوم وتُلح عليه أن يعود، أن يحدثها قليلًا، أن يأخذها لبيت أُمّها؛ لأنّها ملّت من الجلوس وحيدة. حياتهما الزوجية بنيت على نوع من سوء الفهم، فتركت هي كل شيء من أجل أن تكون أُنثى وحسب، حتى إكمال دراستها بالجامعة تركته دون رجعة. لم تحاول القيام بأيّ دور في البيت. حتى ملابسه لا تعلم عنها شيئًا، فأمّه مسئولة عن غسلها وكيّها وكلّ شيء. تنظيف جناحهما كانت تطلب بكلّ فجاجة من حماتها أن تُرسل من يقوم به، لم تُكلّف نفسها بطلبه مباشرة من الخادمة. وهو بدوره أكثر من العمل خارج البيت ليكسب المزيد

من المال ظانًّا أن الماديات أهم من العواطف والكلام عن الحب واحتواء زوجته. اختصرا كلّ شيء في الحقوق الزوجية الخاصّة جدًّا، حتى لا يشعر أحدهما بالذنب تجاه الآخر، والبيوت لا تقوم على هذا فحسب.

الآن قد انتبه! يبدو أنّه كان في غيبوبة. بل كلاهما كان في غيبوبة.

هرول كالطفل المفزوع إلى أُمّه التي دلفت لغرفتها لتتناول الدواء ثُمّ تعود للمعزّين. جلس حذوها في صمت. بكلمات مبعثرة وبلسان متلعثم أخبرها عمّا سمعه من همس بين الجارتين. ازدردت ريقها بصعوبة، وطالعته بنظرة حائرة، وقالت:

- كانت مرّة واحدة وهو الذي صعد خلفها، وهي تحاول تعريض ساقي «مروان» للشمس ولم تتكرر. طردته أُختك من البيت.

- إذًا، الكلام صحيح!

- من جهته هو، أمّا زوجتك فلا.

- وما أدراكِ؟

- «ريم» أخبرتني، كان يراسلها على الهاتف والفيسبوك. كان يطاردها وينصب شباكه حولها. ظنّت كما ظننا أنّه تعلّق بابنك «مروان». واكتشفنا أنّه يتقرّب منها. عيناه كانتا تتفحصاها من رأسها لأخمص قدميها.

- سأُطلّقها.

- ماذا؟ هل تمزح؟

قالتها وهي تضع كوب الماء على الطاولة لئلا تدعه يسقط أرضًا.

- كيف سأثق بها بعد الآن؟ أنا أحترق.

- «ريم» انتبهت للأمر في الوقت المناسب، رأيت الرسائل بنفسي.

- كيف؟

ارتبكت «دولت» فهي لم ترغب في رشّ الملح على جرحه المفتوح. بالطبع لن تُخبره أن «أحمد» صرّح لها بالحبّ. قالت بصوت يرتجف:

- «ريم» أخبرتني بنفسها وأحضرت لي هاتفها وسمحت لي أن أطلع على الرسائل كلّها. أمّا أنا فأخبرت أختك «مريم» التي كانت تُحسّ بزوجها منذ فترة.

- ماذا كان يكتب لها.

- كان يحدّثها عن أيّام الجامعة وكيف كان يكتُب الشعر، كتب لها الكثير من الأبيات، وأثنى عليها كثيرًا. لم تفهم «ريم» ما كان يرمي إليه، ظنّتها أشعارًا كتبها عن حبّه لأختك، أمّا هو فكان يقصدها هي.

- هل صرّح لها بالكلام.

شعرت «دولت» أن حلقها جاف، وكأنها ابتلعت كومة من الأشواك، قالت بصعوبة:

- لا. أُختك «مريم» انتبهت وواجهته فدار بينهما نقاش حاد، وطلبت الطلاق كما تعرف أنت.

- كُنت أظنّها طلبت الطلاق بسبب ضيق المعيشة، أو بسبب تغير حالتها النفسية خلال حملها، ظننت أنّها ستتراجع عندما تهدأ، لم أعلم أنّ كلّ هذا يحدث بالبيت، ماذا أفعل يا أُمّي.

- ما أخبرتك به دائمًا وكنت تغضب منّي، زوجتك لك وحدك لا تجعلها متاحة للجميع، كُن أنت حصنها وأمانها.

- وماذا سأفعل! أخبئها؟

- لا. ولكن اقترب منها إلى ذلك الحد الذي يجعلها تطيعك حبًّا لك وليس خوفًا منك، طاعة المحب للحبيب وليس طاعة العبد لسيّده. املأ حياتها فالفراغ الذي كانت تعيش فيه جعلها سهلة المنال. أين كُنت أنت عندما احتاجت لمن يتحدّث معها، لماذا أهملت إشباع عاطفتها يا ولدي؟

عضّه الندم في تلك اللحظة. تسلّطت عليه كلّ اللحظات التي بدا فيها لنفسه جاحدًا وقاسيًا على زوجته. نسي كل ما قدّمه لها من حبّ وتلاشت

كلّ الذكريات الحلوة. «أنا السبب..انشغلت عنها» همس لنفسه حائرًا، وهو يفتش بعينيه في كلّ مكان.

كانت تلك الحقيقة التي لم يتجرّأ على النظر إليها وجهًا لوجه. ترك نفسه يتهاوى على المقعد، وأمسك رأسه بيديه، وقال:

- وكيف سأتغلب على شعوري بالشك، ما عُدت أثق بها.

- عندما تقترب هي من الله ستطمئن أنت، لأنها ستطيعه. فكيف ستخشى ممن تخاف الله! اهدأ يا ولدي، ولا تدع الشّك يُفسد عليك حياتك. خرج «أحمد» من البيت ولن يعود مرّة أخرى. لا أظن أن أُختك ستسامحه.

- لماذا لن تسامحه هي!، وأنتِ تطالبيني بأن أُسامح زوجتي؟

أطرقت أُمّه قليلًا، ثُم استدارت لتواجهه، وقالت بجديّة:

- لأنّك سبق وأخطأت.

تلعثم وارتجفت يداه وأشاح بعينيه عن وجه أُمّه، وقال:

- كان مجرد مزاح يا أُمي مع بعضُ المعارف على الإنترنت.

- وكان أصدقاؤك السبب. كُنتم تتحدثون إلى فتياتٍ على الإنترنت، وكنتم تفتخرون بهذا، ضحك ومزاح ونكات تافهة، بعضهن كما أخبرتني

كنّ يغازلنك أنت وزملاءك، وكنت تُخفي هذا عن زوجتك.

- تعلمين أنني توقفت عن هذا الأمر. أنا الآن أهتم بعملي.

- هل أحببت يومًا فتاة من هؤلاء؟

- لا.

- هل تظن أن زوجتك أحبّت «أحمد»؟

- لا. ربما.. نعم... لا أدري.

- لا يا بنيّ، عندما نلمس الجانب الطيّب في نفوس الآخرين، نكتشف أنّ هناك خيرًا كثيرًا لا تراه العيون، وقد لامست هذا بنفسي في زوجتك. كانت حواراتها معه سطحية، عن «مروان» وعنك. كانت تسأله كثيرًا عن «مريم». هي أخطأت بالفعل والخطأ كبير، ولكنّها كانت على وشك أن...

- تحبه، وتعشقه، وتخونني، أليس كذلك؟ أليست تلك خيانة؟

- استعذ بالله من الشيطان يا ولدي، كانت عرضة لخطرٍ شديد، وأظنّ هذا دينٌ يُردُ لك فكما تدينُ تُدان.

- أنا لم أُخطىء يا أُمّي.. تُوقفت، أنا غارق في عملي حدّ الجنون به.

- تُرى هل انشغلت فقط بعملك؟ هل لو أُتيحت لك الفرصة ستعود لتلك الدردشة التي لا تليق بك؟ فتّش في صدرك وراجع نفسك. هي لم

تتحدث أبدًا بطريقة منحرفة. لكنّها لم تحمِ نفسها.

- ألم تعديني أنّك لن تخبري أحدًا.

- ولم أُخبر أحدًا يا ولدي؛ لأنني أعلم أنّك تُبت، أنا أُمّك وقد سترتُك يا قرّة عيني. لو كنت أشك للحظة في طهارة زوجتك ما تراجعت عن إخبارك بنفسي. هي أخطأت برعونة لا ريب، وتحتاج لوقفة وتذكرة واحتواء. لا بدّ أن تتعلم أن تضع لنفسها حدودًا، سلوكها أمام النّاس لا بدّ أن يكون مختلفًا عن سلوكها معك في البيت.

- سأتحدّث معها.

- كُن حكيمًا.

- لا أدري.

خرج غاضبًا من الغرفة وترك أُمّه وحيدة. أسرعت إلى المطبخ وهمست في أُذن «فرحة»:

- أخبري «ريم» أن تلحق بي في غرفتي.

أسرعت الصغيرة حيث كانت «ريم» تجلس بين جمع من النساء وأخبرتها أن تلحق بحماتها في غرفتها فأسرعت إليها. طرقت «ريم» الباب بتوتر ودلفت حاملة ابنها «مروان» الذي كان نائمًا. وضعته بهدوء على

فراش حماتها التي التفتت إليها، وقالت بحزم:

- أغلقي الباب بالمفتاح، واقتربي.

أغلقت «ريم» الباب وعادت لتجلس حذوها بريبة. كانت قلقة فقد شعرت أنّ هناك شيئًا ما!

- أتعلمين لماذا طلبت «مريم» من «أحمد» الطلاق؟

- لصعوبات مادية، أليس كذلك؟

- بسببك.

امتقع وجهها وصار باهتًا، ثُمّ بدأت شفتاها ترتجفان، وهي تقول:

- ماذا؟

حدّقت «دولت» في الأرض أمامها، وقالت:

- «أحمد» يُحبّك.

شعرت «ريم» باشمئزاز شديد، وقالت بعصبية:

- مجنون.. إنّه مجنون.

- لماذا كُنت تراسلينه وتتواصلين معه على الإنترنت.

- كما أتواصل مع أبناء عمّي وخالي.

- رأتكما جارتنا السيّدة «رقيّة» على سطح البناية منذ أسابيع.

- كنت...

- أعلم، تحاولين تعريض «مروان» للشمس. فالحديقة لا تصلها الشمس؛ نظرًا لارتفاع البنايات حولنا.

- كانت مرّة....

- أعلم أنّها كانت مرّة واحدة ولم تتكرر، لكن الجيران رأوك معه. ومرّة واحدة كانت تكفي فالناس عيون وآذان. للأسف سمع زوجك همسهم اليوم عنك، وجاءني وهو يحترق.

- وما ذنبي؟

- كان من المفروض أن تنتبهي بعدها ولا تتواصلي معه بتلك الطريقة الحميمية على الإنترنت.

- هو من سعى لإضافتي على موقع «الفيسبوك».

- والهاتف؟

- طلب رقمه منّي، فأحرجتُ منه.

- لماذا لم تصدّيه عندما بدأ يغازلك بالأشعار.

- ظننته لم يقصدني، وفهمت متأخرًا خُبث نواياه. ليس خطئي!

- أخبريني إذًا ماذا كُنتِ تقصدين بـ «أنت رائع، أنت خفيف الظلّ يا أحمد، يا لك من رجلٌ مميّز، لو أنجبت «مريم» طفلًا يُشبهك حتمًا سيكون وسيمًا جدًّا» وقوله لكِ قبل أن يُصرّح لك بالحبّ «كلّما تخيّلت عينيك تقرأ الحرف ابتسمت!»

عَبَر ظلٌّ وجهَ «ريم»، ثُمّ قالت:

- مجرّد مجاملة!

- بل مدحٌ دفعه للجرأة معك في حديثه.

- له زوجة، ولي زوج، ظننتُ ألّا مجال للتفكير في الخطأ!

- وقد وقع الخطأ. لماذا لم تخبري زوجك؟

- خفت من عصبيّته.. أتجنب المشاكل.

- لماذا لم تُخبريني؟

- أوكنتِ ستصدقيني؟

حملقت «ريم» في وجه حماتها التي أغمضت عينيها لوهلة، ثُمّ قالت:

- لو جعلتِني أقرأ الرسائل كُنت سأُصدّقك. أتعلمين يا «ريم»؛ عندما انتقلا للإقامة معنا هنا بالبيت كان يراك أمامه طوال النهار بكامل زينتك. كُنت جميلة، كُنتِ ناعمة، بنطال ضيّق يظهر قوامك، فستانٌ ناعم يبدي

بشرتك. كُنت تتدللين أمامه. كُنت متاحة للنظر والتأمّل في غياب معظم من بالبيت؛ فَفُتِن بك، بينما كانت»مريم» مريضة.

- وما ذنبي أنّ «مريم» مريضة؟

- كانت نوافذك مفتوحة، الضحك متاح، التبسط، المزاح بلا حدود، الاتصال في أيّ وقت، ترقيق الصوت والدلال وكأنّك في بيتك.

طالعتها «ريم» بنظرة ارتيابٍ قصيرة، وسألتها:

- أليس هذا بيتي؟

- هو بيتك، ولكن هناك رجل غريب فيه! هناك حدود!

- أتحاسبينني؟

رفعت السيّدة «دولت» عينيها بإشفاقٍ، وقالت:

- لا يا ابنتي، أنا أعرف لبّ الحياة وأنت تعرفين القشور. نحن النساء من نضع الحدود لكلّ من يتعامل معنا. لكِ أن تكوني أنثى، ولكن ليس أمام كلّ الرجال. سلوكك أمام الغرباء لا بدّ أن يختلف عنه أمام زوجك. الضحكة والهمسة والكلمة والالتفاتة تختلف. والملابس تختلف.

- ليس ذنبي أن هناك حيوانًا جاء ليقيم معنا بالبيت! أنا مسئولة عن نفسي فقط.

- يا ابنتي؛ أنتِ لا ترين إلّا نفسك، كُفّي عن الحملقة في مرآتك، أحيانًا نحتاج لتحويل المرايا إلى نوافذ لكي نرى الآخرين بدلّا من أنفسنا فقط.

تاهت نظرات «ريم» ولم تجد ما تعلّق به. فأردفت السيّدة «دولت» قائلة:

- زوجك غاضب، وسيتناقش معك في الأمر.

رمتها بنظرة ثاقبة، وقالت بعصبية:

- وماذا قلتِ له؟ بالطبع شكوتني. هنيئًا لكِ خراب بيتي، كُنت أعلم أنّك تكرهينني منذ وضعت قدمي بهذا البيت.

تجرعت السيدة «دولت» كلماتها على مضضٍ، واستطردت قائلةً:

- أخبرته أنّك لجأتِ إليّ، وأنّك قُمت بإعطائي هاتفك بنفسك لأقرأ كل رسائل «أحمد». وأنّك كرهتي منه تلك الطريقة في رسائله. وأنني كُنت معك خطوة بخطوة. وأنّك لم تخطئي. وأنّ حديثه كان عن الأشعار التي كان يكتبها في الجامعة، وظننتِ أنّها عن «مريم» ولكنّك عندما فطنت لخُبث سريرته أغلقتي الباب في وجهه.

تململت «ريم» عندما سمعت الكلام، وقالت بعصبية:

- تعرفين بما في الرسائل بالتفصيل! إذًا تتجسسين عليّ!

- «مريم» أخبرتني.

علت وجهها حُمرة الخجلِ وبدأت ساقها تهتزّ، سألت بارتباك:

- هل «أسامة» يعلم بالأمر؟.

- لا.

اغرورقت عيناها بالدموعِ، وهي تقول:

- ماذا أفعل؟

سحبت السيدة «دولت» نفسًا عميقًا، وقالت بنبرة هادئة:

- امتصّي غضبه واصبري عليه. وتمسّكي بنفس الرواية «أخبرت والدتك وأعطيتها الهاتف وهي اهتمت بالأمر»، وإن طلب منك هاتفك فلا تمنعيه عنه.

- كُنت أحذف الرسائل بالفعل. كنت أخاف أن يغضب. وعندما تطاول «أحمد» سببته وقاطعته. حتى أنني أصبحت أحبس نفسي بالأعلى طوال فترة وجوده بالبيت.

- أنا أُصدقك، ولكن تعلمين جيّدًا أنّ زوجك لو أراد الوصول إلى الرسائل سيصل إليها فهو ماهر في تلك الأمور.

اصطبغ وجهها خوفًا وبدأت ترتجف، ثُمّ انهارت باكيةً، وقالت:

- كُنت أتسلّى فقط. شعرت بالوحدة. وكنتم غائبين عن البيت. «مريم» كانت نائمة طوال النهار. و«حسام» كان معك بالمستشفى لم يكن لديّ أحد أعتمد عليه بالبيت. ظننته صديقًا وفيًّا، وكأنّه أخي.

- هل تحبين «حسام»؟

- نعم. هو روحي وأنتِ تعلمين.

- وهو يُحبّك وأنا أعلم. حبٌّ لا مشروط ودائم. تعرضتما فقط لهزة عنيفة فلا تفزعي.

- ولماذا أفزع! أنا لم أُخطيء!

- بل أخطأتِ، وكُنتِ على وشك الوقوع في بئرٍ عفن، الفراغ يا ابنتي هو السبب. لم تشغلي نفسك بشيء يملأ الوقت. جعلتِ من نفسك فريسة سهلة لشيطانٍ ماكر. حتى «مروان» غالب الوقت ليس بين يديك. حافظي على بيتك وعشّشي عليه. ولا بدّ أن يقلل «حسام» من وقت غيابه عن البيت وينتبه لك ولولده.

ران عليهما صمت ثقيل. حملت «ريم» ابنها، وكادت تخرج من الغرفة فاستوقفتها السيدة «دولت»، وقالت:

- لا تصعدي الآن، وانتظري حتى ينصرف المُعزون. لو رآك «حسام»

تصعدين الدرج سيلحق بك وسيتشاجر معك. ولا تنسي، تمسّكي برواية واحدة «أخبرت والدتك وأعطيتها الهاتف، وهي اهتمت بالأمر».

- وماذا لو فتّش بطريقته، وقرأ الرسائل كاملةً.

أطرقت السيدة «دولت» قليلًا، ثُمّ قالت:

- سيشفع لك أنّك لجأتِ إليّ. سأقف معكِ ولكن لديّ شرط واحد.

- ما هو؟

- مهما تعصّب وحتّى لو أخطأ وأساء إليك تحمليه، لا تتركي بيتك والزميه، وليس هناك داعٍ أن تصل القصّة لوالديك، دعينا نعالج مشاكلنا بيننا يا ابنتي.

- ولو طلّقني أو ضربني؟

- لن يفعل.

- ولو فعل؟

- الزمي غرفتي فأنا أُمّك. ولو ظلمك سأقف له.

خرجت «ريم» وحاولت السيدة «دولت» أن تنهض. كانت جملة الانفعالات أكبر مما يتحمله جسدها المكدود. التفتت فإذا بعصاة أبيها العجراء التي كان يتكيء عليها بجوار فراشها. من أتى بها إلى هنا؟ وكأنّه

أرسلها كميراثٍ لها قبل أن يرحل لتستند عليه! سالت دموعها على وجنتيها فكفكفتها بوجلٍ، ثُمّ سحبت العصاة وقامت رغم التعب الذي كانت تراكمه، اتكأت عليها لتنهض وقد أوجعتها ضربات الدهر. سارت منهكةً على نفس خطا أبيها. استدارت للمعزين كابحة مشكلات أبنائها حتى تبدو في مظهر لائق.

***

انفضّ العزاء وخلا البيت من الغرباء، ترك «أُسامة» البيت وذهب إلى المسجد الذي لجأ إليه من قبل، تبعه «سليمان» حيثُ قرر أن يلازمه. بقي أهل البيت وقد غشيهم صمتٌ مهيب. قام «أحمد» الذي كان قد جاء ليعزيهم ظانًّا أن الأمر لم يُكشف إلّا لزوجته، حيّاهم واستعد للانصراف. رماه «حُسام» بنظرة صارمة أوقفته مكانه. استدار مواجهًا لباب الخروج وكاد يخرج منه لولا أنّ «حسام» جذبه من ذراعه وجمع أصابعه في قبضةٍ واحدة، ثُمّ لكمه لكمة قويّة ارتجت لها أسنانه. جُرحت شفته السفلى وسالت الدماء من فمه. وقفت «دولت» بينهما واحتضنت ابنها بينما هرب «أحمد». خرج مذعورًا من الباب وهو يخفي فمه بكفّه المرتجفة. انصرفت «مريم» إلى غرفتها باكية في نشيجٍ مسموع، بينما صعدت «ريم» إلى الجناح العلوي وهي تحتضن ابنها وقد هربت الدماء من وجهها. كانت تترقب

اقتحام زوجها للباب وثورته، هي تعلم أنّه سيصرخ، وتعلم أنّه سيجرحها بالكلمات. شعرت بالخجل من السيّدة «دولت» فهي لم تتخيل أن تكون هي الملجأ الذي تحتمي به عند أوّل أزمة تمرّ بها، كانت تظنّ أنّها ستكون هي سبب الأزمات. جلست تتأهّب للهروب منه إن لزم الأمر، سترحل إلى بيت أبيها إن جَرح كرامتها فهي لم تخطيء، ما زالت ترى نفسها ضحيّة حتى وهي على يقين أنّها تساهلت مع «أحمد» في المزاح والحوار، وأنّ جلوسهما مع «فرحة» وهما يشاهدان التلفاز معها لساعاتٍ طويلةٍ في غرفة المعيشة أثناء مرض «أُسامة» وغياب أُمّه عن البيت كان من الخطأ. لم يتحرّك الجدّ من غرفته ولازمه دائمًا «سُليمان»، وكانت «مريم» في غالب الأحيان واهنةً، مريضةً، ضعيفة، لا تُحسن الوقوف ولا تقوى على السير. كان يجدر بها أن تلازمها وتعتني بها.. الآن بدأت تلوم نفسها.

«الحمد لله» قالتها بعد أن زفرت زفرةً طويلة. الآن تعلم أن الله نجاها من كربٍ عظيم ولا ريب سينجيها مما هو أعظم. بدأت تهيء نفسها لاستقبال الموجة العاصفة، قررت أن تتحمل كلّ كلمة سيلفظها زوجها عندما يعود، لن ترد ولن تدافع عن نفسها، ستتمسّك بما أوصتها به حماتها. تناهى إلى سمعها صوتُ خطواته السريعة وهو يصعد الدرج، أجفلت عندما صفع الباب خلفه. جلست تبكي وهي ترتجف. بدأ صياحه يملأ البيت ثُمّ هدأ

فجأة. جلست السيّدة «دولت» تواسي ابنتها «مريم» التي كان البكاء قد نزع قميص قلبها المكلوم حتى هدأت قبل أن تتركها لتنام. عادت أخيرًا وهي تتكىء على عصاة أبيها إلى غرفتها وأغلقت الباب. لم يغمض لها جفن وهي تنتظر. رفعت كفيها ودعت الله أن يرفع الغمّة عن أبنائها. طلع الفجر وأوشكت الشمس أن تنزع حجابها تمامًا؛ لتظهر جليًّا وتكشف كلّ شيء، وما زالت تجلس على فراشها تنتظر وتترقب. تصدّع البيت، فهل سينهار؟

كاد النعاس يغلبها فقد تعبت، لولا الطرقات التي وقعت على قلبها قبل أن تقع على باب غرفتها. سارت بخطًى متعثرة نحو الباب وفتحته وصدق يقينها. كانت «ريم» تقف أمامها بعينين متقرحتين من البكاء، ووجه شاحبٍ هربت منه الدماء. قالت بصوت مبحوح:

- أخبرني أنّه سبق وأخطأ، كان يحادثُ الفتيات على الإنترنت، هو أيضًا خان العهد. يقول إنني خدعتك بكلامي ونفاقي لكِ فجعلتك تدافعين عني.

بنظرةٍ رحيمة شملتها وهي تحمل منها ابنها لتضعه على الفراش بحنانٍ ثُمّ استدارت إليها؛ لتمنحها كتفًا تبكي عليه وحصنًا حصينًا تلجأُ إليه. سكنت لديها وما سكن فؤادها. قضت «ريم» ليلتها بجوار أُمّ زوجها وتقوقع ابنها في حضن جدّته.

***

كان البيت هادئًا ومعتمًا إلّا من بصيص نور قد تسرّب من أسفل باب البيت، كلّ النوافذ مغلّقة وكأنّها جُفون مُسدلة، أصرّت «فرحة» على غلقها جميعًا، وظلّت تتنقل من غرفة لأخرى لتتأكد بنفسها من غلقها بإحكام. أخيرًا جلست على الأريكة المواجهة لباب البيت من الداخل. كانت تنتظر عودة «أُسامة».

السيّدة «دولت» مريضة صاحت «فرحة» بانفعال عندما دلف «أُسامة» من باب البيت. هرول إلى غرفة أُمّه حيثُ كانت ممددة على فراشها، تضع كفّها الأيسر على صدرها، رافعة ذراعها الأيمن فوق رأسها.

- صدري يؤلمني يا «أُسامة»، وكأنّ ملزمة تضغط عليه.

- سلّمك الله يا أُمّي، سأُعاينُ ضغطك أولًا.

كان ضغطها مُرتفعًا فأعطاها «أُسامة» حبّة دواءٍ تحت لسانها، وساعدها لتُبدّل ملابسها ليصحبها معه إلى المستشفى لإجراء فحصٍ شاملٍ لها ليطمئنّ عليها. حيث اتضح له من شكواها وما سمعه أكثر من مرّةٍ أنّها صارت أكثر حساسية حيال الألم الجسدي وصحتها في انهيار.

أسرع «أسامة» يُلبسُ أُمّه حذاءها. كانت لا تتحدث كثيرًا وكأنّها تخشى أن تفتح فمها فتهرب الكلمات. اقتربت «مريم» من أُمّها، وقالت هامسةً:

- سأذهب معك.

- لا يا «مريم» لن تأتيا معي، فلتبقيا هنا أنتِ و «ريم».

- لا أستطيع أن أتركك وحدك.

- لست وحدي، فمعي «أُسامة» و«يوسف» هناك.

- أرجوك.

- بل أرجوكِ أنت يا «مريم».

أصرّت على رأيها، ورمقت ابنتها بنظرةٍ ذات معنى ففطنت لها، وخرجت متكئة على ذراع «أُسامة».

خارج المستشفى وعلى مقربةٍ من سيّارة الاسعاف، صفق «أُسامة» باب السيّارة وأغلق أبوابها أوتوماتيكيًّا بعد أن ترك أُمّه أمام باب المستشفى مع «يُوسف»؛ حيث اصطحبها إلى غرفة باردة وغارقة في ضوء شاحب. تجرّدت من ثيابها وارتدت ملابسَ قطنية خاصّة بالمستشفى والتقت بممرضة أخذت منها عيّنة من الدم. كانت في هلع فتلك المرّة الأولى التي تشكو فيها من ألم بصدرها. خضعت أوّلًا لفحص سريري شاملٍ من طبيبٍ باطني بدا إنسانيًّا وعطوفًا، أصغى إليها الطبيب بانتباه ملقيًا عليها أسئلة إضافيّة.

في تلك اللحظة كان «أُسامة» يرتب لكي يُجري لأُمّه مخططًا كهربائيًّا للقلب وصورة صوتية. ثُمّ تصويرٌ شعاعيٌ للرئتين. تبعه فحص إيكوغرافي اشتمل على تمرير مسبار على مختلف أجزاء جسمها، فظهرت على شاشة الجهاز صورٌ واضحةٌ للكبد والبنكرياس والطحال.

– أنت بخير يا أُمّي، ليس هناك ما يُقلق، لا داعي للقلق. ضغطك كان مرتفعًا قليلًا، يبدو أنّك كُنتِ منفعلة.

تأمّلته وهو يطالع نتائج التقارير الطبية، وهو بمعطفه الأبيض وأطلّ الفخر من عينيها، فرحتها برؤيته كطبيب أنستها الألم. قالت وهي مستمتعة بكونها مريضته:

– آلمني صدري بشدّة.

– لا تقلقي يا أُمّي، وسنتابعُ ضغطك بانتظام.

عادت تتأمله وهي حائرة. ما الذي تغير فيه بعد الحادث. فقد بعضًا من وزنه وصار وجهه شاحبًا، أصبح لا يهتمّ بأناقته وكأنّه لا يملك إلا هذا القميص السماوي وتلك السترة الزرقاء. أصبح منطويًا على نفسه، قليل الكلام، دائم الشرود، كثيرَ الإطراق. زهد في إكمال دراساته، حتى السفر للخارج لم يعد يذكره كما في السابق. كانت تلك أوّل مرّة يعود فيها

للمستشفى بعد الحادث، بدا وكأنّه يريد الخروج منها سريعًا. حتى عمله كطبيب زهد فيه. كان يكفيها قلقها على ابنتها «مريم» وابنها «حسام» كذلك، انفعالها أدى لارتفاع ضغط الدّم. تحمّلت الكثير في الأسابيع الأخيرة وهي ترعى ابنها «أُسامة»؛ حيثُ لازمته أسابيعَ بالمستشفى وكأنّها تخشى أن تصرف عينيها عنه فيخطفه الموت فجأة. لم يفارقها للحظة قلقها على ابنتها المقهورة «مريم» التى بدت وكأنّها شبح يعيش بالبيت. لم تُخبر «أُسامة» بسبب ألم أُخته، وفضلت أن تخفيه عنه حتى يعود لطبيعته.

قبّل «أُسامة» رأس أُمّه وقد كان غارقًا في حالة من الترقب والقلق. اطمأنّ قلبه عندما قرأ نتائج التقارير الطبيّة. ارتفعت حالته المعنوية كالسهم. يُصبح الأمرُ أكثر إيلامًا عندما يمرض من نحبّهم. فُتح الباب فجأة، كان السيد «كمال» القلق على أخته يدلف إلى الغرفة بصحبة «يوسف».

لم تظهر الفحوصات حاجتها للبقاء في المستشفى. ولكن بقّي فحص واحدٌ أراد «أُسامة» أن يجريه لها، صحبها هو والدكتور «أمين» إلى غرفة أخرى، لم يخبرا السيّد «كمال» بالتفاصيل. في هذه الأثناء كان «يوسف» قد دلف إلى غرفة العمليات وهو يتساءل في نفسه عن هذا الفحص الذي سيجريه «أسامة» لأمّه! لم تُتح له الفرصة ليسأله عنه فَجَدْوله مكتظٌّ ومزدحم بالعمل، بينما بقي «كمال» في صالة الاستقبال ينتظر شقيقته، يرتل القرآن

ويدعو لها. بعد ساعات كان الجميع يستعدون للعودة إلى البيت.

***

ارتصّت التحف على الرفوف تطالع أهل البيتِ من أعلى بفضول. وكأنّها تترقب وتُنصت لهمساتهم وتتأهب لما سيحدث. أما السيوف المذهبة التي كانت تزين صدر صالة الاستقبال فقد بدت وكأنّها تحرس البيت!

في غرفتها وعلى فراشها؛ حيث كان صوت القرآن يهدر من المذياع، وعلى ضوء خافت كانت رأسها تستقرّ على الوسادة. كلّت وتعبت مما تكابده من قلق يقتات عليها. تُريد أن تشعر بالاطمئنان على أبنائها الثلاثة. بعد وفاة أبيها شعرت أنّها شاخت فجأة. صارت تسير بانحناءٍ وكأنّ هناك من يلاحقها بالضربات، على ضعفه كان أبوها سندًا لها تستمد منه القوّة والثبات. في تلك اللحظة كان «أُسامة» ممددًا بجوارها يحدّق في الفراغ.

- أخبريني يا أُمّي، ما سبب إصرار «مريم» على الطلاق.

صمتت للحظات قصيرة، كادت أن تُخبره بكلّ شيء لكنّها تراجعت، قالت بهدوء:

- صار «أحمد» قاسيًا عليها يا ولدي. قلبه غليظٌ، لا يرحم ضعفها، وكأنّ الطفل الذي ستلده ابنها فقط.

- ليس هذا سببًا لطلب الطلاق! هناك شيءٌ ما. وأنتِ تعلمين، أخبريني بالسبب.

- لعلها تصفو، ويصفوا إليها بعد الولادة إن شاء الله.

- لا أدري لماذا لا يجيبُ «أحمد» على هاتفه؟ حاولت أن أهاتفه لكنّه لا يجيب، حتّى أنني أرسلت إليه العديد من الرسائل.

- لا تراسله مرّة أخرى، لا بدّ أن يسعى هو إلينا.

- هل صار «مروان» أفضل؟ أخبرني «حسام» أنّه مصاب بالرشح.

- الحمد لله.

قالتها وزفرت بهدوءٍ، وكأنّها تنفخ شيئًا خفيفًا هشًّا في الهواء. أصابته قشعريرةً عندما سمع صوت نفسها يتراخى. التفت إليها فجأة

- أمّي. ناداها فلم تُجبه، انتفض وهزّ كتفها ففتحت عينيها برويّة ورمقته بحنانٍ. اطمأن وقبّل رأسها فعادت للنوم قريرة العين به. ما زال يخشى عليها من الموت، فهو يراه قابعًا في كل ركنٍ بالبيت.

* * *

١٤

عادم السيّارة كان يبصق دخانًا أسود، ورغم ذلك كان «سليمان» يشعر أنّه يقود سيّارة فارهة. سيّارته المتهالكة تُعدّ بالنسبة إليه فردًا من الأُسرة. بعينين مغلقتين وأنفاسٍ مضطربة، جلس «أُسامة» بجوار «سليمان» يتلوّى في مقعده راميًا نظراتٍ خاطفةٍ من آن لآخر على مؤشّر السرعة. ما زال يهاب صوته عندما يتخطى من يقود السيّارة السرعة القصوى، كانت تلك أوّل مرّة يسافر فيها بعد الحادث، عندما أخبره «سليمان» أنّه سيعود إلى الإسكندرية لأن إجازته قد انتهت، أعدّ حقيبته بسرعة وقرر أن يُسافر معه. شجّعته أُمّه على السفر فهي تشعر أنّه يحتاج للراحة النفسية، فالحادث ثُمّ وفاة جدّه قد أثرا عليه تأثيرًا ملحوظًا. رغم أنّه لم يكن السائق، كان القلق ينهشه نهشًا. كان كلّ جسده يرتجف، لم يتسنّ له الحيلولة دون ارتعاش أصابعه.

- ما بك يا «أُسامة»؟ يداك ترتجفان.
- لا شيء.
- هل تُحبّ أن نقف قليلًا حتى ترتاح؟

- لا، لا. أرجوك لا تتوقف.

لم يكن يقوى على انتظار أن يكون في الإسكندرية كي يشعر أنّه ابتعد عن كلّ شيء، حتّى أُمّه، حتى «ريتال». كان ألمٌ فظيعٌ في جمجمته يجرّف صدغيه. بعينين متوقدتين تابع «سليمان» النظر إلى الطريق أمامه. قال بعد أن رمى «أُسامة» بنظرةٍ خاطفةٍ:

- كُنت أظنّك صلبًا. طبيب جراحٌ لا بدّ أن تكون أعصابه من حديد!

- صرت هشًّا من الداخل يا صديقي. لقد تحطّمت.

- لماذا؟

- لا أدري.

- متى ستتوقف عن ترديد تلك الجملة؟

- لا أدري. بعفويةٍ ارتسمت على شفتيه ابتسامة مغتصبة وهو يُكررها، وسرعان ما استغلّها «سليمان» عندما بدأ يغنيها له.

مرّ الوقت بين قهقهاتٍ عاليةٍ من «سليمان» وهو يُغنّي «لا أدري...لا أدري»، وبين ابتسامات مغتصبة من «أُسامة» الذي كان واهنًا ويائسًا في نفس الوقت. أشفق عليه «سليمان» وظلّ يراقبه، لم يره بتلك الحالة من قبل! ما الذي حدث له! وصلا أخيرًا فسرق البحر عيني «أُسامة» وهما يسيران بمحاذاة الشاطيء. تركه «سليمان»

يراقب البحر ولم يقطع عليه سكينته. خدّره الهواء ودغدغت أنفه رائحة الملح واليود. في بيت «سُليمان» كان «أُسامة» يترنح أمام صورته في المرآة، كما لو كان بمواجهة أحد الغرباء. عيناه زائغتان، ما زال حليق الرأس. ترك الجرح ندبة ربما تختفي عندما ينبت شعر رأسه، أمّا وجهه فقد زيّنته لحية خفيفة. كان دومًا حريصًا على حلق لحيته وتقصير شعره. ربطة العنق، القميص ذو الياقة البيضاء، المعطف، الحذاء اللامع الأسود ذو الطراز الإنجليزي، العطر المُميّز، كان يفضّل ذاك المظهر الكلاسيكي وخاصّة أنّه طبيب. لكنّه الآن لا يكترث. ما انفكّت ساقه تؤلمه على نحو كبير. لكن بدأت آثار الخدوش والسّحجات تختفي من وجهه وجسده.

تصاعد رنين هاتفه النّقال، كان الصوت المطمئن الحنون للسيّدة «دولت» على الطرف الآخر من الخطّ:

- «أُسامة» حبيبي، حمدًا لله على سلامتك. هل أنت بخير؟

- بخير يا أُمّي، لا تقلقي.

- استمتع بوقتك وحاول أن تهاتفني من آن لآخر، أرجوك.

أنهى مكالمته بعد أن وعدها أنّه سيفعل كلّما تيسر له. بعد قليلٍ كان «سليمان» يقفُ على باب الغرفة، وفي يده شطيرة شهيّة من «الهامبورجر» صنعها بنفسه من أجل صديقه. لكنّ «أُسامة» كان متكورًا على الأريكة كطفلٍ صغير غلبه النعاس

فجأة. سحب «سليمان» غطاءً صوفيًّا ودثّره به، ثُمّ أطفأ المصباح، وأغلق الباب بهدوء. واتجه إلى حاسوبه. كان الحاسوب هو حديقة «سليمان» السرّية التي يتريّض بها، كان يجد فيه كبسولة من الأمل يتصبّر بها ليكمل مشوار كفاحه وعمله المستمر ليجمع المال ليُسدد ديون والده التي ألقاها على كتفيه؛ فغدا مهمومًا بها.

***

كانت رأسه مغطاة بخوذةٍ مزودةٍ بأقطابٍ كهربائية موصولة بجهاز كومبيوتر. الدكتور «جيمس روبن» والدكتور «أمين» يقفان معًا ويطالعان باهتمام لوحة المراقبة، وينتظران بقلقٍ شديد استيقاظ «أُسامة». شاشة الكومبيوتر كانت ممتدة أمامهما هما وطاقم العمل التابع لجامعة «وارويك» بالمملكة المتحدة.

كان المكان مجهّزًا بأحدث الأجهزة الإلكترونية التي تعمل بالموجات الراديوية والرنين المغناطيسي مما سمح لأطباء الأمراض العصبية بالمتابعة منذ البداية.

ما زال أثر المخدّر يسري في جسده. بعد نصف ساعةٍ بدأ «أُسامة» يفيق من أثر المادة المخدّرة التي حقنوه بها قبل البدء في عملية نسخ ذاكرة والدته من قرصٍ صلبٍ على الشريحة التي تمّ زرعها منذ فترة في دماغه. لم يكن هناك من هو على علم بموعد العملية وتوقيت نسخ الذاكرة إلّا الدكتور «أمين» الذي كان حريصًا على التواجد معه أثناء عملية زرع الشريحة، ثُم أثناء نسخ الذاكرة إليها.

كان يمرّ بحالة اضطراب ذهني عنيفة، جسده بالكامل ينتفض، فتح عينيه.. بدت نظراته تائهة. قال دكتور «جيمس» موجهًا كلامه للدكتور «أمين»:

- نشاطه الدماغي بدأ يزيد كثافة بشكل ملحوظ.

- وخاصّة الجزء الأمامي من الدماغ. يبدو أنّه سيبدأ بالحركة. أسرع طاقم الأطباء بنزع الخوذة عن رأس «أُسامة» وأقبل الدكتور «جيمس» يتفحّص درجة إدراكه واستعادته للوعي، بينما كان الدكتور «أمين» يقترب من رأسه متابعًا جملة الانفعالات التي كانت تتوالى على وجهه بشكلٍ غريب.

ما زال ينتفض، وكلّهم يراقبونه. تراجع دكتور «أمين» للوراء ونادى عليه:

- «أُسامة»، هل تسمعني؟

آلاف الصور انبثقت أمام عينيه، رأسه مزدحم بالمشاهد والأصوات، انفاعلات متداخلة تتوالى على جهازه العصبي بلا هوادة، وكأنّها أسهم يرشقها أحد ما في مرمى واحد بمهارة.

- هل أنت بخير؟

أراد أن يجيبه، هو يعرفه جيدًا، لكنّه ما زال ينازع الذكريات. أردف الدكتور «أمين» قائلًا له بنبرة مطمئنة:

- تحمّل قليلًا يا «أُسامة»، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

ثقلٌ هائل كان يزايل جسده. تراءى أمام عينيه مشهد غريب! مرآة صغيرة تعكس وجه طفلة صغيرة بريئة الوجه ذهبية الشعر، وكأنّ الشمس تجري في خصلاته، تقف على الرمال وعلى وجهها ابتسامة رائعة، كانت الطفلة تُمسك يد المرآة المذهّبة بكفيها، شعر وكأنّه هو الذي ينظر في المرآة لكنّه لا يرى انعكاس صورة وجهه! بل وجه الطفلة! كانت تُراقبُ أباها وهو يركض بمرحٍ حولها ويُمسك عصاةً ويخط دائرة على الأرض هي مركزها. توقف الأبُّ، وقال بحنان:

- تلك هي الهالة المقدّسة يا «دولت» حافظي على نفسك، فأنتِ أميرة. لا تسمحي لغريب بأن يتخطى تلك المنطقة.

مشهدٌ آخر هزّه بعنف، وجه طبيبةٍ شابّةٍ تتحدّث:

- ضعي السمّاعة على أُذنيك، وأنصتي لدقّات قلب الجنين.

ارتفعت دقّات قلبه وشعر أنّ صدره سينقبض، وكأنّ هناك من يطرق على أُذنيه.

- دفعة أخرى يا «دولت» سيخرج الطفل.

شعر بالألم، شعر بالخوف، كان يرتجف، كاد قلبه يخرج من صدره، تلفّت يمينًا ويسارًا يبحث عن أحد ما يتكيء عليه، قام من فراشه فجأة وأراد

الفرار، أمسكه من حوله وثبّتوه على السرير، ثم سمع صوت بكاء رضيع، تلاه صوت أُمّه تهمس:

- ما أجمل أنفه الصغير.

اهتزّ صدره وشعر بحنان يطفح من بين ضلوعه، انحنى على نفسه وانثنى متقوقعًا. أراد أن يتمسّك بذاك الشعور، أراد أن يستبقيه فهو يحتاجه، أن تشعر بمشاعر أُمّ تحتضن رضيعها ذاك شيء لا يقدر بثمن.

- «أُسامة»، لا تعبر الطريق.

صرخة هلعٍ ثُمّ أزيز مكابح سيارة مسرعة، كاد قلبه يتوقف تمامًا، توقفت أنفاسه للحظة، وشهق، ثُمّ اعتراه إحساس برعب وفزع شديد. رأى نفسه وهو صغير، حيث كانت أُمّه تراقبه وهو يركض بكرته عندما كان في السابعة، لم يعلم أنّها تألّمت في تيك اللحظة كلّ هذا الألم.

- أمي.

إنها «مريم» وهي على الأرجوحة، فستانها الأزرق يطير في الهواء، ضحكاتها الصغيرة بعثت في نفسه شعورًا لطيفًا، وأحسّ بالأنس والبهجة، ابتسم ببلاهة كالمجنون وهو يرى صورتها وهي تضحك، وهي تركض، وهي تقطف زهرة وتدسّها خلف أُذنها وتصفّق ببراءة.

- لقد مات!

ضربة على الصدر مزّقت فؤاده إلى أشلاء، قهر شديد، أراد الصراخ لكنّه لم يستطع، وكأنّ هناك من يحشو فمه بالتراب. ويضغط بذراعٍ من حديدٍ على كتفيه. سالت دموعه على وجهه وبكى بنشيج مسموع، أشفق عليه الفريق الطبيّ لكنّهم كانوا لا يرون ما يراه ويسمعه. كانت صورة أبيه وهو يموت، لم يكن قد رأى وجهه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنّ أُمّه رأت كلّ شيء.

علت أصوات ضحكات حلوة، شعور بالفرحة اجتاح جسده بالكامل، رأى شقيقه «حسام» في حفل زفافه هو و«ريم».

ثُمّ فجأة، هجم عليه شعور عميقٌ بالفرح الممزوج بالبكاء، كانت صورة «مريم» وهي عروس بفستانها الأبيض. حاول أن ينهض، دفع أحد الأطباء بقوّة فأسقطه أرضًا، وأزاح يد الدكتور «أمين» التي كانت تحتضنه، ثُمّ خرّ على ركبتيه وبكى بحرقة، كان خبر الحادث الذي تعرّض له قاسمًا لظهر أُمّه. أنهى بكاءه وحاول أن يقف مرّة أخرى، رأى وجهه وهو يتقلّب على فراشه بالمستشفى. «ريتال» تهمس بجوار فراشه، صوت أُمّه تبكي، وجه «فرحة» وعينيها الخضراوتين. وجه «سليمان» يضحك، ثُمّ وجه «مريم» تبكي، ثُم ضوءًا أبيض قويًا، ثُمّ اسودّ بعدها كُلّ شيء.. وابتلعه الظلام.

– أين أمّي؟ أُريد أمّي.. أُريد أُمّي.

صرخ قبل أن يفقد وعيه ودويُّ الصفير المتواصل يملأ أذنيه.

عندما مرضت والدته وذهب معها إلى المستشفى، وبعد أن اطمأنّ عليها من نتيجة الفحوصات الطبيّة صحبها إلى غرفة خاصّة، وأخبرها أنّه يودّ أن يجري عليها اختبارًا بسيطًا خاصًا بأبحاثه. كان الدكتور «أمين» الوحيد الذي يعلم بالأمر، وكان معهما بنفس الغرفة وقتئذٍ؛ حيث وافقت الأُمّ على تسليم نفسها لابنها دون توضيح أو أسئلة، فقد حاول أن يشرح لها ما يحاول تطبيقه عليها ببساطة. قالت له:

– حبيبي، لا أفهم شيئًا مما تقوله، اللهم إلّا كلمة فحوصات، فافعل ما شئت يا ولدي. لم يشغلها شيء؛ حيث كانت فرِحةً به ذاك الحدّ الذي أنساها آلامها، طبعت على خدّه قُبلةً أطعمت فؤادها ورمقته بنظرة حانية رفيقة وسلّمته يدها. قام بحقنها بعقار يساعد على تهدئتها واسترخائها وكانت تثق به ثقةً عمياء. تسنى له الولوج إلى خزائن اللا وعي حيث تودع آلاف المعطيات والذكريات الدفينة الخاصّة بأُمّه. خلال ساعات كان قد نسخ ذاكرة والدته على الحاسوب بعد توصيل رأسها بخوذة تخرج منها أقطاب كهربائية تتصل بعدّة أجهزة. حيث أخضع قشرة الدماغ لديها لحقل مغناطيسي كثيف أوّلًا، ثُمّ قام بنسخ الذاكرة. على غرار قرص الكومبيوتر

الصلب كان قد تم عمل نسخة من ذاكرتها بالكامل إلكترونيًّا على ذاكرة حاسوب لمحاولة نقلها لدماغ آخر. طالما أعدّ نفسه لتلك اللحظة، كان ينتظر متطوعًا يقوم بتطبيق التجربة عليه. بقيت خطوات أخرى لكنّها كانت البداية، ولكن!

بعد فترة، بدأ يُراسل الدكتور «جيمس». سافر ومعه قرصًا يحمل عليه ذاكرة والدته. التقى مرّة أخرى بالدكتور «جيمس» وقّع على العديد من الأوراق ثُمّ سجل شريط فيديو يقرّ فيه أنّه تطوع بنفسه وسلّم نفسه بإرادته وعلى مسئوليته الشخصيّة للدكتور «جيمس روبن» وفريقه العلمي للعمل على تنفيذ أول خطوة من نظريته التي طرحها من قبل وتمّ نشرها في مجلّة «وايت مايند». تمّ زرع شريحة في دماغ «أُسامة»، بعد نجاح العملية قام الفريق العلمي بتحميل المعطيات التي جُمعت من دماغ والدته على الشريحة. وتمّت العملية بنجاح. أفاق «أُسامة» حاملًا بالإضافة إلى ذاكرته ذاكرة والدته التي تبلغ من العمر ستين عامًا. كانت تخفي الكثير، وتتحمل الكثير. لم يكن يعلم أنّ «أحمد» قد أوجع أخته بتلك الطريقة. ولم يكن يُدرك أنّه حقير لتلك الدرجة التي تجعله يطمع في زوجة رجل آخر. لم تكشف أُمّه أبدًا سرّ أخيه وأخطاءه في الماضي، لم يلاحظ قسوة شقيقه «حسام» على أُمّه، وأنّها كانت تحمل عنهم جميعًا حملًا ثقيلًا. لم تُخبره

يومًا عن ذاك الألم الشديد في صدرها، عن ذاك الخفقان الذي تشعر به، عن خوفها عليهم، عن شوقها إليهم، وفرحتها بهم. لم تُخبره عن وصيّة جدّه، أن يُحب على التوازي، أن لا يؤجل زواجه من «ريتال». بل لم يُدرك يومًا أنّ أُمّه تُحبّه لتلك الدرجة، لم يتوقع أن يراها تبكيه هكذا! لم يراها مكسورة هكذا من قبل. لم يُدرك أنّ الأُمّ تُحب ولدها بتلك الطريقة الجارفة والمميزة، كان يظنّه مجرّد حبّ يستطيع آلاف البشر أن يمنحوه للآخرين. أدرك في تلك اللحظة أنّ حبّ أُمّه له فطري وغير مشروط وللأبد. لن يحبّها يومًا كما أحبّته، سمع صوتًا ارتج له كلّ شيء حوله.

«أُسامة» استيقظ، ما بك؟ لماذا تصرخ وأنت نائم؟ قالها «سليمان وهو يهزّه بقوّة ليوقظه، يبدو أنّه قد رأى كابوسًا ثقيلًا. سأله «أُسامة»وهو يحملق في وجهه:

- أين أنا؟

- أنت في بيت جدتي في الإسكندرية يا «أُسامة»، عندي.

- من أنت؟

- أنا «سليمان»! ما بك يا رجل!

- هل ماتت أُمّي؟

- لا يا «أُسامة»، هي بخير.. هل رأيت كابوسًا مُزعجًا؟

عاد «أسامة» للنوم سريعًا دون أن يُجيب سؤاله، بينما جلس «سليمان» بجواره يرقيه، وهو يتساءل عن صديقه الذي كان يعرفه. صاحب الشخصية المتزنة، والنظرة الواثقة، والروح التي تبعث الأمل.

«كان كابوسًا مرعبًا» غمغم «أُسامة»، بينما صديقه يشدّ الغطاء على كتفيه.

***

في اليوم التّالي، كان «أُسامة» قد وقّت ساعته لتنبهه في الوقت المناسب ليستيقظ مبكرًا. ليس جائعًا، أفقده ما رآه في الكابوس شهيّته. لم يشتهي حتى قهوته. ترك «سليمان» له رسالة فقد كان يغط في نومٍ عميق، ولم يُحبّ أن يوقظه. فقد خرج متّجها إلى عمله بعد أن انتهت إجازته. ألصق الرسالة على شاشة حاسوبه.

كانت التّاسعة إلّا الربع، رفع «أُسامة» سحّاب سترته حتى رقبته. واعتمر قبّعة صوفية، أخفى كفيه في جيبي بنطاله وخرج متجهًا إلى المكان الذي كان قد التقى فيه بالسيّد «سعد». سار لمسافةٍ قصيرةٍ مرّ فيها ببعض المتسوّلين الجالسين قريبًا من بوابات المدارس، في هذا الوقت المبّكر،

وفي هذا البرد! على مدار اليوم؛ لا يمكنك أن تسير ثلاث خطواتٍ دون أن تتعثر في متسول هنا أو هناك. كلّ منهم يستعين ببراءة طفلٍ ليستدرّ عطف النّاس. وبعض الصغار كان نائمًا على الأرض متدثّرًا بالسماء في ذاك البرد القارص. يا لهن من أُمهاتٍ قاسيات القلوب. على النقيض كانت ابتسامات الصغار وهم يترجلون من حافلات المدارس تبعث البهجة، ملابس أنيقة، حقائب دراسيةٌ عليها صور أبطال أفلام الكارتون، سترات واقية من المطر لونها رائع، وبعضٌ منهم كان يعبث بهاتفه يتباهى به أمام زملائه. ثمّة شيء ليس على ما يُرام في هذا المجتمع. ثَمّة فجوات سحيقة تفصل بين أفراده. تفكّر في نفسه، ترى ما كان مصيره لو لم يكن من عائلةٍ ثرية؟ استدار وسار بظهره وهو يراقب شابًّا في مثل عمره يعبث في سلّة النفاياتِ باحثًا عن ما يسدُّ به رمقه. مرّ ببعض الوجوه الناعسة التي تُطلّ من نوافذ البيوت. أبواب المحلّات كانت مواربة كأفواه تنتظر جائعة تنتظر طعام البُكور.

وصل أخيرًا مُنهك النفس والبدن إلى المكان الذي كان يرجوه، حيث التقى بالسيّد «سعد». لا بدّ أنّه لا يزالُ نائمًا ببيته، فالوقت مبّكر جدًّا. مرّ وقتٌ طويل وكأنّ على رأسه الطير. عاقدًا ذراعيه، رافعًا ساقيه على حجرٍ أمامه، ومستندًا على ظهر مقعد خشبيٍ مشبّعٍ بالرّطوبة مدعّم بالحديد ومثبّت في الأرض، جلس شاردًا حيث تاهت نظراته في الأُفق البعيد. قرر أن يُهاتف

السيّد «سعد» ليُخبره أنّه يود اللقاء به. وعده أنّه سيلحق به بعد ساعة في نفس المكان. اشتدّت حرارة الشمس فدفأت المكان، خلع سترته وربطها حول خصره، ثُمّ نزع قبّعته الصوفية عن رأسه فلامست أشعة الشمس ذاك الخطّ الذي خلّفه الجرح، وقّع الحادث توقيعًا سيبقى أثره للأبد. كان يتوق لرؤية السيّد «سعد» بشكلٍ غريب. أراد أن يفتّش في شخصيّته عن ملامح الأب الغائب، لم يملأ جدّه ذاك الفراغ رغم اجتهاده كثيرًا، وحتى خاله الحنون لم يروي ظمأه لتيك المشاعر. فالأبُ أمان. وصل وعلى وجهه ابتسامة مشرقة، كان يشتاق لرؤيته هو الآخر. مدّ إليه يده ليصافحه، لكن «أُسامة» لم يكتفي فتعلّق به ليحتويه في حضنه.

- كيف أنت يا ولدي؟ أقلقتني عندما أخبرتني عن الحادث!

- الحمد لله، أنا بخير.

- يبدو عليك الإرهاق الشديد، أرني جرحك! يا الله! مكانه خطير، لا بأس عليك يا ولدي.

مستعذبًا بتفحّصه لرأسه قال كطفلٍ صغير يشكو ألمه لأبيه:

- ما زال يؤلمني.

- بدا هذا جليًّا على وجهك، ليس هذا بالوجه النضر الذي التقيت به

المرّة السابقة، انطفأ بريق عينيك. ما بك يا ولدي؟

أجال بصره في ارتباكٍ وقال:

- حطمني عناق الموت، أرهبتني عيناه وهي تطاردني وتتفحص وجهي، كرهت رائحة أنفاسه. أكره الموت.

- أيّ موت هذا الذي تخشاه وما زال العمر أمامك يا ولدي؟..لا بأس عليك.

بحرجٍ قال مبديًا اهتمامًا، وقد تذكّر أنّ لديه من هموم الوحدة ما يكفيه:

- سامحني، أثقلت عليك. هل هاتفك ابنك مرّة أخرى؟

- ليس بعد، لن يُهاتفني إلّا عندما يقع في مأزق ليطلب الدعاء. قالها قطعيًّا، بدا أنّه قد فقد الأمل. سأله «أُسامة» باهتمام:

- كيف تقضي وقتك؟ هل تلتقي بأصدقائك؟ على المقهى أو ببيت أحدكم؟

- نادرًا ما أفعل. كلّ منا انشغل بحياته. غبنا عن بعضنا البعض ما يكفي من الوقت حتّى جفت المشاعر. ما عاد رفاق الماضي يتوقون لرؤية بعضهم البعض كما كان العهد سابقًا. صرنا غرباء.

- وكيف تأنس؟

- أجترّ الذكريات أحيانًا، وأبكي وحدي أحيانًا، ثُمّ ألجأ لذكر الله فأُطبب به قلبي وأشتاق إلى الموت.

رفع «أُسامة» حاجبيه باندهاشٍ، وقال:

- تشتاق الموت! ألا تخشاه؟

- أخشى الموت بالطبع فأنا بشر، ولكن لا بد أن أموت حتى ألقاه! وأنا.. أشتاقه. ليس هناك سبيلٌ لرؤية وجه الله إلا بعد عبور بوابة الموت. لهذا أصبر على الحياة.

- أيّ صبرٍ على حياةٍ نهايتها الفناء وسنّتها الفراق؟ تتزوج من تُحبّها فتموت وتتركك وحيدًا، وكان من الممكن أن تتركها أنت وحيدة، حتى الأبناء يبتعدون عن آبائهم وأمهاتهم، وفي النهاية كلّ شيء سيفنى. ما فائدة الحياة!

أدرك السيّد «سعد» أن «أُسامة» لديه ما يشغل باله، قال برويّة:

- أخبرني يا بُنيّ، لماذا أنت هنا على وجه الأرض؟

- لا أدري.

- بل تدري! «وما خلقت الإنس والجنّ إلّا ليعبدون». عد لله واجعل حياتك له.

- ما عُدت أستطيع الحياة بنفس الروح.

- اصبر يا ولدي، لو كانت الدنيا سهلة يسيرة ما كان الصبر أحد أبواب الجنّة. تحتاج للصلابة، فهناك في الحياة ما هو أصعب من الموت.

هزّ «أُسامة» كتفيه وسأله باستنكار:

- أصعب من الموت! وما ذاك؟

- الوقوع في الحرام! ؟ أن تأسرك شهوة! تحتاج إلى درعٍ واقي ليحمي صدرك من الوقوع في الحرام. أمّا الموت فآتٍ لا محالة.

- لهذا أخشاه. أخشى أن أموت فجأة!

- يجب أن لا تبالغ في الخوف من الموت، وإلّا ستفقد الإحساس بكلّ شيء. أخبرني بالله عليك، ماذا ستفعل لو عرفت موعد وفاتك؟

- سأستعد، سأكثر من الطاعات، سأتوب.

- هل تستطيع فعل هذا دون أن تأكل وتشرب وتعمل لتكسب المال لكي تعيش؟

- لا، لكنني أستطيع أن لا أُحب وأتزوج، أستطيع أن لا أكابد في الحياة لتحقيق المزيد، سأرضى بالقليل وأكتفي...وأنتظر الموت.

- لو استطعت أن تستبقي ذاك الشعور وتربي نفسك عليه ستطير في الهواء ربما وتمشي على الماء. لكنّ هذا مستحيل،؛ لأنّك إنسان، وكذلك

أنا. فطرنا الله على النسيان. ستأتي عليك لحظات وتغلب عليك فطرتك، ستنسى الموت، ستصاب بقسوة القلب، ستجوع، ستشتهي، ستحب، ستكره، ستنجح وتفشل. لو تركت كلّ شيء وزهدت كما تقول ثم فاجأتك نفسك بضعفها الفطري أمام الشهوات، وذاك الانقلاب الفجائي فيها.. ستقع في الحرام، ستسرق لتأكل، ستغتصب لترضي شهواتك، سيتعملق الوحش في داخلك ويطغى في الأرض، ستنقلب وحشًا. لن تتمكن من القيام بدورك ومهمتك، لا بدّ أن تستمرّ على الطريق.

- وكيف تتلاشى مخاوفي؟

- هل تحب الله؟

- أُحبّه طبعًا.

- هل تعرفه؟

- نعم.

- فكيف تخافه؟ لو عرفته حقًّا ما وجد الخوف طريقه لقلبك. اقرأ يا بنيّ عن الله وصفاته وأسمائه. تأمّل الجمال من حولك، ابحث عنه في نفسك، في جسدك، في الروح التي لا نعلم كنهها، أنت طبيبٌ وتعلم أنّ خلق الإنسان في حدّ ذاته معجزةٌ تكفي ليشرق الإيمان في القلب ويطفح

نوره على الجوارح. تعلم أن تتأمل صُنع الله وستطمئنّ.

- القبر والظلام يخيفني.

- وكلّنا كذلك، ولكن من منا يستطيع دفع الموت! ليس أمامك إلّا أن تُسلّم أمرك لله. يا بنيّ الموت آتٍ لا ريب. كلّنا سنموت. أنت وأنا. أُمّك التي تُحبّها، وزوجتك التي تعشقها، وأخوك الذي تُحبّه بجنون، وقرّة عينك إن رُزقت بالولد. أليس الإيمان أن تؤمن باليوم الآخر، وأنّ هناك لقاءً آخر؟ الأمل فيه إذًا، ذاك الفراق هنا يتبعه لقاءٌ هناك.

وجدت كلمات السيّد «سعد» طريقها لقلب «أُسامة». كان صوته ذا نبرات عاطفية وحقيقية. وكأنّه مرّ بتيك المشاعر من قبل فأدرك ما يعتمل برأسه فأجابه بما يريح صدره. وكان «أُسامة» قد أصغى إليها بانتباه نادر لم يعهده في نفسه. سارا معًا على الشاطىء. كان السيّد «سعد» يحاول القفز به خارج نطاق الحديث عن الموت. حدّثه عن الصيد، وعن فنون الطبخ، وعن اللغة العربية.

جلسا على طاولة تسبح في ضوء الشمس بينما كانا يراقبان أمواج البحر وهي تُقبل نحوهم وكأنّها تحييهم ثُمّ تنسحب بنعومة. قال السيّد «سعد» وهو يمسح بحنان على رأس «أُسامة»:

- صلعتك زادتك وسامة، أليس كذلك؟

رفع يده وتحسسها، ثُمّ قال مازحًا:

- أخشى أن يصيبها البرق، أرى غيومًا تشدّ الرحال من هناك، ربّما ستمطر، لا بدّ أن أعتمر قبّعتي الصوفية الآن.

كانت رياحٌ شديدةٌ قد هبّت فجأة، اختبأت الشمس منها خلف الغيوم.

اضطر «أُسامة» لأن يحمي عينيه من غيوم الرمل المتصاعدة في طبقات الهواء بفعل الريح وهو يسير بجوار السيّد «سعد» نحو أحد المقاهي ليحتميا به من تغيّر الطقس فجأة. كان «أُسامة» أفضل حالًا مما كان عليه، على الأقلّ هناك ابتسامة.

* * *

١٥

على الطرف الآخر من الهاتف كان صوتها الباعث للطمأنينة:

- نحن هنا بالإسكندرية أنا وخالك «كمال» يا «أُسامة»، سنمرّ عليك بعد ساعة، اضطررنا للمجىء لكي نقدّم واجب العزاء لابنة خالنا في وفاة زوجها.

- لماذا لم تُخبريني أمس يا أُمّي، ربّما كُنت قد أتيت معكما اليوم لتقديم واجب العزاء.

- لا داعي يا بنيّ، كفاك ما أنت فيه. كما أنني لم أُحبّ لك أن تكون في تلك الأجواءِ مرّة أخرى. المهم، استعد لأنني أوّد أن أتناول وجبة شهيّة من السمك المشويّ في مطعم يُطلّ على شاطيء البحر. أحتاج لهذا بشدّة.

- وكيف هي «مريم»؟

- مع أخيك وزوجته بالبيت، لا تقلق عليها.

- في انتظاركما.

- بالمناسبة، أتت معنا «ريتال».

أصيب بصدمةٍ وراحة في آن واحد عندما أخبرته أُمّه أنّ «ريتال» هنا. تسارعت دقّات قلبه، كان يتوق لرؤيتها.

دلف «أُسامة» مع أمّه وخاله و»ريتال» إلى ممر يقود إلى قاعةٍ عامّة واسعةٍ ذات جدرانٍ مغطاة بأقمشة أرجوانية وذهبية اللون

عند الانعطاف إلى ممرّ، سأل خاله بنبره يشوبها الحرج:

- هل تسمح لي يا خالي أن أتحدّث قليلًا مع «ريتال»؟

أصيبت «ريتالُ» بالخرس لعرضه هذا! مرّت لحظات ثقيلة قبل أن تحرّك لسانها بصعوبة قائلة:

- عن أيّ شيء ستحدثني؟ سألت فيما تعلق نظرتها بنظرته. رمقها أبوها بثقة، وقال:

- حسنًا، لك ذلك يا «أُسامة» وفي حضوري وليكن بعد تناول الطعام. ثُمّ وجّه الأبُ كلامه لابنته قائلًا:

- أنصتي لحديثه جيّدًا يا «ريتال». كلّنا نعلم أنّ أمر خطبتكما يحتاج حسمًا الآن. دعيه يُخبرك عمّا يعتمل في صدره. ربتت عمّتها «دولت» على كفّها بحنانٍ، وقالت:

- لا بدّ أن يفتح كلّ منكما قلبه وعقله للآخر وتتحدثا بصراحة ووضوح.

في ذاك المطعمِ الأنيقِ والمُطلِّ على البحر جلسا وجهًا لوجه هو و»ريتال» على طاولة مستديرةٍ من الخشب المصمت. كانت المصابيح الزرقاء تضفي جوًّا دافئًا على المكان. على طريقة البسطاء كانت هناك ضحكات عشوائيّة مبعثرة حملتها الرياح من أفواه عائلة كبيرة كانت تجلس أمام البحر قريبًا من المطعم. الرطوبة عكّرت زجاج النوافذ، لكنّه استطاع أن يتبين زُرقة البحر من خلفها. على يمينه جلست أُمّه، وعلى يساره كان خاله «كمال». لبى النادلُ ذو المظهر الجليل طلباتهم، سمكٌ مشوي، وآخر مقليّ، بعض المقالي من فواكه البحر اللذيذة، أرز بالزعفران، سلطة الباذنجان، سلطة روسية، عصير برتقال. جلسوا هادئين ينتظرون طعامهم، بينما كانت «ريتال» تتأمّل من بعيد حوض أسماكٍ في أحد الأركان؛ حيث تدور سمكتان عجيبتان بلا توقف. قريبتان من البحر، ورغم هذا سجينتان في صندوق زجاجي مُملّ! يا لكآبتهما. بعد تناول الطعام وقبل أن ينهي «أُسامة» قدح الشاي السّاخن الذي كان يتناوله، قامت «ريتال» معه وهي تشعر أن عظامها ترتعش خلف إهابها الأنثوي الرفيق. سارا نحو البحر وبقيا صامتين ووحيدين بالرغم من وجودهما معًا. غشيتهما السكينة، حينما يكون معها يشعر باستيقاظ الأمل في أعماقه. بدأ يفتّش في جعبته عن كلمات ليبدأ حديثه. أراد أن يختار كلماتٍ تُكثّف روعة حبّه. كان لديه

اعتراف يبوح به شيء يثقل على قلبه منذ أمد بعيد. يُحبّها ولكن لا يدري لماذا كان يؤجل أمر خطبتهما دائمًا.. أدمن الهروب.

فتشت في حقيبتها بأيدٍ مرتعشة لتخرج منها أيّ شيء، كانت تضطرب متلعثمة ولا تجد ما تفعله أو تقوله، وجدت علبة حلوى صغيرة، فأخرجتها ومدّتها نحوه ليتناول واحدةً منها. رفض بلطف فبدأت لا شعوريًّا تلتهم ما فيها واحدةً تلو الأخرى. فتحت فمها ولثانيةٍ اعتقدت فعلًا أنّها على وشك أن تبوح له بحبّها..لكنّها استعصمت. صارت تلتفت كلّ نصف دقيقة لتتأكد أن أباها هناك.

كانت ترسل ناحية أبيها بإيماءة من يدها فيردّ عليها بدون مواربة. طال صمت «أُسامة» وهو يتأمّل البحر الهادر أمامه. متى سيتحدث؟ متى سيخبرها أنّه يُحبّها ويعشقها حدّ الجنون؟ نظرت لساعتها لتشعره أن الوقت يمر. بنبرة مختلجة تخفي على نحو سيء قلقها، قالت:

- هل ثَمّة شيء ليس على ما يرام؟

من دون تردد جلس قريبًا منها، مرّت الرياح من بينهما ونثرت فوقهما القليل من الرمال.. قال بتلعثم:

- أُريد أن....

أحبّك، أتزوجك، أخطفك، أقتلك...كانت تنتظر أيّ كلمة يضيفها لجملته. لكنّه قطع كلامه وعاد يغوص في نفسه. أقبل كلّ الألم المتراكم ينبثق الآن محطمًا جسدها. حبّها له ينهشها نهشًا. كانت تتعفف، وتصبر، وتنتظر. نهضت وجالت ببصرها على خط الأفق البعيد. تنفّست بعمقٍ ثُمّ زفرت وكأنّها تشتكي للموج الذي كان يهدر وهو يلاطم الصخور أمامها. تركت مكانها وبدأت تسير بمحازاة الشاطيء وهي مطرقة وصامتة. فسار بجوارها ويداه معقودتان خلف ظهره. ارتسم خياله الواسع بعكس الضوء على الرمال فَبَدا خيالها بجواره كقزم صغير. تلفتت حولها في ارتباك، انتابها القلق فجأة، أحسّت غريزيًّا أنه بصدد قول أمرٍ مهم. استوقفها ووقف مواجهًا لها، ثُمّ قال بتأثّر:

- إذا كنت قد تسببت لك بأيّ ألم؛ فأطلب الصفح.

- تعتذر!

- أجل.

- عمّ تعتذر؟

- عن كلّ لحظة آلمتك فيها.

- وبعد؟

- لا أدري.

- لا تدري ماذا؟

كاد يكرر تلك الكلمة التي يشعر وكأنّها التصقت بلسانه «لا أدري»، تذكّر لوم «سليمان» له على تكرارها، شعر بأنّه يتضاءل وانكمش في نفسه، قال بخفوت:

- أظنّك تتساءلين عن سبب تأجيلي لأمر خطبتنا، كُنت أشعر أنني مشوش ومرتبك، ورأيت من الخطأ إتمام الخطبة وقتئذٍ.

في تلك اللحظة، أولته «ريتال» ظهرها واستدارت عائدةً بخطواتٍ سريعة حيث كان أبوها يجلس، كان يتابعهما من بعيد وعيناه لا تُرفعان عنهما.

- «ريتال».

ناداها «أُسامة» فيما يهرول على الرمال خلفها:

- هذا لن ينجح!

قالت فيما تتابع طريقها:

- إذا سمحتِ.

ألح عليها فيما يعترض طريقها

- ضيعت وقتي معك.

مغتاظًا تسمّر للحظة. كان متيقنًا على نحو مثيرٌ للفضول أنّها ستنتظره.

- وددت فقط أن تمنحيني المزيد من الوقت، لست مستعدًا للزواج. فلنؤجل خطبتنا قليلًا.

كانت غاضبةً وحائرة في أمره، لماذا يتصرف هكذا وكأنّها تتسوله!

- لن أتحدث معك مرّة أخرى. زفرت فيما ترفع يدها لتعدّل حجابها.

- أنا خائف.

عاودت السير بعصبية ودقّت الرمال المبتلّة بقدميها ثُمّ تسمّرت مكانها، كان عليها أن تستدير إليه لتلتقي عيناها بعينيه لكنّها لم تفعل وبقيت كما هي مديرة بظهرها لا تنظر إليه وسألته:

- ممّ تخاف؟

قال بنغمة تخالطها رنّة المحزون:

- الموت!

- كُلّنا نخشاه.

خطا أمامها حتى صار مواجهًا لها مجددًا، نظر إلى عينيها بوجلٍ، وقال:

- أخشى أن أتركك وحيدةً كأمّي.

- ليست وحيدة، لديها أنت و»حسام» و «مريم» وكلّنا حولها.

- أقصد وحيدة بلا حبّ، بلا رفيق عمر يشاركها الحياة.

طالعته باستنكارٍ وقالت:

- لحظة!..أتعني أنّك لن تتزوجني لأنّك تخشى أن تموت وتتركني وحيدة؟ هل تعني أنّك ستعيش بلا زواج؟

أومأ برأسه، وقال بمرارة:

- ربّما نعم.. فذاك الأفضل حتى لا أُوجع قلبك بموتي. وحتى لا أترك يتيمًا يُعاني في الحياة.

- وهل تظنّ أنّك لا تُوجع قلبي الآن؟

تبادلا نظرة قصيرة لكنها عميقة. قالت بصوت مرتعش:

- أعلم أنّ الحادث كسر بداخلك شيئًا ما، كما أنّ وفاة جدّي هزّتك كثيرًا، ومن قبلها وفاة والدك ولا ريب. ولكن يبدو أنّ عمّتي «دولت» ألحّت عليك لتخطبني، ولم تكن لديك الرغبة في هذا. فترددك ليس وليد الحادث، بل من قبله.

- لا، لا. هذه رغبتي وتلك أمنيتي، لأنّني...أُحبّك.

- ما هذا الكلام الذي تقوله!..ليس الآن! لولا وجود والدي وعمّتي

لأوسعتك ضربًا بحقيبتي ومضيت.

- آسف..تفلتت الكلمة من لساني، لم أقصد أن....لكنّها الحقيقة، أنتِ غالية على قلبي، ولديّ الكثير من البوح.

نظرت إليه بعينيها المتشككتين، كيف يُحبّها ويؤجّل خطبتها!

كانت مفعمة بالخجل وهي تستمع إلى كلماته، فتلك المرّة الأُولى التي يُصرّح لها فيها أنّه يُحبّها، ودّت أن تقفز على الرمال وتركل الأمواج بقدميها وتصرخ. كانت تفرك يد حقيبتها وهي تهرب بنظراتها بعيدًا عنه. فقد رأت في وجهه نفس نظرة الحب التي جعلتها تضطرب بشدّة عندما كان يقطّب جرح يدها.

لاحظ الانفعال على قسمات وجهها، فأردف قائلًا:

- تعلمين أنّه ينبغي عليّ أن أكون بقربك، هذه حقيقة لا أستطيع الفكاك منها، لا أتخيل حياتي بدونك. اللقاء الذي جمعنا سويًّا في حفل زفاف أختي. رداؤك الطاهر ذاك الذي يبدو مختلفًا في روعته عن رداء الأخريات، ابتسامتك الهادئة التي لا تنمحي معالمها من ذاكرتي وتخفي خلفها الحياء الذي أُحبّه. روحك النقيّة الفطرية التي تتحدثين بها معنا، كفّك الرقيق، قامتك القصيرة، كلّ تلك التفاصيل الصغيرة تسكنني منذ سنوات.

توقف الزمن وتدفّقت الدماءُ في عروقها، داهمتها موجةٌ من الانفعالات جالت في صدرها، وارتفعت لرأسها فتعرّق جبينها وارتجفت رغم الرياح الباردة التي كانت تلفّها. كان مندهشًا بسبب قوّة مشاعره تجاهها، وكان سعيدًا لأنّه عبّر لها عن جزء ولو يسير من مشاعره تلك. أردف قائلًا؛ ليزيل عنها القلق:

- بعد الحادث، وعندما أخبرت أُمّي بتأجيل الأمر، كُنت أطلب وقتًا حتى أعود لطبيعتي. أودّ أن أكون متزنًا نفسيًّا قبل أن.....

ازدردت ريقها بعصوبة قبل أن تُقاطعه قائلةً:

- أرجوك يا «أُسامة» لا تشعرني أنّك تضعني على الهامش، فوق الرّف، تعود إليّ وتنفض عني التراب إن احتجتني وكأنني زائدة عن حاجتك. تزوّجني فقط عندما تَشعر أنني شيء ضروري ومُلحٌّ في حياتك.

قالت «ريتال» تلك الكلمات ولكنّ عينيها كانتا تقولان شيئًا مختلفًا. ثنى أصابعه حتى طرقعت، وقال بتأثّر:

- «ريتال»، كان هذا بعد الحادث مباشرة، أمّا الآن في تلك اللحظة وأنا أقف أمامك، أودّ أن تكوني بجواري حتى أصل لهذا الاتزان. حاولت أن تقرأ أفكاره فنظرت إلى وجهه من جديد، اقتحمت قلبها نظراته المشبّعة بالحبّ فرشقت في شغافه. بدأ كتفاها يرتعشان وانكمشت في ردائها خجلًا. في

تيك اللحظة كان أبوها خلفها مباشرة، تأخروا على موعد القطار، لا بدّ من العودة الآن. بخطى متعرجة، وقلب يقفز فرحًا ويهيم شوقًا عادت أدراجها. أقبلت نسمات الهواء تلثمها على وجنتيها لتهنّئها. قرأ أبوها البُشرى على وجهها فأدرك ما آل إليه حديثهما. كما تبيّنت السيّدة «دولت» الفرحة وهي تُطلّ من عيني ابنها. رحلت الشمس التي كانت تتابع حوارهما بغريزة يقظة وشغف عميق، ما أروع الحبّ عندما يولد في ضوء الشمس.

في محطّة القطار وقبل أن يغادروا الإسكندرية على أن يلحق بهم «أُسامة» في اليوم التالي بعد أن يودّع «سليمان»، قرأ كلّ منهما في نفس الآخر أنّ هناك لقاءً قريبًا. بدأ القطار يتحرّك ببطء، حيّته بابتسامة عذبة، ووجنتان ترتجفان خجلًا،كان ينظر إليها من خلف زجاج النّافذة، بوجه أضاءته ابتسامة رائعة، وعينان عميقتان ممتلئتان بالحبّ، وحاجبان كثيفان طالما فُتنت بهما، ويدٍ ترتجف لا يدري من البرد أم من روعة الحبّ، وقف يُلوّح لها حتى اختفى القطار.

***

انحدر برقع الليل عن وجه الصّباح. «الهاتف المطلوب مُغلق أو غير متاح» كانت تلك المرّة العشرون التي تسمع فيها نفس الجملة. لم يعُد «أُسامة» حتى الآن من الإسكندرية. ولم يرد على الهاتف طوال النهار.

كانت السيّدة «دولت» في غاية القلق. أخبرها «سُليمان» عندما سألته عنه أنّه خرج مبكرًا للقاء صديق ولم يعد حتى الآن. اكفهرّ النهار وأقبل الليل وطال غيابه. بعد منتصف الليل كانت السيّدةُ «دولت» منهارة تصرخ:

- ولدي، أين ولدي؟ لم يعُد حتّى الآن.

واعتمدت رأسها بين يديها ثُمّ انفجرت في البكاء.

اقتربت «مريم» وأحاطتها بذراعها، وقالت تُطمئنها:

- لا تقلقي يا أُمّي، سيعود إن شاء الله.

قال «حسام» وهو يفرك كفّيه من شدّة القلق:

- لعلّه فقد هاتفه ونقوده.

- أخشى أنّ هناك ما أصابه.

قالتها «أُمه» بفم يرتجف وأمسكت هاتفها مرّة أخرى، لم تقطع الأمل أبدًا، ظلّت تُكرر الاتصال لعلّها تسمع صوته فيهدأ قلبها.

علا رنين الهاتف فأجفلوا، كان «سليمان»، ردّ «حسام» عليه:

- هل عاد «أُسامة»؟

- لا.

- لم أُغادر البيت منذ أن عُدت، سأترك له ورقه على الباب وأخرج للبحث عنه في المستشفيات والأقسام.

- اقترب الفجر! سأستقل أوّل قطار وأهاتفك فور أن أصل لنسأل عنه معًا.

- حسنًا يا «حُسام» في انتظارك.

في ركن آخر كانت «ريتالُ» تنزوي بقلب ممزق، تبكي بحرقة، ترى أين هو الآن.

***

هدأ الهواء وجمع ضحاياه من أوراق الأشجار الجافّة المتناثرة، داخل بناءٍ بارد الغرفات، اسودّت جدرانه من الحُزن الذي تشهده كلّ يوم، دلف الثلاثةُ ورؤوسهم مطرقة. سحب المسئول الجثّة من الثلاجة وأزال الغطاء عن وجهها، وقال بجمود:

- هذه آخر جثّةٍ استقبلناها في المشرحة أمس، حادث سير، شابٌّ ثلاثيني مجهول الهوية.

- ليس هو.

قالها «حسام» بوجه متعب وعينين مرهقتين وهو يتنفّس الصُعداء، على

الأقل لم يمُت «أُسامة».

- لعلّه مصاب، ويُعالج الآن في أحد المستشفيات.

- ربّما يا «يوسف»، فلنقسّم مناطق الإسكندرية علينا نحن الثلاثة ونسأل هناك في المستشفيات.

- حسنًا يا «حسام»، سنبدأ حالًا بعد أن يرشدنا «سليمان» للعناوين.

بين الأسرّة البيضاء، وأقسام الحالات الحرجة، ومن وجوه غائبةٍ عن الوعي، وأخرى تسيل دماؤها، كانوا يتفحصّونها جيدًا. سألوا الممرضات والأطباء لعلّ هناك من التقى به، قضى الثلاثة باقي النهار، ثُمّ انقضى منتصف الليل وهم في بحثٍ متواصل.

على الطرف الآخر من الهاتف كان صوتها المتلهف على سماع خبر عنه مصحوبًا بأزيزٍ من كثرة البُكاء:

- هل من جديد؟

- لم نجده يا أُمّي في المستشفيات.

- ربّما ركب سيّارة أُجرة وانقلبت به على الطريق.

- سألنا يا أُمّي، حادث واحد والسائق فقط هو الذي توفّاه الله، وسألنا المصابين عن «أُسامة» لم يره أحد منهم، كانت صوره لديّ على الهاتف.

- أين أخوك يا «حسام»؟ وشهقت بالبكاء الذي تنوء به عيناها.

- لا أدري.. ليتني أعرف يا أُمّي، قلبي يتمزّق.

أغلق الهاتف ويده ترتجف، طاف بوجهه ظلٌّ وشعر بانقباضٍ في صدره، ربما قتله أحدهم وهو الآن ملقى هنا أو هناك؟ أو ربما خُطف وسُرقت أعضاؤه. لماذا لم يكُن قريبًا من أخيه لتلك الدرجة التي تجعله يستنتج كيف يفكّر، وأين يذهب عندما تضيق نفسه، وماذا سيفعل إن حدث له شيءٌ ما؟

***

وكأنّها تتجوّل بكفنها وتتحدث بلغة التراب؛ كانت السيدة «دولت» تبدو لمن يراها بعد اختفاء ابنها وقرّة عينها، كان كلّ الحضور عكس إيقاع قلبها، ما عادت تتحمل غياب «أُسامة». ظلّت يدها ترتجف بينما تتكىء بها على عصاة أبيها العجراء، وهي تقول:

- مرّ أُسبوع ولم يعد، افعلوا شيئًا ما. ما عدت أحتمل.

- وماذا سنفعل يا أُمّي؟!، هو غير موجودٍ بالأقسام، ولا المستشفيات، حتى صوره ألصقناها في كلّ مكان.

صرخت «دولت» فدوى صوتها عاليًا بشراسةٍ لأول مرّة في بيت أبيها، ودقّت الأرض بعصاته، قائلةً:

- أريد ابني الآن.

اقترب أخوها «كمال» منها، وقال بهدوء:

- اهدئي يا «دولت»، سيعود بإذن الله.

انهارت قهرًا وحُزنًا على ابنها. شعرت أنّها مسلوبة الإرادة فأخفت وجهها بكفيها. بكت حتى جفّ معينها، آلمها صدرها، ثُمّ فقدت الوعي.

***

في المسجد المجاور للمستشفى جلس السيّد «كمال» هادئًا وساكنًا كشجرة بلوط قديمة، قرر ألّا يتحدّث كثيرًا، فقدتْ الكلمات معانيها! كان يختم القرآن ويعود ليبدأ ترتيله من جديد، لا يفتر لسانه عن ترديد الدعاء.

أمّا زوجته «زينب» فكانت تكفكف دموعها وتستعد لدخول غرفة «دولت» في المستشفى مرّة أخرى. تحاول أن لا تبكي أمامها وتتجلّد لتُصبّرها. فقد طال اختفاء «أُسامة»، مرّت أسابيع وليس هناك خبر. قال «يوسف» بصوت تغلب عليه رنّة الألم:

- حالة عمّتي تتدهور، قلقها وحزنها على «أُسامة» سيقضي عليها. مضى أُسبوع على وجودها بالمستشفى ولم تستقرّ حالتها حتى الآن.

- أصبحت أخشى أن أُطيل الجلوس بجوارها، لا أجد كلماتٍ أُصبّرها بها، أخشى على أُختك «ريتال» أيضًا، صارت شبحًا يمشي على الأرض.

- عينك على «مريم» أيضًا يا أُمّي فهي في أواخر حملها، ومن الممكن أن تداهمها آلام الولادة في أيّ لحظة.

- هل عاد «حُسام» من الإسكندرية؟

- لا يا أُمّي، أصبح يسافر بسيارته كثيرًا ويدور بها طوال النهار هناك باحثًا عن «أُسامة»، يسيطر عليه الآن هاجس أنّه مقتول وملقى في مكان ما، أو أُصيب بلوسة عقل ويسير هائمًا على وجهه في الشوارع. مرّت أسابيع وليس هناك خبر!

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله. وأين أبوك الآن؟

- في المسجد المجاور للمستشفى يصلّي ويقرأ القرآن وسيأتي بعد قليل، سأذهب الآن وأعود لاحقًا يا أُمّي.

- في أمان الله.

***

بجوار عمّتها كانت ترجف كورقة شجرة ذابلةٍ أسقطتها الريح. قالت موجهة كلامها لأبيها:

- سأُسافر يا أبي مع «فرحة» وأُمّها؛ لأبحث عنه.

- هل أنتِ مجنونة؟ الرجال تعبوا من البحث عنه، لم يألو «حسام»

و»يوسف» و»سليمان» بجُهد ولا وقت. حتى «رأفت» شقيق «ريم» وهو ضابط شرطة لم يصل إليه، فماذا ستفعلين أنتِ؟

- سأُحاول.

- لا.

- أرجوك.

قالتها بصوت متحشرج وعينين متقرحتين من البكاء. أشفق عليها، فقال بعد صمت قصير:

- سأذهب معكم إذًا.

***

في شقّة «سليمان» كان «كمال» يجلس بجوار ابنته التي كانت تُحملقُ في ملابس «أُسامة». قالت بخفوت وهي تُمسك سترته التي كان يرتديها، بينما كان يودّعها في محطّة القطار:

- كان يرتديها عندما ودّعنا.

- لكنّه لم يرتديها يوم اختفائه، فقد خرج على عجلٍ للقاء شخصٍ ما.

- هل فتشت في جيوبه؛ لعلّ هناك عنوانًا أو رقم هاتف.

- بل وقُمتُ بقرصنةِ حسابه على الفيسبوك بعلمِ»حسام» واطّلعنا على

صندوق رسائله لعلّ هناك أيّ أثرٍ نقتفيه، لم نجد إلّا رسالة من شاب يعيشُ في الخارج، كان «أُسامة» يُحدّثه عن أبيه وينصحه أن يهاتفه ويسأل عنه لأنّه وحيد.

– وهل تواصلتم مع هذا الشّاب.

– أرسلنا إليه وطلبنا عنوان أو رقم أبيه، لكنّه لم يردّ علينا حتّى الآن.

ران عليهم صمتٌ مُطبق قبل أن يقول «سليمان»:

– ذكر في الرسالة المكان الذي التقى فيه بهذا الرجل، أمام مقهًى مشهور.

قفزت «ريتالُ» متوثّبة، وقالت بحماس:

– فلنذهب هناك الآن.

اتجهوا جميعًا إلى الشاطيء أمام المقهى؛ حيثُ اعتاد «أُسامة» أن يجلس، كانت ريتال تحتضن سترة «أُسامة» الزرقاء وكأنّها تحتضنه، هبّت ريح باردة اقشعر لها بدنها، فارتدها وجلست أمام البحر تذكُر آخر لقاء لهما عندما أخبرها أنّه يُحبّها. من بعيد مرّ رجلٌ مديد القامة، هزيل البدن، طويل العنقِ، ضيّق الجبهة، له لحية بيضاء قصيرة. كان يسير بهدوء، رمق «ريتال» وتعلّقت عيناه بالسترة على كتفيها. أكمل طريقه فانتبهت لالتفاتته، فأسرعت تناديه:

- معذرةً، رأيتك ترمق تلك السترة بطريقة تشي بأنّك رأيتها من قبل، أليس كذلك؟

- تقريبًا. أشعر بالفعل أنني رأيتها سابقًا.

- هل تعرف صاحبها؟ إنّه مفقود منذ ثلاثة أسابيع.

- لعلّه الدكتور «أُسامة»؟

تسارعت دقّات قلبها وشعرت بالأرض تميد تحت قدميها، أجابته بصوت مرتعش:

- نعم هو.. أخبرني بربك هل التقيت به؟

- يا الله! التقيت به هنا منذ أسابيعٍ ودار بيننا حوار دافئ وطويل.

- هل رأيته بعدها أو اتصل بك يا عمّاه؟

- للأسف، لا.

- أخبرني عن حواركما من فضلك.

جلس السيّد «سعد» بينهم، وبدأ يسرد عليهم تفاصيل حواره مع «أُسامة». كان يبكي وهو يتحدّث، أشعره «أُسامة» أنّ لديه ابنٌ آخر، كان يتلطف إليه ويحتضنه بحنانٍ ورحمة، حتى أنّه كان يُقبّل يديه.

أذّن للمغرب ولا يزالون على الشاطيء. انصرف السيّد «سعد» بعد أن أعطاهم رقم هاتفه. كانت أُمّ فرحة تتنقل بين المارّة حاملة صورة «أُسامة»، سألت عنه أصحاب المحلات، حتى المتسولين جالستهم وتوددت إليهم لعلّهم رأوه. قامت «ريتال» ووالدها وكذلك «سليمان»، وحمل كلّ منهم صورة لأُسامة وبدأوا يسألون معها. توسّعت دائرة البحث والسؤال وتوّغلت «ريتال» في شوارع الإسكندرية بحثًا عن حبّها الذي لم تهنأ بحلاوته إلّا ساعة من نهارٍ كانت تسير فيها بجواره على الشاطيء.

***

مرّت سنوات، بوجهٍ وسيمٍ لوّحته الشمس، وقوام رياضيٍّ ممشوق هذّبته السّباحة، استقبلهما بودٍّ صادق، حمل مظلّة وهرول تجاههُما.

- هنا من فضلك، ونريدُ كرسيّين.

قالتها «فرحة» التي أوشكت أن تتمّ عامها التاسع عشر بنبرةٍ مهذّبة. تسمّر مكانه عندما رمقته بعينيها الخضراوتين، شعر برجفةٍ تجتاح جسده، وكأنّه يعرفها. ثبّت المظلّة وقرّب إليهما الكرسيين. التفت للمرأة التي تصحبها وكانت أكبر منها عمرًا. لاحظ أنّها ترتدي سُترة رجالية، لم يحلّ الشتاء بعد! فهم في أوّل سبتمبر! لماذا ترتدي سُترة كهذه في ذلك الوقت رغم الطقسِ الرائع! صرف نظره عنها سريعًا عندما رأته وهو يُحملق في سترتها الزرقاء.

- هل تأمرين بشيء آخر سيّدتي؟

- شكرًا يا بنيّ، ما اسمك؟

- «ماهر».

- اسمٌ جميل. كم عُمرك؟

- عشرون عامًا سيّدتي.

- هل تدرس يا «ماهر»؟

- نعم، أدرس في كُلّية دار العلوم.

- ما شاء الله!

كاد ينصرف لولا أنّها استوقفته؛ لتسأله:

- أُريد تأجير شقّة في تلك البناية المقابلة لهذا المكان، فالشقّة التي اعتدتُ على تأجيرها كلّ عام مشغولة الآن، فهل تستطيع أن تدلّني على واحدة؟

- هناك الكثير من الشقق الخالية، انصرف المصطافون نظرًا لبدءِ الدراسة.

- حسنًا، سنجلسُ قليلًا ونذهب معك لرؤية الشقق.

- ما المدّة التي ستستأجرينها خلالها سيّدتي؟

- اسمي «ريتال».

- مرحبًا سيّدة «ريتال»، كم يوم؟

- ربما شهر، هل من الممكن أن أسألك سؤالًا قد يبدو غريبًا لك.

- تفضّلي.

- يبدو أنّك مُهذّبٌ ومثقف، فالكتاب الذي تحمله للدكتور مصطفى لُطفي المنفلوطي، أليس كذلك؟

- بلى، تلك رواية الفضيلة. طوع أمرك سيّدتي، كيف أُساعدك؟

أخرجت من حقيبتها صورة لـ»أُسامة»، وقالت وهي تتأمّلها:

- هل سبق ورأيت هذا الشخص يمرّ من هنا، هو غائبٌ مُنذُ عشرِ سنوات، لم نجده في المستشفيات ولا الأقسام، فهل من الممكن....

ثُمّ رفعت عينيها تجاهه بإشفاقٍ، وقالت:

- قد يبدو أكبر عمرًا الآن. وربما ملامحه قد تغيّرت قليلًا، اسمه «أُسامة».

فور أن أمسك بالصورة وتأمّل عينيه العميقتين وحاجبيه الكثيفين الرائعين لاحت على وجهه ابتسامة هادئةٌ، ثُمّ قال بتأثّر:

- لن أنسى هذا الوجه طوال عُمري.

تسارعت دقات قلب «ريتال»وسألته بصوت مرتعش:

- هل رأيته؟

قالت «فرحة» بتوتر:

- أين؟ أين رأيته؟ قُل بسرعة.

مدّ ذراعه، وقال:

- هنا على الجانب الآخر أمام ذاك المقهى. كان يشير بسبَّابته تجاه مقهى يقع في الشارع الجانبي المواجه لمكانهما على الجهة الأخرى من الطريق، ثُمّ أردف قائلًا:

- كان هذا منذ عشر سنوات، كُنت جائعًا، ومتعبًا من عملي في ذلك اليوم البارد، وكان يجلس بهدوء ليتناول فنجان قهوته بينما ينظر لنفسه في مرآة معلّقة على جدار المقهى من الداخل. ألصقت أنفي بزجاج باب المقهى وكُنت أراقبه، أعجبتني هيأته وأناقته وابتسامته التي لاحت على وجهه وكأنّه يعرفني، أشار إليّ لأدلف إلى المقهى فاقتربت منه على حذرٍ وكُنت أحمل كيسًا ممتلئًا بالحلوى أبيعه لأُساعد أبي. أجلسني بجواره وقدّم إلى كعكة شهيّة من الشوكولاتة فالتهمتها وأنا سعيد. لم أنس مذاقها الرائع أبدًا، وكأنّه لا يزال في فمي. اقترب النادل الذي كان يطردني وينهرني كلّما اقتربت من المقهى وكأنني ذُبابٌ يشمئزّ منه. فأخبره أنني ضيفه ونفحه

بقشيشًا، فانصرف وهو يتبرّم مني. بعد أن خرجنا أمسك بيدي وكانت يداه ما زالتا دافئتين فأحببت احتضان كفّه لكفّي. سرنا قليلًا فلاحظ أن أبي يرمقني من بعيد بنظرة حازمة، لاحظ نظرته فتوقع أنّه أبي وأخبرني بلطفٍ أنّه سيشتري مني كيس الحلوى كلّه، أعطاني بعدها مبلغًا كبيرًا من المال، فركضت لأُبشّر أبي وكان يرمقني من بعيد. حيّاه أبي والتفت إليّ يحتضنني، فقد كان عليه دينٌ ثقيل، خفيفٌ على السيّد «أُسامة»، وكُنا في همٍّ بسبب هذا الدين. سددنا الدين وأصبحنا ندعو له كلّما تذكّرناه. في اليوم التالي مرّ مع صديق له، كان كلاهما يجلس على الكرسي الخلفي لسيّارة أُجرة، وقفت السيّارة أمام المكان الذي أجلس فيه مع أبي لنبيع ما يسره الله لنا من حلوى، أو غزل البنات، أو مناديلٌ ورقية. فتح باب السيّارة وترجل منها، ثُمّ اقترب فور أن رآني، ودار بيننا حوارٌ قصير:

- ماهر، كيف حالك؟

- بخير يا سيّدي، ما تلك الدماء التي تُغرقُ ملابسك؟

- كان هناك حادثُ، سيّارة مسرعة صدمت طفلة جميلة، حملتها على صدري، وكان رأسها ينزف.

- هل هي بخير؟

- نعم بخير، خذ يا «ماهر» هذه السُترة تقيك البرد، وهذه جوارب جديدةٌ وحذاء، لا تمشي حافي القدمين مرّة أخرى.

- شكرًا لك! لم أُهدى بحذاءٍ جديدٍ من قبل! كانت هدايا الناس لي دائمًا قديمة أو مُمزّقة، حتى الجوارب كانت مهترئة، شكرًا لك يا سيّدي.. شكرًا لك!

- أراك على خير يا «ماهر».

- متى ستعود؟

- لا أدري.

- أتعلم؛ سأكونُ نبيلًا مثلُك عندما أكبر.

- بل أفضل إن شاء الله.

- إن أحببت رؤيتك أو سماع صوتك ماذا أفعل يا سيّدي؟ هل ستمرّ علينا مرّة أخرى؟

- إن اشتقت إليّ؛ انظر في قلبك ستراني. ثُمّ أشار إلى صدره.

- وداعًا سيّدي.

- بل إلى اللقاء.

انتهى «ماهر» من سرد الحوار الذي دار بينه وبين «أُسامة» آخر مرّة رآه

فيها. كانت دموع «ريتال» تسيلُ على وجنتيها وهي تُنصتُ إليه. كفكفت «فرحة» دموعها هي الأُخرى وقالت وهي ترفع عينيها لوجه «ماهر» بخجل:

- كان ذاك هو اليوم هو الذي صدمتني فيه السيّارة.. وفُجعت أُمّي بشدّة.

التفت «ماهرٌ» لوجهها، وسألها بفُضول:

- هل أنت قريبته.

- لا، لكنّه كان يهتم بنا أنا وأُمّي وكأننا من أهله. منذ ذلك اليوم ونحنُ نعمل في بيت والدته رحمها الله. والآن بعد وفاتها انتقلنا لبيت السيّدة «ريتال»، كانت دائمًا عونًا لنا كما كان هو من قبل، ودّت أن تُكمل رسالته. في الحقيقة لقد تعلّقتُ بها كثيرًا أنا وأُمّي، ولا أظنني أستطيع الاستغناء عنها، أنا أجتهد في دراستي لكي أُسعدها. استمرت دموع «ريتال» في الهطول وهي تُنصت إليهما. كلّ خطوة كانت تخطوها في البحث عنه كانت تدلّ على أثرٍ عميق له، يبدو أنّ «أُسامة» كان ينبوعًا من الخير. كان إنسانيًّا ذاك الحد الذي يجعل البُسطاء لا ينسون وجهه وملامحه لأنّه كان سببًا في تفريج كُرباتهم في لحظةٍ ما. لاحظت «فرحة» دموعها فقالت محاولة إخراجها من شرودها:

- الآنسة «ريتال» خطيبته، وتبحث عنه منذ عشر سنوات، لقد اختفى فجأة عندما كان هنا، لم يُعثر عليه حتى الآن. كلّ فترة نأتي معًا للبحث عنه.

تركتهما «ريتال» وسارت نحو البحر وهي تسترجع كلمات «أُسامة» لـ«ماهر»:

- إن اشتقت إليّ؛ انظر في قلبك ستراني. ثُمّ أشار إلى صدره.

شدّت سترة «أُسامة» على كتفيها ثُمّ وضعت يديها على صدرها، شعرت بألمٍ شديدٍ وكأنّ قلبها يعتصر، وكأن آلاف الإبر رشقت فيه، انتفضت كالمجنونة وأغمضت عينيها كأنه يمر بين ذراعيها، وكان هذا هو المُمكن... الذي لا يُمكن غيره!، أن تتخيل أنّه بجوارها، يتخللها، يعيش فيها.. رغم غيابه.

***

١٦

ألمٌ شديدٌ في رأسه، دقّات قلبه بطيئة وموجعة، هناك ضبابٌ يلفّه، وكأن روحه تصّعّد في السماء. سمع من يناديه من بعيد. هناك ضجّة وأصوات متداخلة. جفونه ثقيلة وشفتاه متجمدتان. هناك شيء يطبق على صدره. تكاد تختلف ضلوعه! ضربة قويّة على صدره أوجعته. تلتها أخرى في نفس المكان آلمته بشدة. قلبه يعتصر وكأن أحدهم قد قبض عليه بقبضة من حديد. الضباب ينقشع. تيار بارد ينساب لفتحتي أنفه. ها هو لسانه يتحرّك. الآن يتنفس، نعم هو يتنفس. يدٌ باردة تربت على يده. وأحداثٌ شعر أنّها قد تكررت من قبل!

- «أسامة»، هل تسمعني.

إنه...إنه..ذاك الصوت الذي يعرفه! حاول أن يجيبه لكنه لم يقدر.

- «أسامة»، افتح عينيك أو حرك أصابعك إن كنت تسمعنا. صوتٌ آخر.

- سيستعيد وعيه تدريجيًّا إن شاء الله.

قالها أحدهم، لم يتعرف على صوته!

شعر بدوران وهبوط، دوى صفيرٌ قويٌ في أُذنيه، كانت أنفاسه تُسحب من صدره. هناك أصابع تتحسس نبضاته.

- لقد بدأ ينخفض ضغطه. قالها طبيبٌ وهو يفتح الصمام ليفرغ الهواء ويزيلُ جهاز الضغط عن ذراعه. شيء بارد يتدفق في أوردة يده. شعر الآن بملمس ملاءة السرير. تحسسها بطرف سبابته ثم حركه، وبدأ يجاهد لكي يفتح عينيه.

ضوء قوي يتلاعب أمام مقلتيه، من بعيد رأى وجهه المستدير وعينيه الضيقتين وهو يمسك بمصباح ويسلطه على عينيه، بينما يرفع جفنه بإبهامه، إنه الدكتور »أمين» الذي قال باسمًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

- أين أنا؟

بالتدريج بدأت وجوههم تتبيّن له. احتضن الدكتور »أمين» كفه وربّت عليها وعلى شفتيه ابتسامة خافتة، بدا على وجهه القلق الشديد، يبدو أن اللحظات السابقة كانت صعبةً جدًّا على كلّ من بالغرفة. من بعيد ومن خلف زجاج الرواق الخارجي رأى وجه أمه. كانت تبكي بينما كانت ذراع «ريتال» تحيط بكتفيها بحنان، خاله أيضًا كان يبكي.

- ما الذي حدث؟ أين أنا!

شعر بيدٍ باردة تلمس خدّه الأيسر فالتفتَ بصعوبة ليجد «يوسف» بجواره. بعد استعادته لوعيه. قاموا بالعديد من الأشعات، والتخطيطات، وتم فحصه أكثر من مرّة. وأخيرًا تمكن من استعادة تركيزه بالكامل ليسألهم مرّة أخرى عمّا حدث. كان يتمدد في فراشه متعبًا مرهقًا عندما بدأ الدكتور »أمين» يشرح له كلّ شيء بالتفصيل مرّة أخرى!

ولكن هذه المرّة كانت تختلف؛ لأنه.. لم يكُن حلمًا:

- كان حادثًا مؤلمًا يا بنيّ، تعرّضت لصدمة في جمجمتك أدّت إلى رَضٍّ دماغي شديدٍ مع تجمع دموي كان يضغط على الدماغ، وبذلنا ما بوسعنا لإيقاف تزايد الضغط الداخلي للجمجمة، وتوقعنا أنّك ستكون في غيبوبة لوقت ما، طال الأمر وكُنت غائبًا عن الوعي لمدّة خمسةٍ وعشرين يومًا، في الحقيقة كدنا نيأس لولا رحمة الله بك. شُجّت رأسك وتلقيت العديد من الصدمات. جسدك ممتليء بالرضوض والكدمات. ساقك مكسورة، لقد نجوت بأُعجوبة. حمدًا لله على سلامتك يا بطل.

- لا أذكر الحادث جيّدًا.

ابتسم الدكتور «أمين» بلطفٍ، وقال له وهو يمسح جبهته:

- أنت الآن في المستشفى الذّي عملت فيه طويلًا يا «أُسامة»، وأنقذت العديد من المرضى بفضل الله. يبدو أنّ تفكيرك مشوشٌ قليلًا، لا تقلق، ستتحسّن تدريجيًّا إن شاء الله.

- إذًا، لم تمرّ عشر سنوات؟

- بالطبع لا...خمسة وعشرون يومًا فقط كما أخبرتك!

- أين أُمّي؟

- سأُدخلها إلى الغرفة حالًا.

مرّت لحظات قبل أن يشعر بدفء كفيها وقبلاتها المبللة بالدموع على جبهته ويديه، كان صوت بكائها الممزوج بفرحتها لعافيته يُمزّق الفؤاد.

- حبيبي، حمدًا لله على سلامتك، الحمد لله الذي استجاب لدُعائي يا «أُسامة».

- أُمّي، هل مات جدّي؟

- لا، هو بخيرٍ.

- هل مات أي أحدٍ من أفراد أُسرتنا؟

- لا.. كلّنا بخير.

- «مريم» أختي، ما بها؟

- أتعبها الحملُ، وحزنت على ما أصابك، لكنّ زوجها يعتني بها جيّدًا. في الحقيقة هو شابٌّ صالحٌ، لم يتركنا هو وأهله في أزمتنا.

- أين «ريتال»؟

- ها هي تنتظرك يا ولدي. التفت «أُسامة» فإذا بـ«ريتال» مُقبلةً لتقفَ على يمينه، كانت ترتدي سترته الزرقاء، منذ وقوع الحادث وهي تتشبث بها وكأنّها تحتضن ذراعه، كان قد تركها بجوارها في المنزل قبل أن يخرج بسيّارته يوم تعرّضه للحادث. ابتسامتها الهادئة كانت ترتعش على شفتيها، دموعها سالت على وجنتيها عندما رأته يرنو إليها.

أغمض عينيه يسترجع كلّ ما رآه وعاشه. كان كلّ هذا يدور في رأسه في وعيٍ موازٍ كان يعيش فيه. لم يمت جدّه، لم يخطىء «حسام» يومًا، ولا زوجته «ريم»، لم يكن «أحمد» خبيثًا، «مريم» بخير، أُمّه بجواره، «ريتال» ما زالت تُحبّه وتنتظره، ولم تمر عشر سنوات بل كانت مجرّد أيام أبحر فيها في عالم غامض.

لم يكُن سهلًا أن يمرّ بهذا وحيدًا. لم يكُن سهلًا على الإطلاق.

***

كان الجوّ رائقًا والسماء مصحية بينما كان «أُسامة» يجلس في حديقة البيت بجوار أُمّه وهي تستند برأسها على صدره. كانت تُنصت لخفقان قلبه في صدره. همس بحنانٍ وقد ظنّها نعست:

- أُمّي، متى سأتزوج «ريتال»؟

دبّ النشاط في أوصالها وعلت وجهها ابتسامة واسعة وسألته بفضول:

- أتُحبّها؟

- بالتأكيد.

- أتعلم يا ولدي، كُنت أعلم أنّ الله سيسوقك إليها ولو بعد حين.

- لماذا؟

- ما كان الله ليخيب رجاء تلك العفيفة، وحاشاه أن يُحزن قلبًا انكسر بين يديه طاعة له. كانت الفتاة تُحبّك وتستعفف، كنت أشعر بها.

شعر «أُسامة» بعطفة تجاه أُمّه عندما تذكّر تلك الصور التي لا يعلم حتى الآن كيف رآها وهو في غيبوبته! وكل تلك اللحظات التي مرّت بها وعاشها وكأنّه أبحر في عقلها وفتّش فيه. تشابكت في رأسه الخطوط.. تشوشت أفكاره.

التفتت أُمّه إليه، وقالت بفضولٍ أنيس:

- أخبرني يا بنيّ؛ كيف التقيت بـ «ماهر»؟

رفع حاجبيه باستغرابٍ وقال:

- ومن هو «ماهر» يا أُمّي؟

- طفلٌ صغيرٌ جاء لزيارتك مع والده بعد أُسبوع من الحادث بعد أن رأى صورتك في الجريدة. تذكّر «أُسامة» ذاك الوجه البرئ الذي كان يُلصق أنفه بزجاج المقهى وهو في الإسكندرية، وقال:

- طفلٌ صغيرٌ يبيع الحلوى التقيت به في الإسكندرية.

- يبدو أنّك اشتريت منه الكثير من الحلوى.

ابتسمت أُمّه ورمقته بنظرة ذات معنى، كانت تعلم كيف يرقّ ابنها للفقراء. في الحقيقة أخبرها والد «ماهر» عندما التقى بها أنّه أعطاه مبلغًا مبالغٌ فيه من المال مما جعله يذكر وجهه جيدًا. ودعا له كثيرًا قبل أن ينصرف.

- ومن هو «سعد»؟

قالتها وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة وضّاءة.

مرّ أمام عينيه طيف السيّد «سعد حلمي» الذي التقى به على الشاطيء. وتذكّر كيف اجتهد ليتواصل مع ابنه وراسله ليرقق قلبه على والده. لم يكن في حاجة لشرح ما يتعلق باللقاء لأمّه، بدا له من نظراتها أنّها تعرف القصّة كاملةً. انفرجت أساريره، ثُمّ سألها مُشاكسًا:

- هل زارني هو الآخر؟

- نعم الأسبوع الثاني بعد وقوع الحادث. أيضًا علم بأمر الحادثِ من الصُحف. لا تنس أنّك طبيبٌ مشهور، وأنك تعمل بأحد المستشفيات المشهورة. كان يرقيك ويتحدّث إليك، ويهمس في أذنيك بآيات القرآن. لكنّه لم يعُد أو يتصل مرّة أخرى. يبدو يا «أُسامة» أنّ الله نجاك بفضله عليك من تلك الأعمال الصالحة فصنائع المعروف تقي مصارع السوء، أليس كذلك؟. أكرمنا الله بشفائك عندما تركنا التعلّق بالطبيب والدواء، وأخلصنا لله.

أطرق «أُسامة» مفكرًا، ثُمّ عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم حيث كان يراقب فيه البحر بلونه اللازوردي الرائع. استعاد ذاك الشعور بالانشراح والسّعادة الذي مسّ صدره وهو يراقب الزوجين السعيدين وهما يسيران يدًا بيدٍ وكأنّهما روحٌ واحدة. عاد ذاك الحنين لأنيس يسكُن إليه. هو يُحبُّ «ريتال»، ويحتاج الآن إليها.

بدا وكأنّ أُمّه قد قرأت أفكاره فقالت وهي تُناوله قهوته:

- ألم تلاحظ أنّ «ريتال» فقدت الكثير من وزنها؟ لقد انفطر قلبها عليك.

كانت «ريتال» قد فقدت الكثير من وزنها، ومن صبرها، ومن دموعها. لم يعلم أنّها ذُبحت مرّاتٍ خلال الأيّام التي غاب فيها عن الوعي تمامًا.

طُعنت حدّ الموت في كلّ مرّة كان يطوف على وجه أخيها «يوسف» ظلّ اللا أمل في صحوته من تلك الغيبوبة. ابتُليت مرّة أخرى في ابتلائها الأولُ بحبّه.

أردفت أُمّه قائلة وعلى شفتيها ابتسامة لطيفة:

- أتذكر عندما كانت تقسم ألواح الشوكولاتة، وتحتفظ لك بنصفها في كفّها الصغير حتى تسيل من حرارة يدها، أحبّتك كثيرًا منذ نعومة أظافرها.

تواردت على خاطره كلّ اللحظات الحلوة التي عاشها معها. استيقظت تلك الذكريات المنكمشة في اللا وعي وهبّت كلّها ناهضةً فجأة. كانت تنتظر أن يحفّزها أحدهم بطرف مدبب. شعر بحنين إليها، فقال بصوت متهدّج:

- سأذهب إليها الآن؟. تعال معي.

- هيّا بنا، فقد تأخّرت عليها كثيرًا.

تأبّطت أُمّه ذراعه وسارا وسط الحديقةِ معًا حتى باب البيت. أمسك بمعصم أُمّه برفق، وقال لها:

- أُمّي، هل تشعرين بخفقان عندما تستيقظين من النوم؟

التفتت إليه بتعجب وسألته:

- وكيف عرفت؟

- وهل تخفين عنّا آلام أضراسك؟

ارتبكت، ثم قالت بتوتر:

- نعم.

- لماذا؟

- لأنّك ستصحبني لطبيب الأسنان.

طالعها بلومٍ، ثُمّ قال:

- كفّي عن تناول المسكنات ودعينا نذهب إليه.

- لكنني....

- أعلم أنّك تخشين من وخزات إبر طبيب الأسنان.

- أخبرني يا ولدي، كيف عرفت؟

اقتربت «فرحة» من السيدة «دولت» وأخبرتها أنّ الجدّ يطلب رؤيتها الآن. التفتت لابنها قبل أن تنصرف، وقالت بجدّية:

- «أسامة»، ذاك الجدول الذي رأيته منذ قليل على مكتبك.

- ما به؟ تعلمين أنني أُحبّ التخطيط لحياتي، بالتفصيل، اعتدت كتابة أهدافي وخطواتي هكذا.

- خطط كما تُحبّ يا بنيّ، لكن لا بدّ أن تُدرك أن الحياة لا تسير بالقلم والمسطرة فقط!

- ماذا تعنين يا أُمّي؟

- انظر لحياتي! سارت «بالألم» والمسطرة، ألمٌ لفراق أبيك رحمه الله، وآلام أخرى لا أستطيع البوح لك بها، كانت لي أحلامٌ وأهدافٌ مثلك لم تتحقق، وكان صعبًا أن أنتظرها لتتحقق، فأحيانًا يظلّ هناك أهدافٌ صعبة المنال. وانظر لابن خالك «يوسف» لو اتخذت «سارة» قرار زواجها منه «بالمسطرة» ما قبلت الزواج منه! تقبّل بعض الأشياء كما هي، دون مقاييس محددة، دون مثالية.

كادت تنصرف، ثُمّ عادت أدراجها وأشارت إليه مرّة أخرى وكأنها تُريد استدراك شيئًا ما نسيت أن تخبره به:

- اسمع؛ اقترح أخوك «حسام» أن نقوم بهدم البيت لنبنى مكانه عمارة فارهة يكون لكلّ منكم فيها بيتٌ مستقلٌّ. وقد وافق جدّك، ويبدو أنّ "حسام" لديه من المالِ ما يكفي بفضل الله، وسنبحث عن مكان ملائمٍ لننتقل إليه مؤقتًا. ما رأيك؟

- أعشق هذا البيت، لا أدري كيف سأتحمل هذا الأمر!

ابتسمت بينما كانت تدلف إلى البيت وتركته وهي تتذكر كيف كان الصوت يدغدغ أذنيها عندما ناولتها الطبيبة التي كانت تتابع حملها منذ سنوات طويلة سمّاعتها لتُسمعها صوت دقات قلب جنينها.

***

من بعيد تصاعد صوتُ أزيز سيّارة "سليمان"، كان مظهرها الخارجي يُحدث بهجة في نفس من يراها. لونها الزاهي، عجلاتها العجيبة الشكل، تلك الدلايات غريبة الشكلِ التي علّقها "سليمان" داخلها، حتى أنّ صلاح كان يقهقه وهو يركض ليفتح بوابة البيت الحديدية ليسمح لها بالدخول. أحدثت السيّارة فرقعة قبل وقوفها فلاحت ابتسامة على وجه «أُسامة» الذي كان ما زال بحديقة البيت يراقب صديقه من بعيد، اقترب «سُليمان» وحيّاه بحرارة، ثُم قال بعد أن جلس بجواره على مقعد حجري يتوسّط الحديقة:

- جئت أودّعك، فقد طالت إجازتي ولا بدّ من العودة للعمل.

- وددت لو بقيت معي فترة أطول، فأنا فعلًا أشتاق للحديث الطويل معك، ليتك تُخبرني بكلّ ما حدث أثناء غيبوبتي.

سحب «سُليمان» نفسًا عميقًا ثُمّ عقد ذراعيه أمام صدره، وقال بيأس:

- للأسف ليس عندي ما أُطرفك به من أخبار، ولكن لا بدّ أن تعلم أنني شعرتُ بالوحدة، بل باليُتم.. وكأنني بلا أهل! تلك الغيبوبة التي غرقت فيها وتركتني وحيدًا جعلتني أتخبّط، أنت صديقي الوحيد يا "أُسامة، أتعلم هذا؟ أتدرك معناه؟

لمح "أُسامة" الهمّ بين عيني صديقه، فقال ينصحه:

- أنت فرضت على نفسك هذا الحصار. الجميع يهربون من المكان الخالي، ويشعرون بوحشة لو ابتعدوا عن أهليهم أو أحبائهم، كلنا جربنا الوحدة، لكن لوقت استثنائي، لا يجب أن تُطيل وحدتك هكذا! عُد لبيت أبيك واخرج من تلك المتاهة.

- حتى وإن كُنتُ بين أسرتي، أنا وحيد جوهريًّا وكذلك أنت، فأنا أتخذ قراراتي المصيرية وحدي، وأتحمل نتائجها وحدي، وسأموت وحدي وأحاسب عليها وحدي. فلا فائدة من مخالطة الناس.

- الأماكن الفارغة موحشة ومخيفة، تُشعرك بضآلتك، وستقفز أمام عينيك تساؤلات تُحاصرك، أسرع نحو أهلك واسكن إليهم يا «سليمان»، كُن معهم في جماعة، ولتأنس بتلك الروح الحميمية التي

تغمر البيوت عندما يُشرق عليها الحبّ، عندها وبعد أن تنصهر معهم ستكون لروحك خلوات بيضاء في زاوية ما بنفسك، تناجي فيها السماء، وأنت ساجد، أنت خاشع، وعندما تُلقي برأسك على وسادتك، وحتى وأنت تتحدّث معهم.

- ولكن. باب الذكريات ما زال مفتوحًا أمامي، تتسرّب من آن لآخر ذكرى مؤلمة فتعضّ على قلبي ثُمّ تختبىء.

أطرق «أسامة» يفكر للحظات، ثُمّ باغته قائلًا:

- سامح والدك يا «سليمان»، فقد سامحته أُمّك.

ارتبك «سليمان»، كانت تلك المرّة الأولى التي يتحدّث فيها «أُسامة» صراحة عن الأمر. كان كلاهما يتفادى الحديث عنه، «سليمان» يكره التفتيش في الماضي، و«أُسامة» لا يودّ نكأ جرح صديقه مرّة أخرى، يكفيه ما بقلبه من ألم. قال «سليمان» وهو يشيح بنظراته بعيدًا عن عيني صديقه:

- لا أستطيع، كلّ ركن بالبيت يُذكّرني بوجه أُمّي وهي تبكي وتعضّ على شفتيها لتكتم صرخاتها حتى لا نستيقظ، وأبي ينهال على جسدها باللكمات ويركلها بقسوة، مشهد فرارها منه لتحتمي بأثاث البيت لا يفارق خيالي، كُنت أختبئ وأراقبهما من بعيد خوفًا منه.

توقف «سليمان» عن الكلام وهربت من عينه دمعة احتواها سريعًا بكفّه، وبصوت مُرتعش أردف قائلًا:

- ظلّ يضربها يومها، فحلت بينهما بجسدي وتكورت عليها لأحميها منه، ثُمّ استدرت لأواجهه، كُنت أصرخ فصفعني بقسوة، ظلّ يسبّني فدفعته نحو الحائط، واحتضنت أُمّي مستقبلًا لكماته التي انهال بها على ظهري غضبًا، جذبني منها بقوّة ودفعني ركلًا وضربًا ثُمّ ألقاني على الدرج متوعّدًا إيّاي بالعذاب إن عُدتُ ثانية. لجأت لخالي وأبلغنا الشرطة، جُرح كبرياؤه عندما دلفت أُمّي إلى قسم الشرطة لتتنازل عن محضر البلاغ المقدّم ضدّه، عاد للبيت...وغاب الأمان.

- ألم تُخبرني أنّه تغيّر، وأنّه نادم على ظُلمه لوالدتك؟

- بلى.. تغير كثيرًا حتى أنّه يبذل قصارى جهده ليعوضها.

- فلتودّع هذا المشهد المؤلم، والدك يحتاجك، وأنت تحتاج لبرّه.

- لا أحتاجه.

- بل تحتاجه، تحتاج إلى حضنه الهادىء، ورائحته التي تغمر البيت، ورنّة صوته المميزة، ودفء كفّه الحاني على ظهرك، ونصيحته بصدق وهو يدقق في عينيك صابًّا كلّ خبرة حياته في جُمل قصيرة، وإنصاته إليك

باهتمام، ولومه لك على أخطائك، وتحذيره لك من الخطر. تحتاج لتلك اللحظة التي ترى فيها انعكاس نظرة الفخر في عينيه عندما يراك ناجحًا، لامعًا، مهذّبًا، تلك الفرحة التي تختبىء في ركن عينيه عندما يرى ملامحك التي تشبهه. أتحرمه منك وكلاكما على قيد الحياة!

انحنى «سليمان» وتقوقع كالطفل الصغير في مكانه، كان يرزح تحت موجة من الانفعالات والأحاسيس جعلته يرتجف، لكنّه تمالك نفسه سريعًا. قال بصوت غلبت عليه رنّة الحزن والألم:

- هل يبغضني الله بسبب انصرافي عن أبي؟

- أحسن الظنّ بالله.

- لا أجد بين القلوب حولي قلبًا يحزن لحزني.

- حان الوقت لأن تتحلى بالشجاعة الكافية وتفتش في حقيبة ذكرياتك، حتى لو تحسست نفسك ذكرى مؤلمة فانفضها عن فكرك وتشبث بالذكريات الحلوة، تذكّر حبّ أبيك لك، عُد لبيتك.

- أتظنّ أنّ الله يحبّني يا «أُسامة»؟

- الله يُحبّنا يا صديقي، ثق بهذا جيّدًا.

افترّ ثغر «أُسامة» عن ابتسامة لطيفة، وقال بيقين:

- أتعلم يا «سليمان»، تلك الرسائل الربانية التي كانت تصلني كلّ يوم لتوقّع على ورقات أيامي أعادتني إلي الطريق، كنت أرى شبح الموت يلوّح لي في كلّ لحظة، ظننت أن الله لا يحبّني، لكنني الآن أُحسن الظنّ به.

- أيّ رسائل؟ حدثني عنها أرجوك يا صديقي.

أطرق «أُسامة» للحظات، ثُمّ قال:

- أن تندفع بعلّة غامضة لمساعدة شخص ما لا تربطك به أدنى صلة قرابة، فتخرج مسرعًا ويقع لك حادث، ثُمّ تشعر بلطف الله الخفيّ عندما ينتشلك من غيابة الجُب، وقد كنت على حافّة الموت. أن تأتيك رسالة ما على لسان رجلٍ طيّبٍ التقيت به يومًا ما على الشاطىء، فيُسمعك كلمات يرتجّ لها كيانك. أن تُلهم إجابات بليغة على أسئلة حيّرتك، إجابات لم تقرأها يومًا في كتاب ولا سمعتها من أحد. ولكنّك عشتها في وعيٍ موازٍ كنت تعيش فيه أثناء غيبوبة لأيّام انقطع فيها حبل اتصالك بالواقع واتصل بعالم آخر لا يحكمه قانون البشر، ولاتُدرك أنت بضعفك كنهه، ولا تعلم كيف وصلتك بطريقة ما أخباره، والله وحده يعلم. أن تُطلّ عيوبك كلّها فجأة وتُحدّق فيك فتخجل من نفسك وتنكمش بضآلة، فيتضعضع كبرياؤك وتنهار، ثُمّ يأتيك صديق مخلص فيقف بجوارك ويثني عليك في لحظة

احتقارك لذاتك ويمدّ لك يده. أن تعلم أنّ البصيرة الموفقة قد يُرزقها آخرون أبسط منك حالًا أو أقلّ عمرًا وتغيب عنك أنت، فتتعلم أن تتواضع لمن حولك، وتتذكّر أنّك من طينٍ لاذب، والطين لا يدوم، أما النور فأبدي، ولهذا لا بد أن ترتقي بروحك وتركض بنفسك نحو النور. كلّها رسائل وصلتني تباعًا فأيقظتني من غفلتي.

انتهى «أُسامة» من كلماته التي مرّت على «سليمان» وكأنّها قد غسلت نفسه من أدرانها، مسح وجهه بكفّيه ووقف يستعد لمغادرة المكان وقد هدأت ملامحه. سارا معًا نحو سيّارته العتيقة، ابتسم «أُسامة» وسأله مازحًا:

- أما زالت تلك المجنونة تبصق دخانًا أسودًا؟

أجابة «سليمان» ضاحكًا:

- بلى، وتطلق فرقعة خفيفة عندما أبدأ في تدويرها.

كاد أن يفتح باب سيّارته فاستوقفه «أُسامة» وتعانقا وكأنّهما قد التقيا الآن للتو بعد فراقٍ طويل. همس في أُذنه وهو يربت على ظهره:

- عُد لخطيبتك، اعتذر لها فقد كانت كلماتك قاسية عليها عندما اختلفتما في المرّة الأخيرة، لا توسّط أي زميل بينكما مهما بلغت ثقتك به.

عاد «سليمان» برأسه للخلف ورمقه بتعجبٍ، ثُمّ قال بخفوت:

- وكأنّك تقرأ أفكاري! سأفعل يا صديقي، سأفعل...

انصرف «سليمان» بقلب غير قلبه، وعقل غير عقله. بعد دقائق، كانت السيّارة المتهالكة تبصق دخانها الأسود على الطريق، وعلى الطرف الآخر من هاتف «سليمان» كان صوت والده مفعمًا بالبهجة وهو يثرثر معه، فتح «سليمان» أخيرًا حقيبة ذكرياته وبعثر كلّ ما طواه بها من فرحة فأشرقت قسمات وجهه.

***

بعد أن ودّع «أُسامة» صديقه «سليمان» سار بهدوء تجاه باب البيت مارّا بالصغيرة «فرحة» وقد بعثرت ألوانها حولها وافترشت أرض الحديقة، كانت منهمكة في رسم شيء ما باهتمامٍ شديد، رسمت بيتًا كبيرًا نوافذه كلّها مفتوحة، تعلوه عينان كبيرتان ومخيفتان، تبدوان ككهفين مظلمين. اقترب منها وسحب دفتر الرّسم برفق، وسألها:

- ما هذا يا "فرحة"؟ هل هذا بيتنا؟

أومأت موافقة ثُمّ وقفت أمامه ورفعت ذراعيها وأشارت بسبابتيها للعمارتين الفارهتين المنتصبتين أمام البيت، وقالت وهي تُحدّق في عينيه:

- السهام تسقط من أعلى، كلّهم يراقبونكم.

بدأت دقّات قلبه تتسارع من جديد، ثمّ استجمع رباطة جأشة وسألها بانزعاج:

- من هم؟

قالت بهمس مخيف:

- الغرباء.

قلّب في صفحات الدفتر فوجد عدّة صور، أوّلها لامرأة نحيفة جافّة تشبه الأفعى لديها عينان كبيرتان ولسان طويلٌ مشقوق، سألها دون أن يرفع عينيه عن الدفتر:

- من هذه؟

أجابته بتلقائية:

- السيّدة "رقيّة" جارتنا.

ثُمّ تجاهلت نظرة التعجب التي أطلّت من عينيه وأشارت لرسمتها التي تليها، وقالت باهتمام:

- وتلك هي السيّدة "دولت".

كانت الرسمة لقرص شمس يقترب من الأُفق، لحظة غروبٍ انقبض

لها صدره، بأصابعَ مرتعشةٍ قلب الصفحة فرأى رسمة أخرى لفتاة ترتدي فستانًا أرجوانيًّا يشبه هذا الذي ترتديه دائمًا "ريم"، كانت حولها هالة ممزقة متقطعة، قبل أن يسألها كان صوتها يخترق أذنيه، وهي تقول:

- تلك هي السيّدة "ريم" هالتها ليست مقدّسة.

ازدرد ريقه بصعوبة، فاجأه معرفتها بأمر "الهالة المقدّسة"، من أين لها أن تعلم بأمرها! ألم يكن كلّ ما مرّ به وهو في غيبوبته مخبوءًا عن الجميع في رأسه؟

سألها وهو يثقبها بنظراته:

- ماذا تعنين بالهالة المقدّسة؟

حدّقت لوهلة في عينيه ثُمّ سحبت دفترها من بين يديه بحرص وأجابته بثقةً:

- عندما انتقلنا لبيتكم رأيت تلك اللوحة الزيتية الكبيرة ذات الإطار المذهّب المعلّقة على الجدار الرئيسي في صالة البيت، سألت السيّد "كمال" عنها فأخبرني أنّ البيوت الطيّبة لا بدّ أن تكون لها هالة مُقدّسة تحفظ خصوصياتها، وكذلك كل فتاةٍ ذات أصلٍ ودينٍ وشرف. حتّى أنّه أمسك عصاة خشبية طويلة عندما رآني أركض في الحديقة ورسم بها حولي

دائرة على الأرض، أخبرني أن تلك هالتي المقدّسة، ولا بدّ أن أحفظ نفسي لكي أكون فتاة صالحةً عندما أكبر، لا أسمح لغريب أن يقتحمها فيؤذيني، ولا أُخرج ما يخصّني خارجها. أخبرتني السيّدة "دولت" أن والدها فعل هذا الأمر معها أيضًا، وهي صغيرة.

ساد الصمت للحظات، اقتربت "فرحة" منه بلطف ثُمّ رفعت عينيها بعذوبة، لم يلتفت إليها فقاطع صوتها أفكاره عندما قالت:

- أُريدُ أن تكون هالتي مُشرقةً ومضيئةً كالآنسة "ريتال".

أطرق يُفكّر في كلماتها، وشعر برهبة، أدرك الآن لماذا كان "ريتال" تتجنبه، تصدّه أحيانًا، تبتعد عنه، لا تسمح له بالاسترسال في الحديث معها. يبدو أنّ كلّ ما مرّ به وعاشه يستحقّ الكثير من التأمّل.

اقتربت "فرحة" من أُذنه وزمّت عينيها، ثمّ همست:

- لديّ شيء بالغ الخطورة أقوله لك، يجب أن أُحذّرك..أحد ما سيموت في هذا البيت.

شعر بانقباض في صدره، والتفت يسألها:

- من؟ من سيموت؟

تراجعت خطوة للخلف وطالعته بنظرة واثقةٍ، وقالت:

- أخبرتك بكلّ شىء وأنت بالمستشفى، كُنت تسمعنى جيدًا، مقلتاك كانتا تتحركان خلف جفنيك.

- عن أيّ شىء تتحدثين؟

- عن ذاك الكابوس الذي رأيته، شخص ما سيموت في هذا البيت، أليس كذلك؟

وضع يديه على كتفيها ونظر إلى عينيها بثقة وقال بنبرةٍ هادئة:

- كلّنا سنموت يا حبيبتي.

دققت فيه النظر طويلًا بعينيها الرائعتين ثمّ قالت:

- نعم، أخبرتني أُمّي أن أبي في الجنّة إن شاء الله، وأننا سنرحل جميعًا إليه، ولكن ليس وقتٍ واحد، أليس كذلك؟

حاول أن يُرتّب أفكاره بسرعة، ظلّت "فرحة" تتحدث عن رسماتها وتشرح له، كان يُنصت إليها بأُذن شاردة، ثُم أخيرًا عاد إليه الهدوء، طالع البيت من الخارج...ما أروعه! في هذ البيت كانوا ينعمون، وعلى أسرّته كانوا يقيلون، وفي غرفه كانوا يغدون ويروحون، واليوم لا بُدّ أن....

قاطع صوت الصغيرة أفكاره مرّة أخرى عندما كررت سؤالها، منحها ابتسامة ثقة كانت تعني لها الكثير، داعب خصلات شعرها، وقال بصوتٍ حنون:

- صحيح يا صغيرتي، كلامك صحيح. والآن دعينا نرسم شيئًا حلوًا، ما رأيك أن ترسميني أنا و«ريتال» ونحن نجلس على شاطيء البحر؟ هل أخبرتك أنني سأتزوجها قريبًا؟

صرخت من شدّة الفرح، وقالت بحماس:

- حسنًا، سأفعل.

عادت لدفترها وألوانها، وغرق في أفكاره وهو يتأملها، الصغيرة ببراءتها تلاحظ ما لا يلاحظه الكبار. لا بدّ من منع الشرّ قبل وقوعه! فليُهدم البيت الكبير إذًا، ولتُبنى عمارة فارهة تُشبه الأخريات. بيوتٌ صغيرة آمنة، حتى وإن تقاربت وتجاورت فلديها حدود تحجب سرّ كلّ زوجين. وليكن لكلّ بيت "هالة مقدسة" يقف عندها الغرباء، الآن فقط أدرك سبب عزوف خاله عن الانتقال لبيت الجد الكبير بعائلته.

كانت "فرحة" سعيدة وهي ترسم "ريتال" التي تُحبّها، قررت أن توقّع اللوحة هذه المرّة كما وقّعها رسام اللوحة الكبيرة، رفعت صوتها وهي توقعها، وقالت بدلال:

- وقّعتها مثله.

- من هو؟

- رسّام اللوحة؟

لاطفها وأبدى إعجابه برسمتها، فالتفتت إليه ومنحته ابتسامة رائعة، وكأنّها لم تؤت وجهًا تعبس به أبدًا.

***

مشت جذوة النهار في فحمة الليل. فتح "أُسامة" عينيه ببطء متسائلًا عن اسم اليوم والتاريخ! متلفتًا حوله بشكل هستيري يبحث عن هاتفه، أراد الاتصال بالدكتور "أمين" ليبوح له بما يقلقه، لكنّه تراجع عندما شعر أن إجاباته لن تروي ظمأه، فما مرّ به لا يُفسّره الطبّ والعلم!

قلّب في قائمة الأسماء، ظهر اسم خاله "كمال" على شاشة الهاتف، كاد أن يُهاتفه.. ربما يجد إجابات على تلك الأسئلة التي تتناطح برأسه، لكنّه تراجع مرّة أخرى، فضمن الأحداث التي مرّ بها ورآها هناك أسرار تخصّ العائلة! ألقى الهاتف على الفراش واعتمد رأسه بين يديه، تحسس أثر الجرح برأسه وجلس في هدوء يجترّ كلّ لحظة عاشها أثناء غيبوبته؛ حيثُ كان خارج الزمان والمكان.

التفت مرّة أخرى لهاتفه، تذكّر السيد "سعد حلمي"، أسرع يُهاتفه،

أدخل صوت "أُسامة" السرور على نفس الرجل، فقد انفطر قلبه عليه عندما علم بالحادث:

- حمدًا لله على سلامتك يا ولدي، علمت بأخبار تعافيك وإفاقتك من الغيبوبة من الصحف أمس.

- اشقت إليك، وللحديث معك يا عمّاه.

- وأنا كذلك، افتقدتك كثيرًا وكنت أشتاق لمكالماتك التي كُنت تسليني بها، كنت سببًا في اطمئنان نفسي بكلماتك الطيّبة التي كانت تملّس على جروح نفسي.

- ليتني أستطيع أن أُملّس على جروح نفسي أنا أيضًا.

- ما بك يا "أُسامة"؟ أما زلت متعبًا من أثر الحادث؟ هل تتألّم!

غمغم "أسامة" قائلًا:

- بل أنا مخنوق.

- لماذا يا ولدي؟ أنت في نعمة..تذكّر فضل الله عليك، الحمد لله الذي نجاك.

همس "أسامة":

- لم أكن غائبًا عن الوعي.

- ماذا!

ثُمّ قال بفمٍ يرتعد:

- كُنت أسمعهم، حتى أنني شعرت بهم وهم يفحصونني بعد الحادث، حتى نقاش الأطبّاء حول حالتي سمعته بالتفصيل، هناك في تلك الغرفة!. أصوات من زاروني، حتى يدك الدافئة وأنت ترقيني وتهمس في أُذني بآيات القرآن بعد حديثي مع أُمّي ومع "فرحة"، تلك الطفلة التي أخبرتك عنها من قبل، اكتشفت.....

- اكتشفت ماذا؟

- كنت أمرّ بأحداثٍ غريبة، عشتها فعلًا، وأحسست بها!

- ربما خيالات من عقلك الباطن.

قال بنبرةٍ يشوبها الشكّ:

- وهل كلّ هذا خيال؟

- نعم.

صمت لوهلة ثمّ قال بتوتّر:

- لا أُخفي عليك، تخيّلت فعلًا أنني قُمت بنسخ ذاكرة أُمّي على شريحة، وأنها زرعت برأسي فقرأت كل ذكرياتها وعشتها.

- ألم أُخبرك أنّه خيال.

- لكن..هناك حقائق وأسرار تخصّ الأُسرة تكشّفت لي!

- وما أدراك أنّها حقيقة؟

شخَصَ "أُسامة" صوب النّافذة حيث كانت قبالته تتماوج ستائرها وقال:

- أخشى أن تتحقق.. لا أظنّ أنّ كلّها خيالات.

- صحيحٌ أنّ الخيالات التي تمتلىء بها أذهاننا وتموج بها عقولنا ما هي إلّا رسوم ضئيلة لحقائق الكون. لكن ليس من الضروري أن تحدث بالتفصيل، أحيانًا نرى رموزًا، أو تحذيرات في الرؤى والأحلام.

- أتعني أنّ هذه رؤى!

- لا بدّ أنّك تبحث عن تفسير علمي، فأنت طبيب.. أليس كذلك؟

- ما مررت به غريب. لا أظنّ أنّ العلم سيحلّ تلك الأُحجية الغريبة.

- اسمع مني يا بنيّ، هناك فرق بين الموت الذي تغادر فيه الروح الجسد

بشكل تام وكامل، والنوم الذي تغادر فيه الروح الجسد بشكل جزئي. وبهذا فهي تتلاقي مع الأموات والأحياء وتتناقل الأخبار، وعند عودتها إن كان صاحبها من الصالحين تعود إليه بالأخبار الحقيقية على شكل رؤى طيّبة، بشريات، رموز، وأحيانًا يلبس عليه الشيطان الأخبار.

استقبل «أُسامة» كلام الرجل بصمتٍ مهذّب، ثُمّ قال:

- عندما سافرت إلى المملكة المتحدة كان من أهم الشروط لأنضمّ إلى فريق البحث العلمي هناك أن أُنحّي الدين جانبًا.

- يا له من شرط!

قال السيّد «سعد» كلماته السابقة وداهمته نوبة سعالٌ متواصلٌ لكنّه واهٍ وضعيف وكأنّه منبعثٌ من بئرٍ عميق، انتظره «أُسامة» على الهاتف حتى هدأت أنفاس الرجل، كان يتنفّس بصعوبة، حاول أن يعتذر منه لينهي المكالمة لعلّه يرتاح، لكنّ «سعد» أصرّ على إكمال الحوار. كان يستعذب الكلام مع «أُسامة»...

- سعالك غريب يا عمّي.

- الروائح تهيج صدري، روائح العطور، التوابل، الطعام، الطلاء، حتى الألوان الزيتية.

- شفاك الله.

- سلمت من كلّ سوءٍ يا ولدي، فلنعد لما مررت به ويحيّرك.

- حسنًا، ما تفسيرك لما مررت به؟

- أثناء فقدانك لوعيك تلاقت روحك بروح أمك وريتال وبي والآخرين، وعادت إليك بحقائق جلية ما كان لك أن تتخيلها أو أن يأتي بها وعيك أبدًا.

- ربّما!

- يقول ربنا عزّ وجلّ في كتابه:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.. تقبض الأرواح عند نيام النائم، فتقبض روحه في منامه، فتلقى الأرواح بعضها بعضًا: أرواح الموتى وأرواح النيام، فتلتقي فتساءل بعضها البعض عن أحوال البشر. فيخلي الله سبحانه عن أرواح الأحياء، فترجع إلى أجسادها، وتريد الأخرى أن ترجع، فيحبس الله التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى بقية آجالها .

كانت كلمات السيّد "سعد" تُسرج في عتمة قلب "أسامة" قنديلًا

واحدًا تلو الآخر، تكشّفت بعضُ الحقائق فاطمأنّت نفسه، ثُمّ اتسعت أحداقه وهو يُردد دعاء النوم تلقائيًّا، وكأنّه يتلوه لأوّل مرّة في حياته:

- «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

همس السيّد «سعد» مفسّرًا معنى الدعاء بصوت تغلغل في عروق «أُسامة»:

- إن أمسكت نفسي أي قبضت روحي في النوم، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين أي حفظ الروح دون لبس من الشيطان.

خطا «أُسامة» نحو النافذة وأغلقها، أسند رأسه عليها فتكاثفت أنفاسه على زجاجها، التصقت سمّاعة الهاتف بأذنه المتعرّقة، قال بنبرةٍ حائرة:

- كل ما تفضلت بذكره يكشف أسرارًا وحقائقَ عن الروح عند النوم أو الموت، ولكن لا يُفسّر الحالة الفريدة التي مررت بها خلال غيبوبتي، قد علمنا حال الروح عند النوم، فأين تكون عند فقدان الوعي؟ أين كانت روحي؟.. لا أدري!

- لكنّ الله يدري.

ران عليهما صمت مهيب للحظاتٍ قصيرة، ابتسم بعدها «أُسامة»

ابتسامة من عثر للتوّ على شيءٍ قد ضّاع منه، وقال:

- يبدو أنني سأخوض البحث في تلك المنطقة مستندًا لتلك الحقائق الثابتة في القرآن والسنّة، لا بدّ أن أعود لأبحاثي العلمية، ولن أتوانى حتى أصل لنتيجة مرضية عنها.

- بالتوفيق يا ولدي، وتذكّر قول الله تعالى:»وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا»، تلك دعوة للاستزادة والبحث عمّا ينقصنا من علم في شتى شئون حياتنا.

- سأزورك قريبًا إن شاء الله.

- سأنتظرك.

نقل «أُسامة» سمّاعة الهاتف لأُذنه الأخرى وسأله بفضولٍ أنيس:

- كيف تقضي وقتك؟

- أُراقب تعانق ألوان الطيف في السماء، خلف الغيمات، وراء الشمس.

ابتسم أُسامة» عندما استحضر وجه السيّد «سعد» عندما كان يجلس بجواره على الشاطيء وهو يبتسم كطفل بريء ويراقب السماء.

أنهى المكالمة وقد سرت الطمأنينة في صدره.

ثُمّ اتجه إلى صالة البيت حيث اللوحة المعلّقة والتي تتصدر الحائط الرئيسي، تفحّصها بإمعانٍ وكأنّه يراها لأوّل مرّة، لاحظ النوافذ المغلقة، والزهور الرائعة التي تزيّن حديقة القصر وكأنّها نُثرت على ذيل رداء أخضر فتّان لعروسٍ بهيّة، وأعجبته الهالة التي تعلو القصر وكأنّها تطير في السماء. انحنى واقترب برأسه وضيّق عينيه ليتمكن من قراءة التوقيع على طرف اللوحة، لم يخطر بباله أن يحاول معرفة من هو هذا الفنان الماهر يومًا ما، ولم يهتم بالأمر أبدًا من قبل، اتسعت حدقتا عينيه وهو يقرأ بصوتٍ مسموع: "سعد حلمي"، قهقه بصوتٍ عالٍ، وأسرع نحو غرفة جدّه ليسأله عن قصّة اللوحة، وكيف التقى بذاك الشاب الذي رسمها منذ سنوات، أراد أن يُخبره أنّه يعرفه...وأنّه ما زال يراقب انعكاسات ضوء الشمس على صفحة ماء البحر لتتعانق بدلالٍ خلف السحب في السماء.

***

بسمة في ثغر الصباح بدت الغيوم، كانت الشمس ترقص فرحًا لهما، حيث كانت «ريتال» تجلس بجوار زوجها في نفس المكان، تزوجها أخيرًا وكان حفل زفافهما منذ شهر. لن ينسى أبدًا تلك الدمعة التي سالت على لحية خاله التي شابت وهو يسلّمه «ريتال» بفستانها الأبيض، وها هما

يقضيان آخر أسبوع من شهر العسل في الإسكندرية. على الشاطيء حيث امتد البحر اللازورديُّ الفتّان، وحيث كان من قبلُ يراقب وحيدًا زوجين سعيدين ويشتاق إلى الحُب. رنت إليه بنظرة أطعمت فؤاده العاشق، قبّلها بعينيه، واحتضن محيّاها بجفنيه ثُمّ أمسك بكفها الذي كان يختبيء تحت ذراعه، فلم يكن بين تلامس كفه بباطن كفّها وخفوق قلبه إلا كما يكون بين تلامس سلكي كهرباء واشتعال مصباح. انحنى قليلًا ليهمس، فانتبهت أمواج البحر وسكنت، واقتربت النسمات بفضولٍ ومالت بآذانها لتنصت لبوحه لها، وهو يقول:

- كان ينبغي عليّ أن أكون بقربك منذ أمدٍ بعيد. أعشقك؛ هذه حقيقة لا أستطيع الفكاك منها.

رمقته بعذوبة، وقالت بدلال:

- لا أتخيل حياتي بدونك.

انتابته حالة من الإلهام وهو ينظر إليها، وسال الحبّ على طرف لسانه فقال:

- اللقاء الذي جمعنا سويًّا في حفل زفاف أختي، أتذكرين؟ تلك النظرة التي سارعت بغضّها فخطفتها من عيني، رداؤك الطاهر ذاك الذي

بدا مختلفًا في روعته عن رداء الأخريات، ابتسامتك الرقيقة التي لا تنمحي معالمها من ذاكرتي وتخفي خلفها الحياء الذي أُحبه. روحك النقيّة الفطرية التي كُنتِ تتحدثين بها معي، كفّك الرقيق، قامتك القصيرة التي أعشقها، كلّ تلك التفاصيل الصغيرة تسكنني منذ سنوات. أنتِ غيمة برهافة القطن أنغمس فيها بكلّي. أُحبّك.

ثُم أمسك كفّها ووضعها على صدره وكأنّه يدلّها على موضع علّته التي هي دواؤها.

تلقت كلماته كما تتلقى الأرض غيث السماء، وشعرت بالطمأنينة تجيش في صدرها، قالت وقد زاد وجهها إصباحًا:

- لماذا أشعر وكأنني سمعت تلك الكلمات من قبل! وكأن تلك اللحظات تتكرر مرّة أخرى! أليس غريبًا!

قال لها وعلى فمه ترتعد ابتسامة:

- لعلّ أرواحنا تلاقت من قبل، هناك.

- أين؟

- لا أدري.. ولكنّ الله وحده يدري.

شابت نفسه السعادة فغمرت جوانحه ووجد نفسه في انسجام تام

معها. الآن وجد سكنًا له. سمحت له أن يخترق هالتها المقدّسة، ليعشقها، ويصُبّ عليها الحبّ صبًّا. وما أعذب الحلال!

ترك يدها فجأة، خلع معطفه وأعطاه لها فاحتضنته وكأنّه أعاد إليها جزءًا منها. خلع حذاءه وجوربه، بدأ يركل الماء بقدميه ووقفت تضحك، أخرجت هاتفه وبدأت تلتقط له الصور، من بعيدٍ كان هناك شابٌّ آخر يراقبهما، يبتسم وهو يراقب ميلاد حبّ جديد نقي طاهر، ويشتاق إلى الحبّ.

***

تمّت

د. حنان الاشين

(أم البنين)

***

شكر وتقدير

شكرًا لزوجي الغالي «د.شريف طلعت» الذي يشجعني دائمًا على الكتابة.

شكر جزيل وعرفان بالجميل لكلّ من كان لهم فضلٌ لكي تخرج الرواية بهذا الشكل الذي وصلت إليه، شكرًا لإخواني وأخواتي:

أسماء لبيب

الشيماء أحمد

أحمد السعيد مراد

لطيفة برجوس

محبوبة محمد سلامة

منى سلامة

مي التوني

هند حبسة

ياسمين قنديل